



ترجمة مُحَرَّرة

بلغنى : أن العلماء يسألون يوم
القيامة عما يسأل عنه الأنبياء
« مالك »

١

دور التأثير

مالك : الجنين ـ الطفل ـ الغلام ـ الشاب ـ الرجل

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابى الحلبى وشركاه





بلغنى أن العلماء يسألون يوم
القيامة عما يسأل عنه الأنبياء
« مالك »

١

دور التأثر

مالك : الجنين ــ الطفل ــ الغلام ــ الشاب ــ الرجل

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

الإهداء

إلى الذين يقدّرون تبعات القلم وما يسطرون

أهدى هذه الترجمة المحررة ...

أمين الخولى

فهرست الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه الترجمة

هى ترجمة «مالك بن أنس الأصبحى» إمام دار الهجرة، المحدث ، الفقيه ، المتكلم ، المعلّم ... الخ .

أو هى ترجمة مالك ... الإنسان

أو هى ترجمة . . . . فحسب .

حاولت فيها أن أتمثل صورة صحيحة لهذا الصنف من الدرس . . وأرجو أن أكون قد استطعت هذا التمثُّل ، أو قاربت .. فأبرأتها من آفات التراجم عند القدماء والمحدثين ، إن شاء الله .

***

والترجمة ـ فى أقرب بيان ـ هى الدرس المتفهم للأشخاص ، الذين هم العقل العالم ، والوجدان المتفنن ، والنزوع الدافع للحياة ... فهم الحياة فى التاريخ ، أو هم التاريخ الحى .. وما عدا الأشخاص ، من الأعمال ، والآثار ، والدول ، والديانات ، والعلوم ، والفنون .. و .. و..ليس إلا التاريخ الجامد ، بل الميت ، إذا لم يعرف الأشخاص الذين نفخوا فيه من روحهم

***

إذا كان التاريخ ـ فى الفهم الساذج ـ جمعاً للأخبار والأحداث ، ووصفاً سطحياً لما كان ؛ فليس ما يُجمع من ذلك ، وما يوصف ، إلا أعمال أناسىّ ، ونشاط أشخاص، ترسم شخصياتهم، وتصوّر قواهم ، فيعرف بذلك ما استطاعوا وما عملوا ..

وإذا صار التاريخ ـ فى الفهم الدقيق ـ وصفاً لسير الحياة بالكائنات المادية والمعنوية ، يكشف عن سنن ذلك ، و يبين كيف كان هذا المسير ؟ ولم ؟ وإلى أى هدف ؟ فليس ذلك كله ، إلا عن فهم للأشخاص الذين صاغوا هـذا كله بأيديهم ، وألسنتهم ، وعقولهم ، وميولهم ، وأخلاقهم ، وأهوائهم وشهواتهم ، وحكمتهم ، وأخطائهم ، وحريتهم ، وجبرهم .. و .. و .. فالتاريخ كيفما فهمته يُكتب بالتراجم ، ولن يكتب بدون التراجم ..

***

وكذلك سارت الترجمة والتاريخ ، فى طريق واحد من التدرج والتطور ، من القصة السامرة .. إلى الحقيقة الممحصة ..

وإذا ما طمعت الدقة العلمية فى تحرير منهج التاريخ ، فما أحسبها تظفر فى ذلك بخير من الدراسة الإنسانية ، تزيد بها معرفتها للإنسان ، والنفس البشرية ، فيزيد تفسيرها لأعمال الأشخاص صحة وخبرة ، وتتمثلها تمثلاً

صحيحاً ، وتنقدها نقداً دقيقاً ، وذلك هو التأريخ المرجو ، الذى يستشرف إليه التقدم العقلى .

* * *

وبين التاريخ والأدب صلة وثيقة ، بدت فى صور مختلفة من التدرج والتطور ، سواء أكان التاريخ سمراً خاصًّا ، أم كان محاضرة شيقة ، أم قصة مشهودة أو مكتوبة ، أم كتاباً مقروءاً ، فهو فى كل أولئك الصور ، كما هو فى غيرها ، إنما يقوم بفن من القول يقربه من النفوس ، أو يترجم عن وقع الأسمار والأحداث والأعمال عليها ، وشعورها بها . . وكذلك قدَّم فن القول مقدرته الناثرة والشاعرة للتاريخ ، تعرضه ، وتصوغ منه ألواناً من النثر والشعر : قصة ، وملحمة ، ومسرحية ، وترجمة ؛ واستقل الأسلوبُ القاص ، الراوى ، المخبر ، بخصائصه المميزة له فى النثر والشعر ، على السواء ، وخلدت تلك المداخلة بين التاريخ والأدب ، وكانت بين الأدب والتراجم — من أنواع التاريخ — مداخلة أوثق وثاقة ، وأقوى ارتباطاً ، إذ قدَّمتِ السيرُ والتراجم ، مواد من التاريخ لأضرب من فنون الأدب ... واحتاجت تلك التراجم والسير — فى التاريخ — إلى العرض الشيق ، والتعبير المبين ، يمدها به الأدب .

وإن يجنح التاريخ إلى أن يكون علما ، ونكن من المتفائلين له فى ذلك ، المطمئنين إلى إمكان فهم الحياة وسيرها ، أمس واليوم ، بقوانين عامة ، ثابتة ، مطردة ، فإنا مع كل هذا لنشعر بأن الترجمة ـ من بين صنوف التاريخ ـ ستحتاج أمداً طويلا ، إلى لون من النشاط الفنى ، والنفاذ الوجدانى ، حين تحاول فهم أنفُس المترجَم لهم ، واستشفاف دخائل قلوبهم ، و بواعث أعمالهم ، و بيان ذلك وما إليه بياناً حساساً ، دقيقاً ، مصوراً ، فتكون الدقة الوجدانية ـ وهى ملاك الشخصية الأدبية ـ من خير ما يعين الدقة العلمية ، إذ تتفهم النفوس البشرية فى المترجمين ، وتجلو الوجود النفسى لهم . . . وكذلك تكون الصلة بين الفن الأدبى وهذه التراجم ، أطول عمراً ، وأبقى بقاء . .

من أجل ذلك كان أصحاب الدرس الأدبى ، حين تسعفهم طاقتهم العقلية ، وتمدهم ثقافتهم العلمية ، هم الأقدرين على كتابة هذه التراجم ، والتناول الصحيح الدقيق لها . . وهو ما أشعر به حين أعد هذه الترجمة المحررة من عمل « الأمناء » ، وأخرجها حاملة طابعهم ، معتدة نفسها من صميم نتاجهم ، وخاص عملهم .

* * *

وفى الذى أسلفنا من الصلة بين الأدب والتاريخ ، مع التفاؤل لعلمية التاريخ ؛ ومن جدوى الثقافة العلمية للأدباء على عملهم فى كتابة التراجم . . فى كل أولئك ما يدل من قرب ، وفى وضوح ، على ما نرجوه فى الترجمة من عمل عقلى أو علمى ، لابد منه ، لكى تكون الترجمة اليوم فى مستوى يوائم التقدم العقلى ، والرقى العلمى ، الذى صارت إليه الحياة حولنا ، وهو ما أزعم أنى تمثلته ، وأزعم أنى التزمت محاولته فى هذه الترجمة المحررة ، إذ أحسست إحساساً قويا ، بأن من كتّاب التراجم عندنا ، مَن أخلّوا بجوهره، إخلالا منع تراجم كتبوها ، من أن تكون تأريخاً ، خليقاً بهذا الاسم ، حين يتحدث العلماء عن إمكان عدّ التاريخ علما . . أو تكون عملا فنيا ، خليقاً بهذا الاسم ، حين يطمع الفن فى أن يعد نفسه عملا ذا حرمة ، بين أعمال العصر . وهذا الذى رنوت إليه وافتقدته ، وطمعت — فى غير غرور — أن يكون عملى فى هذه الترجمة المحررة ، سعياً إلى تحقيقه ، إنما هو صدى لمنهج عقلى ونقلى ، وفنى وأدبى، ينبغى أن يُلتزم فى الترجمة، حتى تكون ترجمة محررة حقاً . . ومن هجّيراى المسيطرة أن أضع الكتاب ، مثالا للمنهج ، وأصلاً فيه ، بعد أن أحرر القول فى المنهج تحريراً لا بأس — إن شاء الله — فى أن أعتده العمل كل العمل فى جيلنا هذا ، فمتى ما يستقر ويثبت ، يكن له ما بعده ، من إشادة وإجادة .

وهذا الذى أرجوه من المنهج، إنما هو — مع الصورة الصحيحة للفن — أصول

يعتبرها أصحاب التاريخ، حين يصفون العمل الصحيح فيه، فيقيمونه على الأسس الآتية:
الجمع المستقصى لمواد الموضوع .. ثم النقد الفاحص لها .. يعقبه التفسير المبيّن لمرامى هذه المرويات، الكاشف عن دلالتها، فإذا تبين ذلك كان العرضُ المعبِّر عنه، فى صورة مجلوة وضيئة .. وتلك هى خطوات منهج الترجمة المحررة، التى عددتها فى التاريخ عملاً، وفى الفن شيئاً، وشعرت فيها بالتقاء الثقافة العقلية، والدقة التاريخية، مع البيان الفنى ...

وإليك كلمات عن مراحل هذا المنهج، وما أصابت ترجمة «مالك» منه، تبصرة لك بما ستقدم على قراءته، وذكرى لمن التمس تلك التراجم، لبعض شخصيات صانعى التاريخ.

* * *

فأول ذلك كله وأساسه هو: **الجمع المستقصى الشامل**، لأخبار المترجَم له، لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .. وفى هذه التراجم بخاصة، ومع محاولة التفسير النفسى لشخصية إنسان، يكون كل مايتصل بهذا الإنسان، مادة فى الموضوع، فعمل المترِجم فى هذه الخطوة، كعمل المحقق الشرطى، والقضائى، لا يهمل أثرا ما فى ميدان القضية، ولا يجعل شيئاً هاما، وشيئاً آخر قليل الأهمية؛ فالجمع يشمل الآثار المادية، ما وُجد سبيل إليها، إذ هى الرواية العملية .. كما يشمل الأقوال المروية، مشافهة، إن أمكن ذلك،

وإلا فتلقيا من المكتوبات ، وتلك هى الرواية القولية..ولا ينتهى الأمر عند جمع ما كتب فى ترجمة من نريد التحدث عنه ، بل لابد من الجد فى جمع المتفرقات من مظانها ، حسبما يهدى البحث ، ويسعف الاطلاع ، لأن المعرفة المرجوة فى شمولها وسعتها ، لا يعين عليها إلا جمع ذلك ، فى استقصاء وإحاطة .

* * *

وأحسب أنك تقدر معى ، ما يمكن جمعه فى هذه الترجمة وما لا يمكن، فالآثار المادية لا سبيل إلى شىء منها مع بعد الزمن ، وإهمال ذلك فى حياتنا حتى اليوم... وإن لم نيأس من أن تتجه العناية إليه بالحفر والجمع ، فنظفر بآثار حسية ، عن أبعد العصور ، وأقدم الأيام .

وبعدالاقتصار على الرواية القولية ، تجد المدوّن منها كثيراً غير قليل ، وقد سقت منه ما سقت ـ ص ٥ وهامش ص ٣٠ و ٣١ ـ مع ماأوردت فى ذيل الصفحات ، عند كل مناسبة .

وإن هذا الكثير لقليل من حيث الأصالة ، لأن جمهرته نقل متناسخ ، إن ناله شىء من التغيير ، فتشويه لسوء الفهم حيناً ، أو لرغبة الاختصار آناً ، أو لشىء كهذا ... على أن الرجوع ، مع ذلك ، إلى كل ما يوجد واجب ، لتخرج منه بأحد شيئين :

١ — جديد، من الخبر ، أو من التفسير ، أو الفهم، أو النقد — إن كان — وإلا خرجت بالثانى، وهو :

٢ — صورة من فعل الزمن بالروايات المتداولة المتناقلة ، وما يعتريها بهذا التداول من تصحيف، أو تحريف ، أو مسخ ، أو . . أو . . مما تزيد به بصيرة فى تحقيق النص ، ومقابلة المرويات ، وما إلى ذلك

***

وفى الجمع لهذه الترجمة ، قد بذلت الجهد المستطاع ، للوصول إلى المرويات مهما تكن غير أصيلة ، وظل ذلك ينمو مع استطالة الزمن، إلى ما فوق عشر السنوات ، وحملت الترجمة من آثاره ، مثل ما ترى فى هامش ص ٢٤٠ من وصف مخطوطة ثالثة (لترتيب المدارك) عُثر عليها بعد دهر من كتابة هذا القدر ، ثم إنجاز طبعه . . وما ترى فى الجزء الثالث من إحالة على كتاب (إرشاد السالك إلى مناقب مالك) « ليوسف بن عبد الهادى » وهو الذى صوّرت الجامعة العربية منه فلماً، فيما صوّرت من مخطوطات سنة ١٩٥٠، كما صورتْ فلماً من مخطوط آخر هو (شيوخ مالك) «لابن خلفون» فسعيت إلى قراءة الفلمين، على آلة القراءة الضوئية بالجامعة ، حتى نقلت ما يعنينى منهما ، وذلك خلال طبع القسم الأخير من الكتاب . . ورغم ذلك

ومثله ، فإنى لأطمع أن نظفر بالضائع من آثارنا العلمية ، بجمع جادٍّ ، توضع له سياسة ثابتة . . وبتنقيبٍ متعمق ، تصل به اليد إلى تلك المرويات المادية ، فنظفر بمصادر جديدة ، يكون فيها الوفاء بما شكونا من نقص تلك الترجمة ، — ص ٤٣٥—

***

ويتلو ذلك الجمع المستقصى ، النقدُ الفاحص ، ينفى من ركام هذا المجموع كل ما ينزل عن مرتبة الوثيقة ، الموثوق بها .

وسبيل هذا النقد — فيما قال الأسلاف أنفسهم — هو : نقد السند الذى حُمل به المتن ونُقل . . ثم فَحْص المتن المنقول نفسه .

ومن النقد الفاحص: تحقيق نصوص ما نقل من مؤلفات سابقة ، عن المترجَم له ، وما نسب إليه هو من مؤلفات ، تحقيقاً تخلص لنا منه نسخ تصوِّر قدر الطاقة ، تلك المؤلفات ، كما خرجت من أقلام أصحابها ، فذلك ما لابد منه قبل النظر فى محتوياتها ، وما اشتملت عليه ، من مرويات مسندة ، أو آراء وأفكار للمترجم له ، وتناول الأول منها بنقد سندٍ أو متنٍ ، وتناول الثانى منها — أفكار المترجم — بتقدير أو وزن ؛ فلا شىء من ذلك يقوم على أساس ، إلا حين يؤخذ من نسخ محققة ثابتة النسب ، صادقة الصورة لما خرج من أيدى جامعيها أو مؤلفيها .

***

وفى هذه الترجمة غلب صنف من السند المعلق ، لا يذكر فيه إلا رأس السلسلة الذى ينتهى إليه الخبر ، وما عداه فمحذوف ... وقد يحذف السند جملة ، لا تذكر من سلسلته أية حلقة ... والصنف الأول هوسند « القاضى عياض » فى كتابه (ترتيب المدارك) ، الذى يعتبر أحفل ترجمة كتبت « لمالك » ، وجمعت جمهرة ما كتب قبلها ، ولم يظهر شىء بعدها ، قد وصلت إليه اليد ، إلا وفيها تفصيله أو جملته . . . وهو سند تضيع فرصة النظر فيه ، أو تناوله بفحص ما ، يكشف عن مواضع الوهن فى حلقاته ... ورأس السلسلة المذكور ، يكون دائما من أصحاب « مالك » أو من أنداده

ومن هنا لم يكن لنا فى هذا الصنف سبيل إلى نقدٍ لمتن ، أَثَر على خبر ، أو أكسب شيئاً من دقة .

وأما الصنف الثانى ، المحذوف رأساً ، فمثل مافى مناقب «الزواوى» الذى يقول ـ ص ٤ و ٥ ـ : «..فمن كتب العلماء نقلته ، ومن أقاويلهم جمعته ، لكنى تركت الاعتزاء إليهم اختصاراً ، وحذفت الأسانيد استكثارا ، إذ ليس فيما نقلته شىء غريب ، ولا أمر مستنكر عجيب ، فإن فضل الإمام أشهر ، وذكره أسمى وأطهر . .» فهو ـ كما تسمع ـ حذفُ واثقٍ مستسلم ، لا يرى فى هذه الروايات غريبا ولا عجيباً ! ! وهو مالا نقوله معه ، بعد ذلك الذى اصطدمنا به عندهم ، من منهج غير محرر ولا ناقد ، مما فى تلك

المناقب ، الحافلة بالغرائب والعجائب ، والتى نقدناها نقـداً غير قصير ، تحت عنوان : (المناقب والتراجم) ـ ص٥ : ١٠ ـ وظللنا نشير إلى تلك الطريقة التى دعوناها «المنقبية» وحملنا عليها كل مالقينا من خبرٍ تسوده روح التسليم ، ولا يناله التمحيص الواجب . . . وقد شكونا التناقض فى المرويات ـ ص ١٣ : ١٤ ـ و برمنا بالاختلاف الذى يكاد يستغرق الصور العقلية المحتملة جميعا ، فى كل مسألة تروى ! ! وهو ما حال حذف السند كله أو جله ، دون الانتفاع بنقده فى رفع التناقض .

وأما ما رجونا من تحقيق النصوص المنقولة ـ ترجمات ومؤلفات ـ فإن حياتنا العلمية والأدبية عاجزة عن الوفاء به ، فنحن نعتمد متهورين على نُسخ مطبوعة طبعاً تجاريا سوقيا ، لا أصالة فيه ولا شعور بواجب ما، أو مخطوطات مفردة حينا ، أو متعددة لـكن لم تتم مقابلاتها المحققة ، والانتباه إلى الأصيل منها !

وهذا ما شعرت بالنقص فيه ، و بيّنت موضع الحاجه إلى الاستكمال ، ووصفت قصورَ نقدى بسببه ، وأنه قد انتهى عند ما أعانت عليه أصول لم تنل حظها من التحقيق ، ولعلها لو حُقِّقت نصوصها تُغيِّر بكلمة أو حرف ، ما فُهم منها وما استُنبط ـ ص ٤٣٥ ـ

* * *

وأما نقد المتن ، فشهد الحق أنى قد عنيت به ، وانتبهت له انتباهاً كافياً ، ولعله يكون وافياً . . . وإنك لتجد آثار هذا فى مواضع لا تحصى ، كما ترى وقفة ناقدة لمتن تاريخى ، لم يثن العزمَ فيها أن أعلام المؤرخين « كالطبرى » قد رووه وساقوه ـ انظر ص ١٨٨ و ١٩٦ ـ

على أنا لا نستبعد أن تكون روح التهيب المحافظة ، التى نُشئتُ عليها ، وجمود البيئة التى حولنا بل إرهابها ، قد صرفنى ـ فى تنبه أو فى غير تنبه ـ عن بعض النقد الواجب لتلك المرويات الكثيرة المتعارضة . . . وهو ما نطمع أن تكمله الأيام وتصححه المراجعات ، أو يتولاه بعدنا من خلص مما تركت فينا تلك المؤثرات، من صوارف عن النقد الواجب حتى النهاية !

* * *

وإذا صُفيت تلك المرويات ، فبقى النقى منها ، تلتْ ذلك مهمة هى : تفسير المرويات ببيان مرماها ومغزاها ، وإيضاح دلالتها وشهادتها ، واستخراج خطوط الصورة منها، وملامح الشخصية فيها، وتبين بواعث العمل ومقاصد العامل ، والغايات المبتغاة . . . الخ

وفى هذا التفسير ، تتحدث الخبرة المباشرة بالحياة ، والتجربة الشخصية لها،

كما تتحدث الخبرة التى تمدها القراءة والدراسة لشئون تلك الحيـاة والنفس ، والمجتمع والأمزجة ، والشخصيات . . . و . . . و . . . من وسائل المعرفة لهذا الإنسان ، فرداً وجمعاً .

ومن هنا يختلف التفسير والتأويل باختـلاف المستوى العقلى والوجدانى للـكاتب المتناول : فإن كان غيبي النزعة ، فتفسيره غيبي ، وتأويله لاهوتى ، وترجمته منقبية ، أو هى من المنقبية بسبيل . . .

و إن كان قد جاوز ذلك الأفق ، واتسع مدى تعقله إلى ما وراء الخوارق والمباغتات ، والطفرات والمفاجآت ، فبيانه وتفسيره متجاوز ذلك معه ، موفٍ على دقةٍ مناسبة لمقدار فهمه ، ودرجة وجدانه، متفاوتاً ذلك، بتفاوت الأشخاص وتمايز الـكتاب .

و إن كان الـكاتب دقيقاً فاحصاً ، محتاطاً مجرباً ، فتفسيره للحوادث و بيانه للمرويات ، متسم بتلك السمات ، نافذ إلى ما وراء الظواهر ، مستبعد للسطحيات ، ماضٍ إلى الصميم واللباب، مهما تشغله عنه صوارف ، أو تقم حول المترجَم له هالات من الإكبار ، وتسلط عليه أضواء من الإجلال ، بفعل الأحـداث والأزمان وشائعات الأعمار . . . . . وإنها لـكبيرة إلا على الصابرين . .

هـكذا نشعر فى يقين ، أن اختـلاف فهم الوثائق وتفسير المرويات ،

باختلاف مراتب المفسرين تعقلا ودقة نقد ، يجعل من الممكن دائمـا أن تعود الترجمة فتُـكتَب وتكتب ، بتقدم الإنسانية وتغير مستواها ، وانفساح آفاق معرفتها وآماد إدراكها . . . فتكون كل ترجمة صورة من فهم عصرها للرجال ، وبصره بالإنسانية والإنسان . . وتظل الوثائق القديمة والمرويات العتيقة مادة لفهم جديد واستنباط جديد ، كلما أقبل الدارسون على النظر فيها بعقول أكثر حذراً، وعيون أحد بصراً ، ومن هذا ما طمعت فيه من أن يقدَّر للشيخ ذو خبرة نفسية متخصص ، يتصدى للمحقَّق من أخباره فيفسرها تفسيرا نفسيا علمياً ، ويصف خلقه ومزاجه وصفا علمياً كذلك ، ورجوت أن أُوفق فى إغراء بعض الأصدقاء من أصحاب المدرسة النفسية بهذا العمل يوماً ما ـ ص ٤٣٥ ـ .

***

وفى التفسير من هذه الترجمة ، لم أقتصر على المرويات الخبرية المجتمعة فى تراجم سابقــة ، أو المتفرقة فى مصادر أخرى ، بل قدرت ما لآثار المترجم من أهمية فى الدلالة على نفسه ، وعقدت فصلًا لذلك ـ ص ٤٤٢ ـ فرقت فيــه بين دلالة الآثار الفنية ، ودلالة الآثار العلمية أو الفلسفية . . وبينت أن الفنى من تلك الآثار ، بما هو نشاط داخلى ، وجــدانى ، شخصى ، يكون أعون وأبين فى الدلالة على نفس صاحبه، لأنه صدى مباشر لها، وحديث خاص عنها . . والأمر مختلف عن ذلك النشاطين الفلسفى والعلمى .

على أنى ، مع عنايتى الكبرى بالتفهم النفسى للمترجَمين ، قد قدرت صعوبة التأويل النفسى الداخلى للأعمال ، وأنه وعر الطريق ، مشتبه المسالك لغموض البواعث والمقاصد ، وخفاء دلالة الأفعال على النوايا الداخلية . . ومن هنا كان تناولى ، لما استطعته من ذلك ، تناولاً معتدلاً حذراً . . أما حين يكون التفسير للمسالك الاجتماعية ، فإن الأمر يهون بعض الشيء ، إذ يلوذ المفسر ، بما عرف من السنن الاجتماعية ، لمظاهر نشاط الفرد والجمع ، علمية وعملية ، فى نشوئها ، وتطورها ، وتفاعلها، وهى أقرب منالا من النفسيات .

وفى هذا التفسير كله ، أرجو أن أكون قد عشت فى عصرى ، وقاربت ما يرجو أهله ، فى فهم حياة إمام مثل « مالك » ، بما هو إنسان ، لا غير ، ولا أكثر ، فذلك ما لم أمل الإشارة إليه ، منذ الصفحات الأولى ـ ص ٦ و ٢٨٩ ، ٣٠٧ و ٣٧٤ ـ وغيرها . . كما أرجو أن أكون قد فهمت حياة الفقه والرأى ، وما إلى ذلك من حياة علمية ، وصلتها بالحياة الاجتماعية ، فهماً واقعياً ، يساير السنن الكونية ، بتدرج واضح المعالم ، لا غموض فيه ، ولا اضطراب ولا شذوذ ـ ص ٦٠٧ : ٦٥٨ ـ . . وأن أكون قد قدرت فى ذلك كل أثر للبيئة ، تقديراً صحيحاً ، يرضى روح الدقة العلمية اليوم ـ ص ٥٩٥ : ٦٠٦ ـ

وتأصيلًا لهذا المنهج ، الذى لم أغفل عن تذكير القارئ به ، اضطررت

إلى أن أقف وقفة خاصة ، لأرفع أمامه معالم واضحة ، لهذا التفكير ، عند ما يتناول الفقه وأصوله ، فلا يعرف طفرة ، ولا يدين لصدفة ، ولا يضن بشيء على تعليل ، ولا يترفع بشيء عن بحث – ص ٦٦٥ : ٦٧٣ –

وخفت دائماً خطر المنقبية والمنقبيين ، منذ اللحظة الأولى ، وأشرت إلى أثر جوره على الحقيقة ، إشارات لا تحصى .

***

وعلى رغم ذلك كله ، لا أزعم أنى قد نجوت من أثر الوراثة العتيدة وجو البيئة المحيطة ، فلم أفسر بعض المرويات تفسيراً مستهوًى ، أو مخدوعاً . . فإن يكن شيء من ذلك قد كان ، فأنا على أهبة الإصلاح له ، فى أول فرصة مواتية .

وبعد ذلك وتتمته ، خطوة التعبير ، والتصوير القولى للمترجم له . .

تعبيراً مُحضِراً ، يبرز ملامح الشخصية ، التى تمثُل أمام القائم بالترجمة بعد أن يعرف أقصى ما يستطيع أن يعرف من أخبار صاحبها . . وينقد ذلك أدق النقد الفاحص . . ويفسر ما يثبت على ذلك من المرويات تفسيراً حيوياً ، نفسياً ، اجتماعياً ، فتكون نتائجه هى الخطوط الكبرى والصغرى ، فى صورة المترجم له . . ولا يكون التصوير القولى إلا تحويلًا لتلك الخطوط إلى جمل وكلم . .

هذا التعبير فى الترجمة ، هو الروح التى ينفخها كاتب الترجمة ، فى كائن قد تكاملت عظام هيكله ، من الأخبار التى استوعبها الجمع الشامل . . وشَدَّت تلك العظامَ عضلات من الفحص الناقد . . وانبثت فى الهيكل عروق وأعصاب ، من التفسير المتفهم ، فتبيأت بنيةُ هذا الكائن ، لما ينفخ فيها التعبير من روح ترد المترجم إلى الحياة وترد الحياة إليه ، وترسله يسعى أمام القراء ، يعرفونه كما يعرفون رجلا بينهم ، يأكل الطعام ، ويمشى فى الأسواق .

هذا التعبير إحياء و بعث ، و إعادة ونشور ، لخلق بدأه الله ،وصقلته الحياة وأنضجته التجربة ، وحفظ عنه التاريخ تلك المرويات التى تلقاها الكاتب ، على أنها الأصل الذى يحور إليه ، ويصدر عنه ، و يتولاه بالدرس والفحص ، ليتعرف صاحبها بما هو إنسان حى .

هذا التعبير ، فى الترجمة ، تصوير يبرز خصائص الشخص الماثل أمام واعية المترجِم ، ويجلّى جوانب الشخصية الواضحة ، أمام تنبه المترجِم . . فما يفترق مثولها ولا وضوحها فى شىء ، عن وضوح المِثال القائم بين يدى مصور صناع ، أو نحات خالق .

هذا التعبير ، فى الترجمة ، خطوة من الفن ، تؤازر الخطا السابقة من البحث ... ولعل تلك الخطوة ، هى ما يقول عنه « لود ڤيج » : إن واجب

المتفنن هو صنع الشيء الواحد ، من المواد ، التي أتى بها الباحث الفاحص . . وتلك هى أم الصلة بين التاريخ والأدب . . ولا سيما هذه التراجم ، من فنون التاريخ .

هذا التعبير ، فى الترجمة ، يتقيد ويتحدد ، بما لا يتقيد به التعبير الفنى ، فى غير التراجم ، حين يتناول الشخصيات ، كخلقها فى القصة ، أو المسرحية ، أو الصورة القلمية ، أو . . أو . . من أعمال فنية ، تتناول الأشخاص ، فتكون ما تكون . . لكنها لا تكون الترجمة ، التى تعطَى هذا الاسم ، وتتميز بين صنوف التاريخ . .

هذا التعبير . . مهما يكن لشخصية الكاتب فيه من أثر . . بعد الذى كان له من ذلك فى التفسير والتأويل ـ على ما أسلفنا ـ فالخطر فى كل حال يدفعه المنهج الصحيح ، وأن تفسير الكاتب للروايات ، إنما يقوم على بصيرة مستشفة ، تحت أضواء علمية ، أو هى أدنى ما تكون إلى العلم . . كما أن تعبير الكاتب ، إنما يقوم على قدرة التلوين ، وقوة التصوير ، فى صدق دقيق ، يكبح الهوى لأنه يزهى اللون ويزيد بريقه ، أو يكبيه ويمحله ، فيكون لوناً بدائى الحياة ، أو ميتاً . . . كما أن الهوى يهز الصورة ، فتشيه ملامحها ، ويفسدُ تناسبها ، فتكون عملا هازلا . . أو لا تكون عملا مّا ! !

إن فن كاتب الترجمة ، يتمثل الأمانة ، ويرتفع على التحيز والتعصب ، ويتحرر من التقليد ، ويخلص من الاستهواء ، ويلتزم المراجع والوثائق المحررة ، ولا يستمد إلا من التحقيق الدقيق ، والتفسير العالم . . ومن هنا كانت منقبية الأقدمين فتنة . . كما كان ارتزاق المحدثين محنة . . وهوى السياسة وما إليها بلية . . وكانت الشجاعة الأدبية أوجب وجوباً ، والثقة بالنفس ألزم لزوما . . وإنما يوقَّى التراجمَ من سوء هذا كله ، فهمٌ صحيح لمعنى الفن ومهمته فى الحياة ، ومكانه بين ألوان المعارف الإنسانية ، فما دام الفن ليس إلا وقع الوجود على الوجدان ؛ وما دام هو بين صنوف النشاط الفردى والجماعى واحدا منها ، يحاول من رفع مستوى حياة الفرد والجمع ، ما يحاوله النشاط العقلى والعملى .. وما دام هو فى المعارف تفسيراً وجدانياً للكون ، فلن يعترف مع ذلك كله ، بشيء من اللعب بالألفاظ ، ولن يكون فيه مجال لصناعة تافهة تفسد المعانى ، ولن يقر التزين المُغرق . . ولن . . ولن . . ولن . بل سيكون أداءً أمينا لما فى النفس ، وإخراجاً صادقاً لما أجن الوجدان ، ولن يمدح مجازفاً ، ولن يذم متساهلا ، ولن يعجب فى خفة ، ولن يعيب فى غير شعور بالتبعة ، ولن يزعم أو يظن ، مايزعمه الشداة ، ويظنه الناشئون ، من أن الأمر كلام إنشا . ولن يقع فى جريمة مَن يُقال لهم : قولوا فى كذا ، أو اكتبوا فى كذا . . فيضعوا مشاعرهم وأقلامهم ، فى الموضع الذى يراد

لها ، وينظــرون بعيون الذين أمروهم أو خدعوهم ، وفى كل حال قد استرقوهم ! !

وإنى لأطمئن واثقاً ، أن معنى الفن الصحيح ، ينفى كل زيف من التعبير فى الترجمة ، ويقيها كل خطر من هذه الناحية ، بل يمنع عنها ما يُخشى فى الميدان الفنى ، من سيطرة الشخصية الفردية وفقدان الذاتية الموضوعية ، لأن الفن الحق ، والأدب الصدق ، ليست ذوات أصحابه إلا مثلا إنسانية ، ومعالم بشرية ، تجد فيها النفوس صورها ، وتسمع منها الأرواح همسها . . وكذلك تـكون ذوات المتفننين، الجديرين بهذا الاسم، هى حقائق الحياة الوجدانية . . فتـكون ذاتيتهم الفنية موضوعية إنسانية . . أما المأجورون ، وأما الظلال ، وأما الأرقاء ، فلن يكونوا يوما ما ، فى المتفننين حقا ، وإن دقت لهم طبول ، فأفشل الأشياء أجهرها صوتا . . وإن رنت لهم أسماء ، فأسير الأسماء فى الجماهير أسماء أهــل اللهو العابث المرفِّهين . . فليس للمرتزقين والظلال والأرقاء ، ذوات فنية ، فتكون موضوعات إنسانية . . بل فيهم ــ وفيهم وحدهم ــ تفترق الذاتية عن الموضوعية قدر ما تفترق الظلال عن الجسمات ، ويثور التفريق بين الموضوعى والذاتى ، ويختلف الأمر فى الفن عنه فى العلم .. الخ . وهو ما أنـكره كله ، حين يكون الفن فناً حقاً جديراً بهذه الاسم . . ولذلك فضل بيان ، لا يحتمله هذا المجال .

لقد أطلت ـ وأخشى أن أكون أمللت ـ لأنفى عن الترجمة أنها اليوم زخرف قول ، وزينة لفظ ، وإطلاق حكم ، أو أنها سلوة جماهير ، ودعاوة سُوّاس ، أو تلهية ناس ، بغرائب أحداث ، وقد نفيت عنها أن تكون أمس ، مناقب وخوارق ، وأمشاج شائعات ، وتلفيق قصاص . فإنما الترجمة عمل له جلاله ، لأنها كما قيل دقة علم ـ وما أشق ـ ، فى قوة فن ـ وما أرق ! .

* * *

وفى التعبير ، من هذه الترجمة ، آمل ألا أكون قد استخفتنى أوهام أدبية مقررة ، أو جمح بى خيال ، بل أجريت فيها التعبير جاداً ، يخشى أثر الصورة البيانية على دقة الحكم وسلامة المعنى ، فلا ينال من ذلك شيئاً ، إلا فى حفاظ على الحق ، ووفاء بالأمانة فى المعنى .

على أنى دائماً ، لا أنسى ما يضطرب حولنا من فوضى أدبية لها عدواها ، واستهانة علمية لها فسادها . . وما أشق أن يتمرد المرء على سلطان بيئته ! ! فإن بدا من آثار ذلك شىء لقارىء ، فإن له فى إصلاحه سلطة الحق كلها .

* * *

وبعد . . فقد طالت رفقتى لصاحبى حتى جاوزت العشر السنوات ، إن نسيته بعض الوقت ، ذكرته جل الوقت : أقرأ عنه ، وأفهم له ، وأتعرف عليه . فلعلى قد خرجت من ذلك كله بما أمّلت ، من أن تكون هذه الترجمة محاولة راجية لتأصيل منهج سديد ما ؟

مصر الجديدة فى { ٢٥ رجب ١٣٧٠ هـ
أول مايو ١٩٥١ م }

أمين الخولى

في المنهج

١ — التخصص الدقيق

٢ — المناقب والتراجم

(١)

يقال : « إن نقل المخالف فى المذهب لا يُعتـد به » ، إذ الفقه ـ وإن كان علماً واحداً ـ تختلف فيه اصطلاحات المذاهب ، وأصولهـا ، وطرق الترجيح والتصحيح .

هكذا يرى أسلافنا : أن من ينقل عن كتاب من غير مذهبه الذى تلقاه دراسة ، لا يوثق بنقله ، ولا يعتمد عليه .

وإنما سقت هذا القول ، لأشير إلى معنى فيه ، من التخصص الدقيق ، الذى تمسك به أصحاب هذه الفـكرة ، مهما يكن تقليدهم . . .

فى هذا الرأى تقدير لحرمة الحقيقة ، ورعاية لحدودها عند البحث ؛ وإنه ليجمل بنا اليوم ،أن نأخذ أنفسنا بمثل ذلك ، حينما نحاول دراسة مّا فى فقه ، أو أدب ، أو تاريخ ، أو غير ذلك .

تتفق هذه المعانى القديمة ، مع الروح العلمية للعصر الحديث أتم اتفاق ، لمـا يدعو إليه العلم من تخصص ، وما يبتغيه من درس متأنٍ منقطع ، ينفق السنين الطوال فى الموضوع الواحد ، حتى يكون دارسُه ثقة فيه ، ومرجعاً تجدى دراسته على العلم ، وتمده بجديد .

وإنى لأرى ـ مادام الأمر كذلك ـ أنه لا يحل لشرقى ، بله الغربى ، أن يتصدى لتأريخ الفقه الإسلامى ، بمختلف مذاهبه ، البائد منها والباقى ، فى كراسة واحدة أو كراسات ، بإلمامة طائرة ، وفى نظرات عامة ، وقد يكون هذا المؤرخ ممن لم يتلق درساً فى أصول الفقه الإسلامى ، ولاعالج فهم مسألة من مسائل هذا الفقه .

على أنى أقرر هذا أول ما أقرر ، لأكفكف من غلوائى أنا، فى التحدث عن فقه مالك رضى الله عنـه ، ولم أدرس إلا المذهب الحنفى ، ولأعلن بين يديكم ، أنى أتحرج وأتأثم من ذلك كل التحرج والتأثم ، ومن أجل ذلك حددت موضوعى هذا ، بأنه ترجمة محررة للإمام مالك ـ رضه ـ قد أتحدث فيها عن شخصيته الفقهية فى إجمـال تام ، تاركا ما وراء ذلك لدراسة شاملة وممارسة طويلة للفقه المالـكى . بل إنى لأوثر ترك الحديث عن انتشار المذهب المالـكى لفقيهٍ مُمارس ، يجد فى روح المذهب ودقائقـه ما قد يعلل رواجه وذيوعه .... وإن تسلم لى ترجمة محررة للإمام فذلك حسبى وكفى !

(٢)

مهما تكن الدرجة التى وصل إليها علم التاريخ عند الأقدمين ، بالقياس إلى محاولات المحدثين الدقيقة فى ذلك؛ فإنا نجدهم قد عدوا علم التاريخ ، وعلم الطبقات[١] ، وذكروا التراجم، كما سموا المناقب والفضائل ، وفرقوا بين هذه الأنواع تفريقاً يظهر أو يخفى .

على أن الذى يعنينا هو أن نقف وقفة عندما سموه « المناقب » وألّف فيه عن الإمام «مالك» أكثر من واحد[٢] ، فإنه ليبدو أن هذه «المناقب» تستمد قيمتها العلمية من المعنى اللغوى لكلمة « المنقبة » واحدة المناقب ، أى المفخرة ، فيجمع فيها كاتبوها فضائل المترجم له ، ومكارمه من الفعال ،

---

(١) السخاوى : الإعلان بالتوبيخ ، لمن ذم أهل التواريخ ص ٤٦ ، ١٥٢ .

(٢) ذكر صاحب كشف الظنون تحت عنوان «مناقب مالك» ثلاثة مؤلفات : ١ـ لأبى بكر الدينورى المتوفى سنة ٣١٠ هـ ، ولم أره. ٢ـ ولعيسى بن مسعود أبى الروح الشافعى المتوفى سنة ٧٧٤ هـ . ٣ـ وللجلال السيوطى سماه «تزيين الأرائك بمناقب الإمام مالك» ـ وأقول: قد طبع للسيوطى باسم تزيين الممالك لا الأرائك. ومعه مناقب لعيسى بن مسعود الزواوى المالكى الشافعى . وهو متوفى سنة ٧٤٣ هـ لا ٧٧٤ كما هنا ؟!!

وهناك [الانتقاء] لابن عبد البر مطبوع، فى ترجمة مالك والشافعى وأبى حنيفة [والتنوير] للمقدسى فى مناقب الأربعة ـ خط ـ بدار الكتب ـ كما أن بها [مناقب مالك] لمجهول، ـ خط ـ ..... إلى آخر ما سنشير إليه بعد، مما ذكره القاضى عياض ، فى [ترتيب المدارك]

والخصائص التي يعوزها غير القليـل من التحقيق التاريخي . بل التي يقضي المنهج السديد باتقائها ، وعدم الاطمئنان إليها .

و إنك لتلمح في مناقب الصنف الواحد من الناس ، كالفقهاء أو المحدّثين مثلا ، لوناً مشتركا من الفخر بأشياء معينة لا تـكاد تتغير في جوهرها ، و إن تغير زمانها أو مكانها ؛ كما تلمح طابعاً واحداً مطرداً في طريقة إثبات مفاخر أصحاب المناقب على اختلافهم ، فمن ذلك مثلا :

ا — الاعتماد على الرؤى والأحلام في إثبات الفضائل ، أو التـكهن بمستقبل المتحدّث عنه ، أو مصيره الأخير في الحياة الثانية. وهذه الرؤى فيما يخص الإمام مالـكا كثيرة ، تـكفي لأن تصنف منها رسالة برأسها ؛ منها ما تفرق في ترجمته، ومنها، عقد له الفصل المستقل، كما فعل «القاضي عياض» في [ترتيب المدارك] ـ ١ : ٤٨ وجه ـ إذ عقد باب رؤيا أهل العلم الدالة على علمه وأمانته، وهو يستغرق نحو ثلاث صفحات كبـار ـ من ورقة ٤٨ وجه إلى قريب من آخر ورقة ٤٩ ظهر .

ومهما يكن الرأي في الأحـلام ، فلن تـكون ـ حتى اليوم على الأقل ـ مصدراً من مصادر التاريخ ، ولا ميزاناً من موازين نقد الرجال ، ولا مقدمة من مقدمات الحـكم على الأشخاص .

ولعل الإمام مالـكا نفسه ، قد رأى في الأحلام رأياً لا بأس به ، ولا

بأس على العلم المدقق فى أن يطمئن إليه ، فقد رووا أنه أتاه رجل وهو جالس فى المسجد النبوى مع صحبه ، فقال : أيكم مالك ؟ فقالوا : هذا . . . فسلم عليه واعتنقه ، وضمه إلى صدره . وقال : والله لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، البارحة جالساً فى هــذا الموضع ، فقال: ائتوا بمالك . فأُتى بك تُرعد فرائصك، فقال : ليس بك بأس يا أبا عبد الله، وكنّاك. وقال : اجلس، فجلستَ . قال : افتح حجرك ، ففتحته ، فملأه مسكا منثوراً، وقال : ضمه إليك و بثه فى أمتى . قال : فبكى مالك ، وقال : « الرؤيا تسر ولا تغر[1] ، و إن صدقت رؤياك فهو العلم الذى أودعنى الله » . فأما أن الرؤيا تسر فشىء نفسى لايزال يجده الناس، وأما أنها لا تغر ، فقولة حكيمة ، يجد فيها التحقيق العلمى طلبته ، وحبذا ألا تغر الرؤى كتّاب المناقب[2] .

ب — من المظاهر المشتركة فى مناقب الفقهاء ، ذكر بشارة الرسول عليه السلام بالفقيه منهم . وفى الإمام مالك يروون حديث :

(١) ابن عبد البر : [الانتقاء] ص ٣٩ ط القدسى سنة ١٣٥٠ هـ . وعلى قراءتى لهذا النص فسرت رأى مالك . وفى [تزيين الممالك] للسيوطى(ص ١٧) و[مناقب]الزواوى ص ١٧ ، كتبت العبارة هكذا « الرؤيا تسر ولا تضر » . ولايظهر نفى الضرر عن الرؤيا عندهم ، فرجحت ما فى طبعة الانتقاء .

(٢) لقد أسرفوا فى الرؤى حتى قالوا : « ان حمزة بن حبيب الزيات أحد القراء السبعة رأى الله سبحانه فى المنام وضمخه بالغالية وسمع منه ، وهو منام مشهور » . شذرات الذهب ١ : ٢٤٠ . وليتهم اكتفوا فى فضل الرجال بالمشهود ، ففيه غناء ووفاء .

«يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل فى طلب العلم ، فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة » بهذا اللفظ أو بلفظ آخر

ويطيل القاضى عياض فى [ترتيب المدارك] (١) ـ القول فى هذا الحديث ، وروايته ورواته ، وفهم المتقدمين له ، حتى ينقل أنه : لم يسترب السلف أنه ـ مالك ـ هو المراد بالحديث ، وعُد هذا الخبر من معجزاته وآياته عليه السلام .

وما أحسب أن تقدير هؤلاء الفقهاء الأجلاء ، يتوقف ولابد ، على مثل هذا الإخبار الغيبي ، والتفسير الخاص للآثار ... ومن القدماء أنفسهم من تصدى لهذا الأثر « كابن حزم » فى كتابه [الإحكام] أكثر من مرة ، وفى صفحات متفرقة (٢) ، فيوهّن هذا الحديث تارة ، أو لا يجد ما يدل على أنه «مالك» دون «سعيد بن المسيب» الذى كان أفقه من «مالك» وأفضل ، وهو مدنى .

---

(١) هو : « ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك » منه نسخة خطية فى دار الكتب المصرية نسخت سنة ١٢٤٢ هـ ، وأخرى فى حوزة السيد عباس شقرون الكتبي . نسخت سنة ١٢٥٨ وكلتاهما بالخط المغربي . وقد نسخ السيد عباس عن نسخته نسخة أخرى بالخط المشرق ، وتفضل فأعارنى منها ترجمة الإمام مالك . وقد قابلت ما نسخه على نسخة دار الكتب وسأذكر صفحات ما أحيل عليه فى النسختين مشيراً إلى الأولى بحرف (د) والثانية بحرف (ش) ؛ والقسم الخاص بحديث التبشير بمالك من وسط ص ٢٧ إلى أواخر ص ٢٩ من ش وفى نسخة (د) من ١٠ وجه : ١١ وجه . والعبارة المنقولة هنا فى ص ٢٩ ش وفى ورقة ١١ وجه من (د) سطر ٥ ، ٦ وهى واردة بنصها فى الديباج المذهب ص ١٤ ط مصر .

(٢) الإحكام فى أصول الأحكام ط الخانجى جـ ٦ : من ص ١٣٣ إلى ١٤٠ فى مواضع متفرقة .

أو يرى أن توجيــه المروى إلى «مالك» ظن لا أكثر ؛ أو يرى أنه إن صح الحديث فلم يأت تفسيره بعد ، وإنمـا ذلك إذا قرب قيام الساعة ، إلى آخر ما أطال فيه « ابن حزم » وأفاض ، واعتبره المطمئنون إلى مثل هذا المنهج فى التفـكير، موضع نزاع[1].

أما نحن اليوم ، فحسبنا أن نقول : إن هذا المروى ، وتأويله الظنى ، لاينبغى أن يفيض على شخصية «الإمام مالك» ظل قدسيّة دينية ، تمنع مؤرخه من أن ينظر إليه ويطيل النظر ، متفحصاً فى حرية ، غير منتهك بذلك حرمة، ولا ممنوعاً من بحث ، رغم ما يتناقله أصحاب المناقب ويطيلون به .

حـ — كثيراً ما يتعلق أصحاب المنـاقب كافة ، بأخبار ليست سهلة القبول، ومواضع النقد فيها قريبة، كأن يستدلوا على احترام «مالك» للحديث، بمـا يروونه ، من أنه كان مرة يحدث ، فلدغته عقرب ست عشرة مرة ، وهو يتغير لونه ، ويصفر ولا يقطع حديث رسول الله عليــه السلام ؛ ولمـا سأله الراوى عن ذلك قال : إنما صبرت إجلالا لحديث رسول الله[2]. ومثل

(١) السمهودى : (وفاء الوفا فى أخبار دار المصطفى) جـ١ : ٦٠ ط الآداب بمصر ١٣٢٦هـ إذ يذكر بعض قول ابن حزم ، ويعقب عليه بقوله : « ولا يخلو عن نزاع » .

(٢) تجد ذلك فى (ترتيب المدارك) ص ٨٠ ، ٨١ جـ ١ من المخطوطة المصرية ؛ وقد عدت اللدغات ١٩ ؛ وفى (الديباج) ط مصر ص ٢٣ ؛ وفى (تنوير بصائر المقلدين بمناقب الأئمة المجتهدين) للمقدسى ص ٤٩ ــخط بدار الـكتبــ ، وفى غيرها من المناقب .

هذا ربما لا يتفق كثيراً مع المعروف عن نمط حياة مالك ؛ ونظره للأشياء، ولا هو مما تلزم به مبالغة ما فى الأدب ، وعبادة الله المفروضة تقطع بما دون هذا من اللدغ الدراك ؛ وهو فى جملته غير قريب التسليم ، وأحسبه مبالغة لا حاجة إلى مثلها .

ومن شبيه ذلك تكثرهم فى تركة «مالك» بأنه خلف خسماية زوج نعل[١] وهو شىء لا يحتاج إلى طويل تعليق . وقارئ المناقب لا بد له من توقى مثل هذه المرويات المتساهلة .

د — وقبل ذلك وأكثر منه، أن كاتب المناقب ، يتقدم إلى وضعها فى حال نفسية مطاوعة ، بل مستهواة بمن يكتب عنه . وهو ضرب من الهوى ، لا تستعدى عليهم فيه النقد التاريخى الحديث ، بل حسبك أن تسمعهم فيه قالة «التاج السبكى» ، التى ينقلها عن والده فى شروط المؤرخ فيقول : «وألا يغلبه الهوى فيخيل إليه هواه الإطناب فى مدح من يحبه ، والتقصير فى غيره . بل إما أن يكون مجرداً عن الهوى ، وهو عزيز. وإما أن يكون عنده من العدل ما يقهر به هواه . ويسلك طريق الإنصاف[٢] » . فليحذر القارئ هوى أصحاب المناقب ، المتتبعين للفضائل ، المتزيدين فى المزايا والمكارم .

---

(١) (ترتيب المدارك) ١ : ١٤٤ ، (والديباج المذهب) ص ٢٩ ط مصر .
(٢) تاج الدين السبكى : (طبقات الشافعية) ١ : ١٩٧ ط الحسينية .

الترجمة

١ — عهد

٢ — نقر

(وراء النور)

١ — البيئة الأولى

٢ — إنضاج

(الى النور)

١ — أين ، ومتى ؟

(١)

على هذا النهج المسدد الذى لفتنا إليه، نحاول أن نترجم للإمام المحدث الفقيه ، «مالك بن أنس» رضى الله عنه ، راجين أن نخرج له صورة بادية الشخصية ، تنهض من وراء الاثنى عشر قرناً الخالية ، واضحة الملامح جلية القسمات ، بينة الدلالة على الإمام ، راجين أن يعين الله ، على الوفاء للحق ، وفاء لا تنقصه الشجاعة الناقدة المحققة ؛ ولا يجور عليه الإلف المتعود ، ولا العصبية الممجدة للقديم ، المتحيزة للأسلاف ، كما أرجو ألا تستخفه شهوة التجدد ، فينكر الماضى أو يهوّن من أمره . . . فاللهم أمانةً فى تبصر، ونقداً فى إنصاف ، حتى لا يكون عملنا قولا معاداً ، أو تكراراً مردداً ، ولا استنتاجاً خاطئاً ، أو وهماً خادعاً .

(٢)

وأحبب إلىّ أن أصارحكم هنا القول جهيراً ؛ فقد انتهت قراءتى عن «مالك» خلال أعوام ، إلى ركام من المرويات ، عن حياة الإمام ، لا يكاد يخلو فيه خبر من نقض ، ولا رواية من أخرى مقابلة لها ، سواء فى ذلك ما يتعلق بحياته المادية أو المعنوية ، و بعض هذه المتقابلات ، يشير فيه القوم إلى الأشهر

أو الأكثر ، أو الأصح ، فيهون الخطب ، و بعضها لا يعرضون فيه لذلك و إن تجاورت المتخالفات ؛ ومنها ما يتباعد فيه مكان المروى عن مكان نقيضه أو يدق فيه موضع التقابل ، فلا يُنتبه له . و إذ انتهى بى الأمر إلى ذلك ، لم يكن فى وسعى ، أن أطمئن منه إلى ما ردده الراوون ، وأهمل هذه الاختلافات قاطبة ؛ فأخرج بخلاصة قريبة ظاهرة . . لم أفعل ذلك ، لأن أكره ما أكره ، هذا العرض التجارى فى العلم ، يحفه التدليس ، و يحوطه التهاون ، و إن كان فى بادى الرأى براقاً خلاباً ، أو محبباً خفيفاً . . . فلم يبق إلا أن أواجه هذه المتقابلات فأنسقها ، وأحاول الانتهاء فيها إلى شيء ؛ ولو دارت حول ما ليس وراءه كبير عمل ؛ لأن للحقيقة قيمتها فى نفسها ....

وراء النور

(١)

أول الوجود المادى ، إذ يكون المرء جنيناً ، تلفه الظلمة الأولى ....فى هذا المنزل ، يُلقَّى أول حظه من الجسم والنفس ، ويكون لهذه البيئة عملها ، الذى يقدره البحث الدقيق اليوم .

وقد انتبه العرب ، إلى بعض ما يصيب الرجال ، من حظ فى هذه البيئة ؛ فسارت بينهم صفات مدحوا بها الرجال فى حملهم وولادتهم ، أو تنقصوهم فى ذلك . فعللوا بعض صفاتهم بما تعرضوا له وهم أجنّة فى بطون أمهاتهم ؛ وقال شاعرهم :

تمطّت به أمه فى النفاس فليس بيَتن ولا توأم

فكرهوا اليتن ، وهو الوليد المنكوس ، تخرج رجلاه قبل رأسه . وكرهوا التوأم المولود مع غيره فى بطن ، لأن ذلك يضعف الوليد .

ويقول الشاعر وصفاً للهزيل :

تحسبه مما به نِضو سقَمْ أو توأما أزرى به ذاك التوَّم[1]

---

(١) لسان العرب « مادة ت و م » .

وكان الشعبي ضئيلاً نحيفاً ، وقيل له : ما لنا نراك نحيفاً ؟ قال : إني زوحمت في الرحم ، وكان وُلد هو وأخ له في بطن واحد[١] .

ومدحُ الشاعر من « تمطت به أمه في النفاس » يريد : أنها زادت على تسعة أشهر، حتى نضّجته، وهم يسمون الناقة « المنضِّجة » إذا تأخرت ولادتها ، عن حين الولادة شهراً ، وهو أقوى للولد . وقد استعمل ثعلب « نضّجته » في المرأة ، وفسر به التمطى في النفاس[٢] .

ولعل من ذلك ، ما تتمدح به نساء آل الحجاف ، من ولد زيد بن الخطاب ؛ تقلن : ما حملت امرأة منا أقل من ثلاثين شهراً .

ومن التنبه لهذا الأمر وأثره ، ما صنع ابن قتيبة ، إذ عقد في كتابه [المعارف] عنوانين : أحدهما « من حُمل به أكثر من وقت الحمل » . والثاني « من قُصّر به عن وقت الحمل » .

هذا ملحظ القوم في الأجنة ؛ ولا علينا أن يصيب تعليلهم في ذلك أو يخطئ ؛ فهذا جهدهم العقلي إذ ذاك .

---

(١) ابن قتيبة : المعارف ص ١٥٦ ط مصر سنة ١٣٠٠ هـ .

(٢) لسان العرب « مادة ن ض ج » .

(٢)

من هنا أصل مَا رووا من مدة حمل صاحب الترجمة ؛ فقالوا : حملت به أمه ثلاث سنين[١] أو أكثر من سنتين[٢] ، أو سنتين[٣] . وفى هـذا قد انتبهوا لما سلف من أن ذلك أقوى للولد[٤] ، فبكار بن عبد الله الزبيرى ، يَروى الحمل به ثلاث سنين ، ويقول : أنضجته والله الرحم، وأنشد الطرماح :

يضن بحملنا الأرحام حتى تنضّجنا بطون الحاملات[٥]

والحديث عن طول زمن الحمل، ليس مما عنى به فى ترجمة «مالك» وحده ، ولا مما انفرد به أصحاب المناقب ؛ بل ذكر أصحاب التواريخ ، من مدة الحمل

---

(١) القاضى عياض : (ترتيب المدارك) جـ ١ ورقة ١٧ د ، ص ٤٧ ش . ومثله فى (الديباج المذهب) ص ١٨ ط مصر وغير ذلك .

(٢) ابن قتيبة : (المعارف) ص ١٩٨ .

(٣) القاضى عياض : الموضع السابق ، ومثله فى (الديباج المذهب) والسيوطى فى (تزيين الممالك) ص ٦ يقتصر على الثلاث السنين ؛ وينقل عن ابن سعد عن الواقدى ، قول مالك : قد يكون الحمل ثلاث سنين ؛ وقد حمل ببعض الناس ثلاث سنين، ويعنى نفسه .

(٤) يقول صاحب (ضحى الإسلام) ٢ : ٢٠٦ بعد زعمهم فى مدة الحمل « ولا أدرى قيمة هذا فى فضل الرجل » ... وقد سمت قولهم فى فضله، صح أو كذب .

(٥) عبارة الأصل «وأنشد الطرماح» ؛ ولم أجد هذا البيت فى ديوانه المطبوع بلندن ، وقرأت الـكلمة الأولى منه « يضن » وقد رسمت فى النسخة المغربية من (ترتيب المدارك) ١ : ورقة ١٧ وجه د مشبهة (يظن) بالظاء

ما فات ثلاث سنين إلى أربع ، نزل بعدها الغلام ، وقد استوت أسنانه وما قطع سراره[1] .

وقد عرض الفقهاء لبيان أطول مدة الحمل ، وعدوا سنين يختلفون فيها ، ولعل كلمة العلم فى هذا لا تؤيدهم . والمرحوم «الدكتور محمد توفيق صدقى» من كتاب المسلمين ، الذين تصدوا كثيراً للتطبيقات الإسلامية ، فى كتابه [دروس سنن الكائنات] لكنه فى هذا الموضوع بخاصة ، يقول : «ومدة الحمل أقلها خمسة أشهر أو أربعة ونصف ؛ وأكثرها أحد عشر شهراً ، وقد يحصل فى أحد البوقين حمل ، أو فى البطن خارج الرحم ؛ وفى هذه الحال ، قد تحمل الأم جنيناً ميتاً ، عدة سنين ، ولكن لا تضعه إلا بعملية جراحية»[2]

ولا يعرض لهذه المدد التى ذكرها الفقهاء ، ورواها المؤرخون ، لاحتمال أن لا وجه لها . ونحن نمسك عن الإطالة فى هذا ، حاملين ما ذكره المؤرخون وأصحاب المناقب، على تكثر بالغرائب منشؤه خطأ الحساب، لاشتباه مبدإ الحمل؛ أو جواز أن تكون هذه شواذ فى الطبيعة لا حكم لها ، والكلمة للعلم أولا وأخيراً.

---

(١) المقدسى : (تنوير بصائر المقلدين) ورقه ٤١ وجه ـ خط بدار الكتب المصرية ـ . ومثله فى (ترتيب المدارك) ١ : ١٧ . ظهر د .

(٢) جـ ١ : ٢٢ ط سنة ١٣٣٣

الى النور

على اثنين وتسعين ومائة كيلو متر[١] شمـــالى المدينة المنورة ، يقع « ذو المروة » مكان به عيون ومزارع و بساتين ؛ كأنهواحة فى الصحراء .

فى يوم لم يسجله تقويم الزمن ؛ .. من عام فى العقد الأخير ، من القرن الأول الهجرى ؛ ولد طفل أشقر ، عظيم الرأس ، كبير الأذنين ؛ .. هو «مالك ابن أنس» الذى لم يعن أحد إذ ذاك ، بضبط مولده ؛ فحين جدت الحاجة إلى ذلك ، اختلف فيـه كثيراً بين بضع سنوات ، فهو مولود سنة ٩٠هأو ٩١ ، أو ٩٣ ، أو ٩٤ ، أو ٩٥ ، أو ٩٦ ، أو ٩٧ ــ والأشهر أن مولده سنة ثلاث وتسعين من الهجرة[٢] . ولا يدلنا بترجيح شىء من هذا ، فلنـكتف بهذا الأشهر ، وبخاصة إذا قالوا إنه يروى مسموعاً من الإمام نفسه[٣]

(١) يقول السمهودى فى (وفاء الوفا) ٢ : ١٨٢ « على ثمانية برد من المدينة » أى ٣٢ فرسخا ؛ والفرسخ ستة كيلو مترات. ويقول فى ١ ص ١٨١ : إن النبي صلى الله عليه وسلم اتخذ بين المدينة وتبوك بضعة عشر مسجدا ، يعدها حتى يجعل « ذا المروة » الثامن عشر منها .

(٢) القاضى عياض : (ترتيب المدارك) ١ : ١٦ ظهر من د . وص ٤٦ ش .

(٣) الذهبي (طبقات الحفاظ) ١ : ١٩٨ طبع الهند وفيها ما نصه : وأما يحيى بن بكير فقال: سمعته يقول : ولدت سنة ثلاث وتسعين فهذا أصح الأقوال .

من أسرته إلى شعبه

١ — الأم

٢ — الأب

٣ — الجد

- — جد الأب

٥ — سائر الأسرة

ليست الترجمة المحققة لمالك رضى الله عنه حقا للتاريخ فحسب ، بل هى مما طالب به الفقهاء المقلدون فقالوا : ينبغى لكل مقلدٍ إمامٍ ، أن يعرف حال إمامه الذى قلده ، ولا يحصل ذلك إلا بمعرفة مناقبه ، وشمائله ، وفضائله، وسيرته فى أحواله وصحة أقواله . . . ثم إنه لا بد من معرفة اسمه ، وكنيته ، ونسبه ، وعصره ، وبلده ، ثم معرفة أصحابه وتلامذته[1]

وإذا كان الأمر كذلك ، فقد وجب التحقيق فى ترجمة الإمام ، وفاء بحق البحث الفقهى .

فمن العقيلة، التى قامت عن هذا الوليد، الذى ذاع اسمه؟ ومن الرجل الذى نجله؟ نريد لنصعد معه إلى آبائه رجلا رجلا ، حتى الشعب الذى نماه . نعرف ذلك كله فى تفصيل كامل ما استطعنا ، لنتبين أثره الفعال فى شخصية الرجل الذى حرّم على المسلمين ، وحلل لهم ، وكان إماما مقتدى به فى الأقطار ، فاشترك فى صنع المدنية الإسلامية ، ونسج التاريخ الإسلامى .

(١) محمد بن محمد مخلوف : (شجرة النور الزكية فى طبقات المالكية) ص ٥٢ نقلا عن (كشف الظنون)

(١)

أما أمه ، فلم يسلم لنا حتى اسمها من الخلاف؛ فهى العالية بالمعجمة أو المهملة، أو هى طليحة... ونسبها تبع لذلك الاختلاف، فالعالية[١] بنت شريك، بن عبد الرحمن ابن شريك ؛ وطليحة لا يسمى أبوها[٢] ..وإذا كانت ابنة شريك فهى قحطانية ، أزدية من أنفسهم ، ولقد جهدت فى معرفة شىء عن شريك أبيها فلم أظفر بشىء حتى الآن . وأما إن كانت طليحة فهى مولاة ، ولكن مولاة من ؟ هى مولاة عثمان بن عبيد الله ، أو هى مولاة عبيد الله بن معمر[٣] . وما هذا الولاء ومن أى الأصناف هو ؟ لا ندرى..و إن كانت لنا ، بعد ذلك عودة قاهرة إلى الحديث عن الولاء قريباً ، حين نتحدث عنه فى عصبة الإمام .

وهكذا لا نرى من الأقدمين ، من يعرض للفصل فى هذه الاختلافات ، ونخرج منها دون أن نعرف شيئاً عن تلك السيدة ، التى تدل نثرات كلامها مع ابنها ، على تقديرٍ لفضل العلم ، وقيمة العلماء ، وتسديدٍ لخطى غلامها الناشئ ، حين طلب العلم ، على ما سنشير إليه بعد .

---

(١) فى (ترتيب المدارك) ١ : ١٦ وجه د ، بالعين المهملة؛ وكذلك فى (تزيين الممالك) للسيوطى ص ٤ وفى (الديباج المذهب) ط مصر ص ١٧ بالغين المعجمة ؛ وكل ذلك ضبط بالقلم لاغير ؛ وكذلك كتبت فى (الديباج) — ط فاس — بالغين منقوطة .

(٢) فى (ترتيب المدارك) ، الموضع السابق ، طليحية بياءين وفى (الديباج) الموضع السابق ، طلحة بغير ياء أصلا ، وفى (التزيين) ، الموضع السابق ، طليحة بصورة المصغر لطلحة .

(٣) (ترتيب المدارك) ١ : ١٥ ظهر — د — أنها مولاة عثمان ؛ وفى ورقة ١٦ ، وجه ، مولاة عبيد الله بن معمر .

(٢)

أما ابوه فهو أنس بن مالك : أكبر إخوة أربعة ، هم : أويس ، ونافع أبو سهيل ، والربيع أبو مالك ، وأنس والد الإمام[١] ... ونصيب نتفا من أخباره لا تكتمل منها صورة تامة أو كافية للرجل ، فما قالوا : أنه كان مقعداً ، وكان له قَصر بالحرب[٢] يعرف بقصر المقعَد ، ومع هذا يُنقل أنه كان يعيش من صنعة النبل[٣] وتتردد الأخبار فيما لهذا النبال المقعد ، من رواية وفقه ، فقد يقال فى إجمال : إن الإخوة الأربعة ، قد روى أربعتهم ، عن أبيهم مالك بن أبى عامر[٤] ، أى جد الإمام ، وقد تُذكر للأب أنس نفسه رواية ، فيقال : إن مالكا روى عن أبيه عن جده ، عن عمر ، حديث الغسل واللباس[٥] . ولكن يقال مع ذلك أيضاً ، إن الظاهر

---

(١) ابن الأثير : (الكامل) ٦ : ١٧ ط مصر ، ومثله فى (ترتيب المدارك) ١ : ١٦ ، وجه د وفى ١٦ ظهر غير هذا ، لكن قال القاضى ، « والأصح والأعرف فى أعمام مالك الأول » وهو ما نقلته عن ابن الأثير .

(٢) (ترتيب المدارك) ١ : ١٦ . د . [وحرب] كما فى ياقوت . ٣ : ٢٤٤ ط مصر . بغير ال ـ بلدة على طريق حاج صنعاء ـ وليس فى ياقوت ، قصر المقعد هنا .

(٣) القاضى عياض : ترتيب المدارك ١ : ١٦ وجه . د ، ١ : ٤٤ ش .

(٤) المصدر السابق .

(٥) « « . ولم أجد هذا الحديث فى باب الغسل بالجزء الأول من الموطأ ، كما أن السيوطى فى (إسعاف المبطأ برجال الموطأ) لم يذكر اسم أنس والد الإمام فى رجال الموطأ .

أنه لم يرو عنه إلا حديثاً آخر، يروى عن ابنه الإمام ويعد من غرائبه، وقيل إنه لا يصح عنه[١] .

وأمام هذا نحس ألا رواية تذكر لهذا الوالد ، ولا هو من أصحاب الحديث الخليقين بهذا الاسم .

ثم هناك الفقه ، نرى «المقدسي الحنبلي» في القرن الحادى عشر الهجرى يقول في مخطوط له : «وأبوه أنس كان فقيهاً[٢]» ولم أر هذا الوصف لغيره ... نعم إن الفقه قد يفترق عن الحديث، ولكن قليلاً ما نسبت روايته لوالد الإمام - على فرض صحته - لا يجعل من القريب وصفه بالفقه، ولا سيما هذا الوصف المطلق الذى ساقه «المقدسى» نعم كانت لهذا الوالد رغبة علمية طيبة ، حدث عنها خبر سؤاله لابنه الإمام ولأخيه الأكبر منه ، وخبر تقريعه مالكا حينما عجز عن الإجابة - كما سنذكره - وربما كان لهذه الرغبة مع حظ الوالد من المعرفة ، أثر لا بأس به في تنشئته ولده الإمام .

ولا تسعفنا الأخبار بتاريخ وفاة هذا الوالد ، لنعرف كم من الزمن ظل يرعى ابنه ، ويعنى بتثقيفه وكل ما يمكن استنتاجه من بقايا الأخبار أنه رأى ولده مالكا ، غلاماً أو يكاد .

---

(١) السيوطى : (تزيين الممالك في مناقب الإمام مالك) ص ٤ ، ٥ . والحديث هو : ثلاثة يفرح لهن الجسد ، فيربو عليهن ، الطيب ، والثوب اللين ، وشرب العسل ، ويستظهر السيوطى ص ٥ من كلام الخطيب ، أنه لم يرو عن الوالد غير هذا الحديث .

(٢) مرعى بن يوسف المقدسي الحنبلى الشامى : (تنوير بصائر المقلدين . فى مناقب الأئمة المجتهدين) - خط - فى القرن الثانى عشر بدار الكتب المصرية ؟ ص ٤١ وجه ، ولعل فى هذا الوصف تساهلا مما يهون على أصحاب المناقب ، أوهو وهم سبق إلى الذهن من عبارة كعبارة القاضى فى (الترتيب) ١٦ وجه . إذ يقول : أنس أبو مالك الفقيه » فصرف الوصف لأنس ؟ وإنما هو لابنه ؟؟

(٣)

وأما جد الإمام فسميه « مالك » بن أبى عامر ، ويكنى أبا أنس .

وعند هذا الجد يبدأ تحول كبير فى حياة الأسرة – على رواية – إذ انتقلت من اليمن إلى الحجاز ، واستوطنت المدينـة أو حواليها ، وقد تنسب هذه الرحلة والهجرة للحجاز إلى والده أبى عامر – جد أبى الإمام[1] – ونقول أخذاً من وصفهم لتفاصيل هذا الحادث ، ربما كان الأصح والأشهر ، أن الهجرة هجرةُ مالك جد الإمام إلى الحجـاز ، إذ تقول الرواية : قدم مالك بن أبى عامر متظلماً من بعض الولاة باليمن ، فمال إلى بعض بنى تيم بن مرة ، فعاقده وصار معهم . وتقول : إن هذا التعاقد كان حلفاً ، إذ كان عبد الرحمن بن عثمان ابن عبد الله التيمى ، هو ومالك بن أبى عامر بطريق مكة ، فقال عبد الرحمن يا مالك : هل لك إلى ما دعانا إليه غيرك فأبيناه ، أن يكون دمنا دمك ! وهدمنا هدمك ، ما بلّ بحرٌ صوفة ؟ فأجابه مالك إلى ذلك[2] . هذا ما يمكن

---

(١) ترتيب المدارك : ١ ، ١٥ ظهر ، ١٦ وجه (د) ؛ ١ : ٤٣ (ش) .

(٢) ترتيب المدارك ١ : ١٦ وجه (د) – ١ : ٤٣ ، ٤٤ (ش) وفيه ما يلى من الروايات المختلفة عن الحلف والمحالف والهجرة .

الميل إلى شهرته وصحته ، وإلا فقد يروى أن مالكا رفض الحلف ، لما عرض عليه ، وقال : لا حاجة لى به .

وقد يُجعل الحلف مع ابن عبد الرحمن هذا لا معه هو[١] ، وقد يجعل بين أبى عامر والد مالك الكبير ، وبين عثمان بن عبيد الله لا عبد الرحمن ابنه ، وفى الجاهلية لا فى الإسلام . وقد يجعل بين أبى عامر وعبد الله بن جدعان ، لا عثمان ، ولا ابنه . وهكذا تتعدد الروايات فى غير ترجيح كالعادة .

وعلى كل ، فقد اتصلت الأسرة اليمنية ، بتيم بن مرة القرشيين ، بهذا الحلف على الأشهر والصحيح ، أو بالصهر[٢] ؛ وصار عدادهم فيهم دون نسب لهم يعرف بينهم . فظن « محمد بن إسحق » صاحب السيرة ، وظن من لم يحقق الأمر أنهم من الموالى[٣] ؛ فقال « ابن شهاب الزهرى » : إنهم موالى التيميين ؛ وأنكره «مالك» على «ابن شهاب» وسخطه من ابن إسحق ، إلى أشياء أخرى بينهما ، نعرض لها فى صلة مالك بمعاصريه بعد الآن .

فالذى إليه الاطمئنان ، أن أسرة مالك يمنية عربية ، صحيحة النسب ،

---

(١) الزواوى (مناقب) ص ٤٩ .

(٢) المصدر السابق نفسه . وإنما ملت إلى ما ملت إليه ، أخذا من أن القاضى عياضا ، بعد ما روى خبر الحلف ، وخبر رفض مالك له . قال : « والأول أصح وأشهر » كما أنه لما ذكر سبب عدادهم فى بنى تيم قال : « إما بالحلف على الأشهر والصحيح ، أو بالصهر » .

(٣) ابن عبد البر : (الانتقاء) ص ١١ ، القاضى عياض : (ترتيب المدارك) الموضع السابق .

لها ولاء موالاة مع قريش[1] وإذن «فمالك» كما قالوا : رجل من العرب ، صليبة من حمير أنفسهم ، شريف كريم[2] .

ولقد أرجأنا الحديث عن ولاء الأم فيما سلف قريباً ، وتجعله الرواية مرة « لعثمان بن عبيد الله ، وهو أبو عبد الرحمن الذى تحالف مع « مالك » جد الإمام ، فولاؤها على هذا يمكن أن يكون ولاء موالاة ، وأن يكون تابعاً لموالاة زوجها[3] . وفى مرة أخرى تجعل مولاة « لعبيد الله بن معمر » وهو كما نسبه فى [الإصابة][4] من تيم بن مرة ، قرشى . فما الولاء عند من يروونه فى

---

(١) ولعله بهذا السبب وقع الحافظ بن البيع ، فيما عده القاضى عياض « غلطا شنيعا لا قاله أحد قبله ولا بعده وخلط فى هذا تخليطا كثيرا » ذلك أنه نسب مالكا بعد عمرو ابن الحارث ، وهو ذو أصبح ، الى تيم بن مرة ، وقال : يلتقى رسول الله (صلعم) عند مرة بن كعب . وعقب القاضى بقوله : فعجب له كيف اتفق هذا الغلط ، أو من أين تطرق له . ثم قال فى باب آخر : إنه من خولان ، وخولان قحطانية ، فأين هذا من ذاك ؟ » الخ ما قال . ولا أشاطر القاضى هذا العجب لأنى رأيت فى أخبار الإمام شواهد غير قليلة لتعارض الرواية ، حتى ما يكاد يسلم من خبره خبر بلا معارض ومناقض ؟ انظر (ترتيب المدارك) ١ : ١٥ وجه (د) ، ٤٢ (ش) والزواوى ، (مناقب مالك) ص ٤٩ ، وهو يقول : « وإنما علة هذه الأغاليط أن تحدث فى فن لا تعرفه ولا تحسنه ، ولا تعرف ما تروى منه ولا ما تدعه . ولذلك قال مالك — رضه — لكل علم رجال ، وإنما يؤخذ كل علم عن أهله »

(٢) القاضى عياض : (الترتيب) ١ متفرقات فى د ١٥ ظ ، ١٦ ش .

(٣) المصدر السابق : ١٥ ظ . د .

(٤) هو فى ج ٤ / ٢٠٠ . عبيد الله بن معمر بن عثمان الى كعب بن سعد بن تيم بن مرة . وقد أشرت فيما بعد إلى اضطراب الأنساب ، وذلك أن عثمان بن عبيد الله المذكور =

الأم ؟ أوَلاء موالاة ؟ أم هو ولاء عتاقة، وقد مس الرق أمّ الإمام أو أصولَها ؟ وإذا كان ولاء موالاة فهل ينتهى إلى ولاء أسرة زوجها ، أو هو غيره ؟ إن فى تتبع الأنساب ملالة واضطراباً يحرمنا لذة المعرفة فى هذه المسألة، وقد تركنا الأمر من قبل أمام اضطراب الرواية ، لم نقطع بأن الأم ابنة من ؟ وعربية هى صليبة ؟ أو لا ؟ ولا سبيل إلى إرضاء رغبة التاريخ فى تبين أصول هذا الإمام وتعرفه ؛ إزاء ما تكررت شكوانا له من تعدد الروايات واضطرابها ، وفقدان طريق الترجيح ، إلا أن ينتهى الدأب إلى شىء من المظان الأخرى لترجمة الإمام ، فهناك منها كثير ، وكثير لم نره[1] .

= هنا ، والد عبدالرحمن محالف مالك ، ينسب فى (الإصابة) (٣ / ٢٩٢) هكذا : ابن عبيد الله بن مسافع بن عياض بن صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم : وينسب فى (الإصابة) نفسها (٤/١٧٠) هكذا : ابن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم . ولا نجد تفسيرا لهذا الفرق، وقد ذكر عبيد الله بن معمر فى ولاء أم مالك ، وهو من تيم كذلك ، شممت من نسبه أنه من هذه الفصيلة نفسها ، ولكن نسبه فى (الإصابة) ـ ٤ / ٢٠٠ ـ هكذا : عبيد الله بن معمر بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم القرشى ، فهل يكون عبيد الله بن معمر، ابن عم عثمان بن عبيد الله ؟ وتلتقى الروايتان فى ولاء الأم على أنها مولاة ؟ أم اضطراب النسب يؤازر اضطراب الرواية عن الأم فندع ذلك كله !!

(١) قال القاضى عياض فى (ترتيب المدارك) ١ : ٢ وجه ، ظ ما نصه : « .. إذ ألف فضايل مالك وأخباره جماعة من الأئمة ، والسلف والخلف من هذه الأمة ، فمن ألف فى ذلك وأطال :

١ ـ القاضى أبو عبد الله التسترى المالكى ، له فى ذلك ثلاث مجلدات ، ومثل ذلك .

٢ ـ لأبى الحسن بن فهر المصرى . ٣ ـ ولأبى محمد الحسن بن إسماعيل الضراب =

***

لعلنا نعرف عن هذا الجد « مالك بن أبى عامر » شيئاً أكثر مما عرفناه عن الأب والأم . فالرواية تحدثنا أن أبا أنس من كبار التابعين وعلمائهم ، له رواية عن نفر من الصحابة، ويعد[1] مصدر علم لحفيده، فذكر فى رجال الموطأ ، ووثقه «النسأى»[2]، ونسبت إليه أعمال، بعضها نجد ذكره فى كتب التاريخ ، والبعض قد نضل السبيل إليه . . . قالوا : إنه أحد الأربعة الذين حملوا الخليفة «عثمان بن عفان» ــ رضه ــ إلى قبره ليلا . و«الطبرى» يروى هــذا الخبر فى

= وألف فى ذلك ٤ ــ القاضى أبو بكر جعفر بن محمد القريابى ٥ ــ أبو بشر الدولابى. ٦ ــ أبو العز التميمى ٧ ــ القاضى أبو الحسن المتناب ٨ ــ أبو علاثة ، محــمد بن أبى غسان ٩ ــ أبو إسحاق بن شعبان ١٠ ــ الزبير بن بكار ، القاضى الزبيرى .

١١ ــ أبو بكر ، أحمد بن محمد اليقطينى ١٢ ــ أبو نصر بن الحباب الحافظ .

١٣ ــ أبو بكر بن أبى دراويه(؟) الدمشقى ١٤ ــ القاضى أبو عبدالله المرتكانى ١٥ ــ أبو محمد ابن الجارود ١٦ ــ الحسن بن عبد الله الزبيدى ١٧ ــ أحمد بن مروان المالــكى .

١٨ ــ القاضى أبو الفضل القشيرى ١٩ ــ أبو عمر القاضى ٢٠ ــ أحمد بن رشــد ابن جعفر ٢١ ــ أبو بكر ، محمد بن صالح الأبهرى ٢٢ ــ أبو بكر بن اللباد .

٢٣ ــ أبو محمد عبد الله بن أبى زيد ٢٤ ــ أبو عمر بن عبد البر الحافظ طبع له (الانتقاء) فهل له شىء آخر؟ ٢٥ ــ القاضى أبو بكر بن نصر ٢٦ ــ أبو عبد الله الحاكم النيسابورى.

٢٧ ــ أبو ذر الهروى ٢٨ ــ أبو عمر الطلمنــكى ٢٩ ــ أبو عمر بن حزم الصدفى ٣٠ ــ ابن الإمام التطيلى ٣١ ــ ابن حارث القروى(؟) ٣٢ ــ ابن حبيب ٣٣ ــ القاضى أبو الوليد الباجى ٣٤ ــ أبو مروان بن الإصبع القرشى النقيب .

(١) السيوطى : (إسعاف المبطأ) ص ٢١١ من طبعته مع شرحه للموطأ. و(تزيين الممالك) ص ٤ ثم ترتيب القاضى عياض ١/١٦ وجه د .

(٢) الخزرجى : (تذهيب الـكمال فى أسماء الرجال)

تاريخه[1] عن أحد أفراد هذه الأسرة . وقد يزيدون على ذلك فيروى له مع «عثمان» فى خلافته أشياء منها : أن «عثمان» أغزاه إفريقية ففتحها .

ولم تتهيأ لى رؤية هذا فى أخبار فتح إفريقية ، حتى من الكتب المفردة لذلك، كالاستقصا . وفاتحو إفريقية «لعثمان» ـرضهـ معروفون . ومنها مارووا من أن مالكا ـ الجد ـ كان ممن يكتب المصاحف حين جمع «عثمان» المصاحف[2] .

وفى كتاب [المصاحف] ما يؤيد هذا، فقد ذكر رواية عن «مالك» أن جده «مالك» كان ممن قرأ فى زمن «عثمان» وكان يكتبه المصاحف . وذكر فى موضع آخر أنه كان فيمن أملى على الكُتاب[3] .

* * *

وتطمعنا كثرة الأخبار عن هذا الجد ، فى أن نحاول تحديد وقت انتقاله إلى الحجاز ، إذ كان ذلك كما قلنا تحولاً واضحاً فى حياة الأسرة . فنجد من الخبر عن ذلك : « قدم مالك بن أبى عامر المدينة متظلماً ، من بعض ولاة اليمن[4] » . ولكنى لم أظفر بشىء يطمأن إليه فى معرفة هذا الوالى الذى قدم مالك متظلماً منه ، لنعرف وقت قدومه إلى المدينة ولو بالتقريب .

---

(١) تاريخ الأمم والملوك : ٥/١٤٤ ط الحسينية .

(٢) ترتيب المدارك ١ / ١٦ وجه د . ومثله فى (الديباج المذهب) .

(٣) المصاحف ، لأبى بكر عبد الله بن أبى داود السجستانى ص ٢٦ و ٢١ ط مصر . ويلاحظ أنه فى ص ٢١ يذكر أن جد مالك، اسمه مالك بن أنس. وهو وهم لم يتداركه الناشر.

(٤) ابن عبد البر . الانتقاء ص ١٢ .

على أنا نواجه بعد ذلك ، اضطراباً عنيفاً فى تحديد سنة وفاته : فهو عند «السيوطى» قدتوفى سنة أربع وسبعين[١]. وعند «الخزرجى» سنة أربع وتسعين، فى قيل[٢]: وعند «ابن عبد البر» ـ فيما يظنه ـ مات سنة مائة أو نحوها[٣]. وعند «القاضى عياض» مات سنة ثنتى عشرة ومائة[٤]، وهو ماعند «ابن فرحون» فى [الديباج المذهب] ، تبعاً للقاضى .

ولا نجد مفتاحاً لترجيح شىء من هذه المرويات ، إلا ما يقال من أن «عمر بن عبدالعزيز» الخليفة الأموى ـ الذى ولِى من ٩٩ : ١٠١ هـ ـ كان يستشير هذا الجد[٥]

---

(١) إسعاف المبطأ ص ٢١١. وكذلك يذكره ابن العماد الحنبلى فى وفيات سنة ٧٤ هـ . (شذرات الذهب) ١/٨٢ .

(٢) خلاصة تذهيب الكمال ، ص ٣١٤ ط الخيرية .

(٣) تجريد التمهيد ، لما فى الموطأ من الأسانيد ـ ١٨٤ .

(٤) الترتيب ١/١٦ وجه د . وهو فى (الديباج) ص ١٧ ط مصر .

(٥) الديباج المذهب ـ ط مصر ـ ص١٨

(٤)

وجد أبي الإمام هو : أبو عامر بن عمرو ، اشتهر ـ فيما قرأت ـ بهذه الكنية . ووجدتُ له تسميتين ، فهو مرة عمر ، فيما ينقل « السيوطى »[١] ـ وفى « ابن خلدون » وضع أمامه بين قوسين اسم (نافع[٢]) ولا أطمئن لواحدة من التسميتين : وذلك لأن أبا عامر يُذكر كثيراً فى كتب الصحابة والرجال ، والتاريخ ، باسم «أبى عامر» . وفى التسمية الأولى احتمال اختلاطها باسم أبيه « عمرو » ، وفى الثانية احتمال اختلاطها باسم ابنه «نافع» .

والخطب فى اسمه أهون منه فى صحبته ؛ فقد اختلفت الرواية فيها : بين أن يكون أبو عامر ، صحابياً شهدَ المغازى كلها مع الرسول عليه السلام ، إلا بدراً[٣] ؛ و بين ألا تكون له صحبة مطلقاً[٤] .

---

(١) تزيين الممالك ص ٤ .

(٢) التاريخ ، ٢ / ١٤ ـ ط مصر سنة ١٣٥٥

(٣) ترتيب المدارك ١ / ١٦ وجه ـ د ؛ و(الديباج) ص١٧ ط مصر؛(والتنوير)للمقدسى ص ٤١ وجه ـ خط .

(٤) ابن حجر ، فى (الإصابة) ٧ / ١٤١ يعده فى قسم المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام ، ولم يجتمعوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ولارأوه ؛ وهؤلاء ليسوا أصحابه باتفاق ؛ بل ينقل ابن حجر فى هذا الموضع ، قول الذهبي عنه « لم أر من ذكره فى الصحابة » . وإذا ما ذكرنا ما يقوله ابن قتيبة فى (المعارف) ١٩٣ ط مصر من أنه « إنما يكون مخضرما من أدرك الإسلام وهو كبير ، فلم يسلم إلا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم » يكون أبو عامر هذا قد أسلم بعد وفاة الرسول عليه السلام ! وقد اضطرب السيوطى فى التحدث عن أبى عامر . فذكر فى (التزيين) ص ٤ الرأيين فيه دون ترجيح ؛ وفى (تنوير الحوالك) ص ٢ اقتصر على صحابيته . وهو مسلك غير سديد !!

وقد نجد شيئاً من الاطمئنان إلى الثانية ؛ لما رجحناه آنفاً من أن انتقال الأسرة إلى الحجاز لم يكن فى عهده ، بل فى عهد ابنه ؛ والإسلام قد بدأ اتصاله باليمن فى السنة السادسة على أبعد قول ؛ فيكون «أبو عامر» ، قد عاش فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ولم يجتمع به ولا رآه ؛ وهو فى كل حال ، أول صلة الأسرة بالإسلام ، على ما هو ظاهر . . . .

ولا نجد خبراً عن عام وفاته .

(٥)

يلى هذا من سلسلة نسب الأسرة ، **عمرو ابو عامر بن الحارث** ، بن عثمان ابن جثيل بن عمرو (ثانية) ابن الحارث ، وهو ذو أصبح الحميرى القحطانى ، الذى قال عنه « نشوان » فى القصيدة الحميرية :

أم أين ذو فيقان أو ذو أصبح　　　لم ينج بالإمساء والإصباح

* * *

وتختلف الرواية فى اسمى عثمان وجثيل على أقوال لا نعرض لهـا ؛ كما تختلف فى نسب ذى أصبح هـذا مع الاتفاق على يمنيته[1] . على أنا نواجه مفارقة واضحة فيما يُذكر بجانب اسم « ذى أصبح » فى [تاريخ[2] ابن خلدون] وهو أنه « من ملوك اليمن فى الإسلام » ، إذ رأينا أبا عامر أول صلة الأسرة بالإسلام و بينه و بين ذى أصبح خمسة أجداد ، فكيف يكون ذو أصبح من ملوك اليمن فى الإسلام ؟ ! إنه غريب

* * *

تُعرف للأسرة صلة بالملك لأن جدهم ذا أصبح من أذواء اليمن فى الجاهلية لا فى الإســلام ؛ فصاحبنا الإمام ينتهى نسبه إلى أسرة مالــكة ، وقد نرى لهذه الوراثة مظاهر ظنية ـطبعاًـ فيما نصف من مسلــكه ، ومعاملته ، وحياته .

فلنتبع الآن خُطا هذا الوليد القحطانى ، القرشى ، المتحدر من دم ملــكى :

---

(١) الترتيب ، والديباج : فى المواضع السابقة ؛ ابن خلــكان ١ / ٥٥٥ ط بولاق .

(٢) تاريخ ابن خلدون : ٢ / ١٩ ـ ط مصر سنة ١٣٥٥ هـ

مالك الطفل

١ — النشأة

٢ — التعلم

لا نعرف كيف قضى هذا الوليد الأشقر طفولته ؛ فقد أعوزنى ذلك ، حتى عند ابن «ظفر الصقلى» ، الذى أتحف المكتبة الإسلامية بالكتابة عن : (أنباء نجباء الأبناء)[1] ، رغم أنه مالكى المذهب ، مؤلف فى الفقه المالكى ..

كم من السنين بقى بذى المروة بين عيونها و بساتينها ومزارعها ؟ أم هل انتقل به أهله إلى موضع آخر ؟ فقد رأينا مالكاً ينزل العقيق قبل المدينة ، ويقول : إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحبه و يأتيه[2]. فهل نزلته أسرته من قبل وأمضى شطراً من طفولته فيه ؟

وكيف كانت حياة الطفل بين أسرته ؟ ليس لدينا من أخبار هـــذه الطفولة شيء يذكر ، إلا أن نستنتج من جملة الأخبار ، أن والد مالك الطفل ،

---

(١) هو برهان الدين أبو هاشم أو أبو عبد الله محمد بن ظفر الصقلى المتوفى سنة ٥٦٧ ؛ وكتابه عن طفولة بعض الرجال ، مطبوع فى مصر .

(٢) العرب تقول لكل مسيل ماء شقه السيل فى الأرض وأنهره ووسعه : عقيق . وفى بلاد العرب أربعة أعقة : منها عقيق بناحية المدينة ، وفيه عيون ونخل ، وهما عقيقان أكبر ، وأصغر ، وقيل هى أعقة بالمدينــة ، ولذلك يختلف فى تقدير المسافة بينها وبين المدينة من ميلين الى سبعة أميال . ياقوت : (البلدان) ٦ / ١٩٩ ط مصر . ونزول مالك العقيق ؛ فى (ترتيب المدارك) ١ / ١٧ ظهر .

كان قليل الظهور فى حياة الأسرة ، أو على الأقل فى حياة هـذا الصبى ؛ إذ يُروى أن «مالـكا» ، كان يدعى حينا من الزمن، «مالـكا أخا النضر» ؛ والنضر هذا أخ لمالك يظهر أنه أكبر منه[1] ؛ وربما كان هذا مظهر ما يروى من أن الأب كان مقعدا . وأما الأم فسنسمع أكثر من مرة ، أنها اشتركت فى توجيه «مالك» .

***

دعى الوليد « مويلـكا » وهو غلام[2] ؛ فهل كان يدلل بهذه التسمية وهو صغير ؟ ربما كان ذلك ، فمثله معتاد .

***

كانت الأسرة على ما يفهم من روح الأخبار ، متوسطة الحال : فالأب يعيش من صنعة النَّبل كما سمعنا آنفا ؛ والأخ يتجر فى البز ؛ وتلك مظاهر هذا التوسط الذى نظنه .

---

(١) ترتيب المدارك ١ / ١٦ ظهر . ويختلفون فى أن النضر عم مالك ، وكان يسمى مالـكا أخا النضر ؛ أو أن النضر أخوه ، وبه كان يسمى مالـكا أخا النضر ؛ والأشهر أنه أخوه لا عمه .

(٢) ترتيب المدارك ١ / ٢٠ ظهر د .

(٢)

أصحَّ عزم الأسرة منذ أول الأمر ، على أن يتعلم الطفل ؟ أم ترددوا فى ذلك ؟ ربما كانوا قد ترددوا: إذ يروى، أن النضر أخا «مالك»، كان يبيع البز ، وكان مالك معه بزازا ، ثم طلب العلم[1] . فهل كان معه وهو صبى صغير ، قبل أن يتعلم شيئاً ؟ أو كان معه وهو غلام ، بعد ما تعلم التعليم البدائى وقبل أن يطلب علم الدين ؟

لعله كان بزازا وهو صبى، لأنا سنراه قريبا فى حلقة العلم ،وهو حدث .. ؟

* * *

متى بدأ الطفل حياته التعليمية ؟ وكيف كان ذلك ؟ وأين ؟ . . إن لم نستطع هذا التفصيل كله ، فقد ترجح أنه دخل مكتبا ليتعلم . فقد كان المعلمون ، يتصدون لتعليم الصبيان ؛ وفيهم من يقوم بذلك ، خدمة اجتماعية مجانية . ومَن أخذ منهم أجرا ، فذلك المعلومُ من الخبز ، كما كان الحال عندنا إلى عهد رأيناه نحن ؛ فكان للمعلم ذلك الخبز المختلف الأشكال ، يعبث الشعراء بذكره[2] فى هجاء المعلمين .

---

(١) ترتيب المدارك ١ / ١٧ ظهر .

(٢) ابن قتيبة : (المعارف) ١٨٥ ويذكر فى هذا الوضع ، أن الحجاج بن يوسف الثقفى ، واسمه كليب ، كان معلم صبيان بالطائف وكذلك كان أبوه يوسف ؛ وفى كليب يقول الشاعر:

أينسى كليب زمان الهزال   وتعليمه سورة الكوثر ؟
رغيف له فلكة ما ترى   وآخر كالقمر الأزهر ..

هل نجرؤ أن نقول : إن «مالـكا» دخل مكتب «علقمة بن أبى علقمة بلال المدنى» ؟ وهو الذى كانت أمه مرجانه مولاة «عائشة» رضى الله عنها، وكان علقمة هذا من موالى تيم أيضاً ، اتخذ له مكتباً كان يعلم فيه العربيـة والنحو والعروض . . . وسيروى عنه «مالك» فى [الموطأ][1] ؟؟ كل ظروف الرجل، من تيميته ولاء ، ورواية مالك عنه، واتخاذه مكتباً للتعليم..الخ، قد تبرر جرأتنا فى احتساب «مالك» بين تلاميذ هذا المـكتب ، دون أن نسمع عن ذلك خبراً.

***

لعله فى هذا العهد ، قد حفظ ما تيسر من القرآن ، فأول العـلم عندهم حفظ القرآن[2] . ولعله فى هذا الدور جوّد القرآن لإحكام أدائه ، وذلك إذ أخذ القراءة عن أبى «رويم ، نافع بن عبد الرحمن بن أبى نعيم» أحد القراء السبعة ، إمام أهل المدينة الذى صاروا إلى قراءته ، ورجعوا إلى اختياره ـ ت سنة ١٦٩هـ ـ أخذ القراءة عليه عَرْضاً[3] ، أى كان يقرأ عليه، وهو يسمع ، كما هى طريقـة المقرئين عند التجويد اليوم . وهم يذكرون تجويده للقرآن وإحسانه ضبط حروفه[4] ، فيما يذكرون من معارفه .

***

(١) ابن قتيبة : (المعارف) ١٨٥ والسيوطى فى (إسعاف المبطأ) ص ٢٠٦ . (وخلاصة التذهيب) للخزرجى ص ١٣٩ .

(٢) ابن عبد البر النمرى : جامع بيان العلم وفضله (مختصره للمحمصانى) ص ٢٠٥ .

(٣) ابن خلـكان : (وفيات الأعيان) جـ ١ / ٥٥٥ و ٢ / ١٩٨ ط بولاق .

(٤) ترتيب المدارك ١ / ورقة ١٢ وجه .

ربما يكون «مالك» ، قد شدا فى هذا الدور ، شيئاً من علم الدين ؛ فقد كانوا لذلك العهد ، يسألون الصبى البادئ فى الطلب ، بعد حفظ القرآن ، عن الفرائض[1] . وما أظن الصبى يُترك فى هذا الدور دون أن يعلم ما يُصحح به دينه ، من عقيدة ونحوها . وعند هذا يظهر لنا :

(١) الذهبى فى (تذكرة الحفاظ) ١ / ١٠٦ يقول ان ابن عيينة مر على الزهرى وهو جالس عند باب الصفا ، فجلس بين يديه ، فقال : يا صبى ، قرأت القرآن؟ قلت بلى . قال : تعلمت الفرائض ؟ قلت بلى ، قال : كتبت الحديث ؟ قلت بلى .

فهذه ــ فيما نظن ــ صفة الخطوات التعليمية لذلك العهد .

مالك الغلام

١ — التوجيه

٢ — المنهج

٣ — المدرسة

٤ — الطريقة

(١)

تهيأ لكتابة العلم . والعلم إذ ذاك هو علم الدين . ولو أردنا أن نعرف روح العصر فى تخير ما يُتعلم ، والتدبير لمستقبل الشباب ؛ لوجدنا صورة ذلك فى خبر يروى عن «أبى حنيفة» رضى الله عنه ، ولا يكاد يفترق فيه عراق عن حجاز ، لأنه أثر لظاهرة مشتركة فى الحياة

يقول «أبو حنيفة» : لما أردت طلب العلم ، جعلت أتخيّر العلوم وأسأل عن عواقبها ، فقيل لى : تعلم القرآن . فقلت : إذا تعلمت القرآن وحفظته ، فما يكون آخره ؟

قالوا : تجلس فى المسجد ، ويقرأ عليك الصبيان والأحداث ، ثم لا يلبث أن يخرج فيهم من هو أحفظ منك ، أو يساويك فى الحفظ ، فتذهب رياستك !

قلت : فإن سمعت الحديث ، وكتبته ، حتى لم يكن فى الدنيا أحفظ منى؟

قالوا : إذا كبرت وضعفت ، [كذا وربما تكون ضبطت] حدثت، واجتمع عليك الأحداث والصبيان .

ثم لا تأمن أن تغلط ، فيرمونك بالكذب ، فيصير عاراً عليك فى

عقبك ؛ فقلت : لا حاجة لى فى هذا .

ثم قلت: أتعلم النحو؟ فقلت: إذا حفظت النحو والعربية مايكون آخر أمرى؟

قالوا : تقعد معلماً ، فأكثر رزقك ديناران إلى ثلاثة .

قلت : وهذا لا عاقبة له .

قلت : فإن نظرتُ فى الشعر ، فلم يكن أحد أشعر منى ، ما يكون أمرى ؟

قالوا : تمدح هذا فيهب لك ، أو يحملك على دابة ، أو يخلع عليك خلعة ؛ وإن حرمك هجوته ، فصرت تقذف المحصنات .

قلت : لا حاجة لى فى هذا . .

قلت: فإن نظرت فى الكلام ما يكون آخره ؟

قالوا : لا يسلم من نظر فى الكلام ، من مشنعات الكلام ، فيرمى بالزندقة ؛ فإما أن تؤخذ فتقتل ، وإما أن تسلم فتكون مذموماً ملوماً .

قلت : فإن تعلمت الفقه ؟

قالوا : تُسأل ، وتفتى الناس ، وتُطلب للقضاء ، وإن كنت شابًا .

قلت : ليس فى العلوم شىء أنفع من هذا . فلزمت الفقه ، وتعلمته[1]

***

ومثل هذه النظرة يتجه إليها الحجازيون تماماً ، فى ذاك القرن نفسه ؛ إذ

---

(١) الخطيب البغدادى : (تاريخ بغداد) ١٣/٣٣١ و ٣٣٢ .

يطلب الشافعى أول أمره ، الشعر وأيام النــاس والأدب ، فيسمعه كاتبٌ لوالد صديقه ، يتمثل ببيت من الشعر ، فيقول له : أمثلك يذهب بمروءته فى هذا !! أين أنت من الفقه ؟ فيهزه ذلك ، ويأخذ فى الفقه[1] .

تلك هى نظرتهم العملية فى طلب العلوم ، وتقدير أثرها فى واقع الحياة؛ قد أثَّرت ــ فيما نعتقد ــ على توجيه غلامنا .

***

هل اطمأن الغلام وذووه ، إلى رأى قاطع فى هذا الاتجاه العلمى ، أو تراه تردد ، أو ترددوا هم فى هــذا الاتجاه ، فطلب شيئاً ثم تحول عنه ؟

تسمع قبل الإجابة عن هذا السؤال ، ما يرويه «ابن نباتة المصرى»[2] نقلا عن [تذكرة ابن حمدون] من أن «مالك بن أنس» نفسه ، يقول فى كهولته :

«نشأت وأنا غلام فأعجبنى الأخذ عن المغنين ، فقالت أمى : يا بنى إن المغنى إذا كان قبيح الوجه ، لم يُلتفت إلى غنائه . فدع الغناء ، واطلب الفقه .. فتركت المغنين ، وتبعت الفقهاء ، فبلغ الله بى إلى ما ترى . . . »

ليس ببعيــد أن تــكون بيئة المدينة ــ التى سنحاول بعد وصفها ــ قد أثرت فى الغلام ، ولــكننا نلحظ أن أمه تذكر قبح وجهه ، وهذا لا يتفق مع

---

(١) ابن حجر : (توالى التأسيس) ص ٥٠ .

(٢) سرح العيون ، شرح رسالة ابن زيدون . ص ١٨١ ط الموسوعات سنة ١٣٢١ هـ

ما قيل كثيراً من أنه أبيض ، أشقر ، أزرق، أعيَن، حسن الصورة ، لم يُر أحسن صورة منه، ولم ير بياض قط ولا حمرة ، أحسن من وجه«مالك»[١] .

فهل كانت أمه تقبح له من شأن الغناء فذكرت قبح الوجه ؟ أو قالت فى ذلك برأى مَن يكره الغناء يخرج من بين شارب ولحية ؟ وقد تكون الرواية كلها محل نظر ؟! .

وفى كلٍّ فقد انتهى الأمر باتجاه الغلام إلى طلب العلم، والتأهب لكتابته ، ولعله بدأ ذلك مبكراً، إذ يروى أنه رئى فى حلقة «ربيعة» وفى أذنه شنف[٢] .

***

حفظت لنا الرواية من حديث«مالك» عن بدء طلبه للعلم، أنه قال لأمه : أذهب فأكتب العلم ؟ فقالت : تعال ، فالبس ثياب العلم ؛ فألبستنى ثياباً مشمرة ، ووضعت الطويلة على رأسى ، وعممتنى فوقها ــ والطويلة هذه : قلنسوة مفرطة الطول ، تعمل من كاغد ونحوه ، على قصب ، وتسمى الدنيّة ، لشبهها بالدن[٣] ــ ثم قالت : اذهب فاكتب الآن[٤] .

وهكذا ترى عناية هذه الأم الكريمة ، وأثرها فى توجيه ابنها وتشجيعه كما أشرنا إلى ذلك .

---

(١) ترتيب المدارك ١/١٧ وجه ــ د (والديباج المذهب) ، وغيرها من المصادر .

(٢) الديباج المذهب ص ٢٠ ط مصر .

(٣) لعل هذه الطويلة فارسية تشبه مايلبسه العجم من طويل القلنسوات حتى الآن . وكان شيوعها أثرا لصلة الفرس بالعباسيين ، فقد ألزم المنصور الناس سنة ٢٥٣ بلبس القلانس المفرطة فى الطول ــ ابن العماد ــ (شذرات الذهب) ١/٢٣٤ .

(٤) الديباج المذهب ص ٢٠ .

(٢)

تهيأ الفتى للدراسة على منهج ؛ نستطيع أن نقول فى إجمال : إنه كل ما يستعان به على فهم القرآن ، من لسان العرب ، أو من سنن الرسول عليه السلام ، ومن ناسخ القرآن ومنسوخه، وأحكامه، واختلاف العلماء فى ذلك ؛ ثم السنن المأثورة عن الرسول عليه السلام ، والسير والمغازى ، لتنبيهها على الكثير من الناسخ والمنسوخ فى السنن[1] .

فجدول الدراسة — فى جوهره — يدور على علوم اللغة ، وعلوم القرآن، وعلوم الحديث ، . وقد ينظر الطالب مع ذلك فى شىء من الحساب، لأجل المواريث وتقسيم الفرائض .

لكننا هنا نضطر إلى القول بأن فتانا قد أصاب من دراسة الرياضيات — بأوسع معانيها — حظاً ، وإلا فكيف نفهم أن يؤلف بعد ذلك فى الأوقات والنجوم، كتاباً يبين فيه حساب مدار الزمان، ومنازل القمر؟ و يقال فى وصفه : إنه كتاب جيد مفيد جداً، قد اعتمد عليه الناس فى هذا الباب، وجعلوه أصلا[2] .

---

(١) ابن عبد البر : (جامع بيان العلم وفضله) — المختصر — ص ٢٠٥ ، ٢٠٧ وابن جماعة : (تذكرة السامع) ص ٥٧ .

(٢) ترتيب المدارك ١ / ١٢ — وجه ، ١ / ٣٩ ظهر — د ومثله فى (الديباج المذهب) ص ١٦ و ٢٧ ط مصر .

لم أر هذا الكتاب ، ولا تهيأ لى أن أقرأ لأحد فى وصفه أكثر مما ذكرت ، فهل الرواية متزيدة تنسب للإمام ما ليس له ؟ وكيف نحكم بهذا دون مقدمات تنتجه ؟

فى الحق أنى لم أعثر ـ فيما قرأت من أخبار «مالك» ـ على مايشير إلى دراسة رياضية فلكية تهيىء لتأليف مثل هذا الكتاب فيما بعد، وليس يجب أن يكون قد درس هذه الدراسات وهو غلام أو شاب . فقد تكون رغبة طامحة استجاب لها وهو كبير ؟ . وفى الخبر[1] أن «الشافعى» ـ رضى الله عنه ـ قد نظر فى النجوم . وثار الخلاف حول هذا النظر ، وأنه تنجيم يَحل أو يَحرُم. وفى هذا النظر على كل حال ما يقرّب صنيع «مالك» ، وإن كان لا يلزم من النظر فى النجوم التنجيم ، فإن النجامة ومعرفة آثار النجوم فى العالم الأرضى ، وصدور حوادثه عن حركاتها ، شىء يتوقف على معرفة أبعاد الكواكب وحركاتها ، وهذا ما ألف «مالك» فيه حساب الزمان ومنازل القمر؛ وهو فرع من الهيئة ، مغاير للتنجيم ومحاولة معرفة الغيب .

على أنا مهما يكن ميلنا إلى أن «لمالك» ـ رضى الله عنه ـ دراسة رياضية فلكية، لا نستطيع ـ حتى الآن ـ أن نقول : متى كان ذلك ؟ وأين ؟ وكيف ؟ . . نعم إن حركة الاتصال بالعلوم الفلسفية ، وترجمتها كانت تنتشر فى القرن الثانى[2] .

---

(١) التاج السبكى : (طبقات الشافعية) ١ / ٢٤٢ ط مصر .

(٢) ابن خلدون : (المقدمة) ٤١٩ ط عبد الرحمن محمد .

والخليفة « أبوجعفر » كان محباً للنجوم بخاصة . وهذا الحب يتصل ، ولا بد ، بميل فى ذلك العهد إلى هذا الفرع من العلم . فهل وصل ذلك إلى المدينة ، وتهيأ للإمام «مالك» ـ فى عهد مّا من حياته ـ أن يدرسه دراسة الذى يؤلف فيه ؟ لا بعد فى شىء من ذلك .

(٣)

فى المساجد ، كانت تدرس مواد المنهج السابق ، أو يلتمسها الطلاب على أشياخهم فى بيوتهم . **فالمسجد النبوى** ، هو مدرسة «مالك» ، وبخاصة **الروضة النبوية الشريفة** ، ما بين القبر والمنبر ؛ وقد قال شيخه «ابن شهاب» من قبله : جمعنا هذا العلم من رجال فى الروضة[١] وهكذا كان يغدو «مالك» كسائر الطلاب فى ذلك العهد ، يتخير الشيخ الذى يأخذ عنه ؛ ويجيئه حين يسهل الأخذ عنه ، فإن جلس فى صحن المسجد جلس إليـــه ، وإن استطاع لقاءه فى مكان آخر فبها ؛ قد يغـدو إليه فى بيته ، وقد يقوم على بابه ، أو يجلس على عتبته ؛ وحيناً يخلو به وحده ، وآنا مع غيره .

وفى الحياة الأزهرية ، قبل النظام الحديث ، صورة ما لمدرسة هذا العهد وطلبتها: فــكما كان يحمل الأزهرى فرواً يتقى به برد الصحن ، إذا كان على شىء من الرفاهية ، كذلك كان «مالك» قد اتخذ تُبَّاناً ـ أى سراويل صغيراً ـ محشواً يتقى به البرد : برد حجر البـاب فى دار ابن هرمز ، أو برد صحن المسجد ، وفيه كان يجلس «ابن هرمز»[٢] .

(١) المقدسى : (التنوير) ص ٤١ وجه ـ خط .
(٢) ترتيب المدارك ١ / ١٨ ظهر ـ د ومثله فى (الديباج) ص ٢٠ ط مصر .

(٤)

على طريقة العصر ، فى التلقى والرواية درس «مالك» ، وكانت الدراسة ـ فيما يبدو ـ تتراوح بين طريقتين : طريقة التلقى الشفوى من فم الشيخ ، يتكلم بعلمه ، أو يقرؤه من كتابه .

وطريقة كتابة ما ينسب للشيخ من علم فى كتاب أولا ، ثم قراءته عليه وهو يسمع .

وأخرجت كل طريقة صنفا من العلماء : فصنف يعتمد على حافظته ، ويكون حفظه قويًا إلى حد مدهش ، فلا يند عنه شىء ، هذا «أبو عتاب منصور السلمى بن المعتمر» ـ ت ١٣٢ هـ ـ يقول : ما كتبت حديثا قط[1] «والشعبى» يقول : ما أودعت قلبى شيئا فخاننى قط[2] .

ويكون من أثر الاعتماد على الحفظ ، أن الرجل قد يشتهر بالعلم الكثير مع أنه أمى ، «فجعفر بن سليمان الضبعى» ، أحد علماء البصرة ومن ثقات الشيعة ـ ت ١٧٨ هـ ـ مع كثرة علومه ، قيل كان أميا[3] .

---

(١) ابن العماد الحنبلى : (شذرات الذهب) ١ / ١٨٩ .

(٢) المصدر نفسه : ١ / ١٢٧ .

(٣) » » : ١/٢٨٨ .

وصنف كان يعنى بالكتابة ويعتمد عليها ، ويشتهر بصحة الكتاب ، ولا يجيد الحفظ. فمثلا : كان «الوليد بن مزيد البيروتى» ـ ت ٢٠٣هـ ـ ثقة ، ولم يكن يحفظ . وفيه يقول «الأوزاعى» : « ما عرضت فيما حمل عنى أصح من كتب الوليد بن مزيد[(١)] » .

ونستطيع أن نلمح فى القرن الثانى رجحان الميل إلى الكتابة ، حتى ليُكتب الحديث مع التلاقى ، ومواجهة الراوى للمروى عنه . فيروى أن « ابن جريج» قال«لابن أبى سبرة» ـ ت١٦٢ هـ ـ «اكتب لى أحاديث من أحاديثك جيادا » فكتب له ألف حديث ودفعها إليه ، فما قرأ أحدهما على صاحبه ؛ ثم أدخل «ابن جريج» فى كتبه أحاديث كثيرة من أحاديث «ابن أبى سبرة» يقول : « حدثنى أبو بكر بن عبد الله » يعنى «ابن أبى سبرة»[(٢)] .

وفى القرن الثانى ، تشتهر كتابةٌ يُنقل عنها الحديث، كصحيفة «العلاء بن عبدالرحمن» ـ المتوفى أول خلافة المنصور ـ التى كانت مشهورة بالمدينة . ويحدثنا عنه «مالك» نفسه[(٣)] . ومصداق الميل إلى الكتابة ما يصرح به «الذهبى» فى

---

(١) محاسن المساعى فى مناقب الأوزاعى ٢٢ . (ومعجم البلدان) لياقوت ٢/٣٢٩ ط مصر .
(٢) ابن قتيبة : (المعارف) ١٦٧و١٦٨ ط قديمة .
(٣) ابن قتيبة : (المعارف) ١٦٨ . كان العلاء يحدث بما فيها وربما أراد الرجل أن يكتب بعضها فيقول له : إما أن تأخذها جميعا أو تدعها جميعا .

[تذكرة الحفاظ][١] إذ يقول في الحديث عن عصر انتقال الملك من الأموية إلى العباسية ـ وهو على ما نعرف أول الثلث الثاني من القرن الثاني ـ مانصه : « وأخذ حفظ العلماء ينقص ، ودونت الكتب أو اتكلوا عليها ، وإنما كان قبل ذلك علم الصحابة والتابعين في الصدور ، فهي كانت خزائن العلم لهم رضي الله عنهم » اهـ .

فميل العصر إلى الكتابة مما يمكن الاطمئنان إليه بجملة ، وإن كان عمل « مالك » وأشياخه بخاصة ، مما اضطربت فيه الروايات اضطرابا شديدا سنقف عنده حينما نرى «مالكا» بين يدي أساتذته قريبا .

وبالطريقة الثانية ، تلقى الإمام «مالك» العلم كما يذكر لنا هو نفسه . ذلك حين يطلب منه الخلفاء وأولادهم أن يسمعهم العلم مشافهة فيقول لهم : « إن هذا البلد ـ المدينة ـ إنما يُقرأ فيه على العالِم ، كما يقرأ الغلام على المعلم ، فإذا أخطأ أفتاه » . بل يقرر أن هذه هي الطريقة من قبله حين يقول لهم أيضا : « سمعت ابن شهاب يقول : جمعنا هذا العلم من رجال في الروضة وهم فلان وفلان (ويسمى الفقهاء السبعة) ، ثم نقل عنهم ابن هرمز ، وأبو الزناد ، وربيعة ، والأنصار ، وبحر العلم ابن شهاب ، وكل هؤلاء يُقرأ عليهم ولا يقرأون[٢] .

---

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي ١/١٥١ ط الهند سنة ١٣٣٣ .

(٢) ترتيب المدارك ١/٢٨ ووجه ـ د .

على أن «ابن أبى ذئب» وهو من أنداد «مالك» ـ ت١٥٩هـ يخالف هذه القاعدة فقد كان يحفظ حديثه ولم يكن له كتاب[١]. وهكذا تختلف الروايات، ولعل الأحوال تختلف !

ومن مظاهر هذه الطريقة أن ترى العلماء فى ذلك العصر يتخذون الكُتَّاب، ويُعرف رجالٌ بالكتابة للأئمة كما عرف حبيب[٢] كاتب «مالك»، وهقل كاتب «الأوزاعى»[٣]، وعبد الله بن صالح كاتب «الليث[٤] بن سعد» وغيرهم.

ومن هنا بدأ «مالك» الطلب بكتابة العلم على ما رأينا أمه تهيئه لذلك .

***

فى السجل الدراسى للغلام، تفاريق من الأخبار، بعضها له، و بعضها عليه؛ وأكثرها منسوب إليه فى الرواية .

فمما عليه إخباره، أنه كان له أخ، أكبر منه، فى سن ابن شهاب، فألقى أبوه يوما عليهما مسألة، فأصاب أخوه وأخطأ هو، فقال له أبوه : ألهتك الحمام[٥]. وكان هذا التأنيب باعثا له على الجد .

---

(١) الذهبي : (تذكرة الحفاظ) ١/١٨٠ ط الهند .

(٢) الديباج المذهب لابن فرحون /٢٣ .

(٣) شذرات الذهب : ١/٢٩٢ .

(٤) ابن قتيبة : المعارف ـ ١٧٨ ط قديمة .

(٥) ترتيب المدارك : وقد وردت فيه هذه الحكاية فى موضعين : جـ ١/١٦ (ظ)، ١٧ (ظ) ـ د .

ويظهر أن اللعب بالطيور، كان شائعا فى المدينة ، فهذا «مالك» يتهمه أبوه بالتلهى بالحمام ، وبعد دهر نرى «لمالك» ابنا اسمه محمد ، يجىء وأبوه يحدث ، وعلى يده باَشَق ، وقد أرخى سراويله ، يدخل على أبيه وتلامذته ويخرج، ولا يقعد ليتعلم[1]. على حين كانت أخته «فاطمة» متعلمة تحفظ علم أبيها .

***

ومما يذكر من حرص الغلام «مالك» على التعلم أنه كان يلزم باب أشياخه، كما رأيناه يجلس على حجر باب «ابن هرمز» ؛ ويأتى «نافعا» نصف النهار، وما تظله الشجر من الشمس[2]، تفرغا لما يريد، حتى أشفقت عليه أخته فقالت لأبيها : هذا أخى لا يأوى مع الناس ؛ فقال لها أبوها : يا بنية ، إنه يحفظ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم[3] .

ومن ذلك أنه كان يجعل فى كمه تمرا ، يناوله صبيان «ابن هرمز» ويقول لهم : إن سألكم أحد عن الشيخ فقولوا مشغول[4] . وفهمت من هذا أنه يريد إطالة الوقت معه ، والانفراد به .

ويحدثون أنه أفضى به طلب العلم ، إلى أن نقض سقف بيته ، فباع خشبه[5]

---

(١) الديباج المذهب ص ١٨ ط مصر .

(٢و٣) ترتيب المدارك ١ / ١٨ (ظ) ـ د .

(٤) المصدر السابق

(٥) المصدر السابق ، (والديباج المذهب) ص ٢٠ ط مصر .

وإن كانوا يروون أنه لم يكن له منزل ، وكان يسكن بكراء إلى أن مات[1] ؛ وكان يسكن دار «عبد الله بن مسعود» ؛ وربما اعتذروا عن ذلك باختلاف الأحوال به ضيقا وسعة فى الحياة ؛ وإن كانوا يجعلونه ساكنا بكراء حتى الموت، أى رغم كل يسر وسعة فأين اختلاف الأحوال !!

لقد عُرف من قوله : إنه لا يبلغ أحد ما يريد من هذا العلم ، حتى يضرّ به الفقر ، ويؤثره على كل حال[2] . ولعل مالكا قد احتمل من ذلك وآثر ؛ وإن لم ينقض السقف ويبع خشبه ! !

***

وطالت مدة طلبه العلم سنين كثيرة تختلف فيها الروايات ، وسنعرض لذلك فيما بعد ؛ وكتب كثيرا من الحديث بيده ، كتب فيما قالوا مائة ألف حديث[3] ؛ وإن استكثرتَ هذا إحصاء ، فحسبك منه الدلالة على عظم الجهد المبذول .

---

(١) ترتيب المدارك : ١/ ١٦ (ظ) ــ د ، (والديباج المذهب) ص ١٩ ط مصر .
(٢) السيوطى (تزيين الممالك) ص ١٤و١٥ .
(٣) الديباج المذهب: ص ٢١ ط مصر .

بين يدي أساتذته

١ — من الأستاذ ؟

٢ — ربيعة الرأي

٣ — ابن هرمز

٤ — ابن شهاب

٥ — نافع

٦ — جعفر الصادق

٧ — ابن المنكدر

٨ — عروة بن أذينة

٩ — بقية ....

(١)

أخذ «مالك» العلم عن كثيرين، حتى عدوا من روى عنهم تسعمائة رجل[1]؛ وكل هؤلاء يُعتبر شيخا له فى اصطلاحهم، لكنا نعنى هنا بالأستاذين، أولئك الذين كان له بهم فضل اختصاص، وطول مزاولة يمكن أن نجد أثرها فى شخصيته العقلية، أو الاجتماعية.

ومن هنا سنحاول أن نتخير أبرز هؤلاء الأشياخ أثرا فيه، لنقول عنهم كلمات قصارا تكشف عن درجة اتصاله بهم، ومبلغ تأثره بشخصياتهم، وما أظن أننا نستطيع استيعاب ذلك، أو المقاربة فيه، فلعله قد تأثر بأشخاص لم يُكثر من الإشارة إليهم، ولم يُطل التحدث عنهم، بل لعل المرء يوجَّه فى الحياة بمن لا ينتبه هو إلى أثرهم فيه، فضلا عن ملاحظة المؤرخ ذلك .....، ولكن، هذا جهد المستطاع.

---

(١) المقدسى: (التنوير) ٤٢ وجه - خط.

(٢)

من هؤلاء الذين نرجح تأثره بهم : «ربيعة الرأى بن أبى عبد الرحمن فروخ المدينى» المتوفى سنة ١٣٠ ــ ١٣٦ هـ[1]، وقد كان «ربيعة» أول الدهر، صاحب عبادة ، ثم نزع عن ذلك ، إلى أن جالس القوم ، فنطق بلب وعقل سديد وفطنة ، وعدوه صاحب معضلاتهم ... وأحسبه إنما سمى «ربيعة الرأى» كما سمى «المغيرة» بن شعبة الصحابى من قبل « مغيرة الرأى[2] » ،إذ كان من دهاة العرب ، لا يقع فى أمر إلا وجد له مخرجا ، ولا يلتبس عليه أمران ، إلا ظهر الرأى فى أحدهما ؛ وأما الرأى الفقهى فلنا إليه عودة بعد ، وربما لا يكون منسوبا إليه ؟

لعل «ربيعة الرأى» هذا كان أول أساتذة غلامنا ، فقد روى أن «مالكا» رئى فى حلقته وعليه شنف ، كما قدمنا ، ثم هذه والدة «مالك» كما يروى فى قصة إلباسها إياه ثياب العلم ــ على ما سبق ــ كانت تقول له: اذهب إلى ربيعة فتعلم من أدبه قبل علمه .

---

(١) يختلف فى وفاته ــ كما هو معتاد ــ على سنين ما بين ١٣٠ و ١٣٦ ــ انظر : ابن خلكان ؛ (والتجريد) لابن عبد البر ، (وتاريخ بغداد) للخطيب .

(٢) ابن حجر . (الإصابة) ٦ : ١٣١ و ١٣٢ .

وإلى جانب ذلك نذكر أن «ربيعة» تيمى ولاء، فهو مولى آل المنكدر التيمى[1]. وأسرة الغلام حلفاء تيم، فتقدير الأم لربيعة، وصلة الأسرة به، مع رؤية «مالك» صغيرا فى درسه، كل أولئك يمهد لظن ابتدائه الطلب عليه.

***

أخذ «مالك» عن «ربيعة» الفقه، وروى عنه أنه قال «ذهبت حلاوة الفقه، منذ مات «ربيعة بن عبد الرحمن»[2] وأخذ عنه الحديث.» وروى عنه فى [الموطأ] أحاديث، يعدونها اثنى عشر حديثا ما بين مسند عدوه خمسة، ومرسل عدوه واحداً، وبلاغ عدوه ستا[3]

وربيعة أحد من يريده «مالك» إذا قال: على هذا أدركت أهل العلم ببلدنا، والأمر عندنا[4]

وقد يحصى ما يروى عنه فى غير [الموطأ] مثلا، فلا يظهر ذلك كثيرا؛ لكن مؤرخ «مالك» يقدر أنه أفاد من «ربيعة الرأى»، غير ذلك الذى يحصى ... أفاد منه فى عقله وتفكيره، وأفاد ما كانت تقول أمه له: تعلم من أدبه قبل علمه: كما تأثر به فى ذوقه ومزاجه، إذ يلبس الأقمصة الرقيقة

(١) ابن قتيبة: (المعارف) ١٧٠ ط قديمة، وقد يقال فى «ربيعة الرأى» مولى آل الهدير، ولا مغايرة فى ذلك لأن الهدير جد المنكدر.
(٢) الخطيب البغدادى: (تاريخ بغداد) ٨/٤٢١ و٤٢٢ ط الخانجى
(٣) ابن عبد البر: (التجريد) ٤٩.
(٤) ترتيب المدارك ١ ورقة ٣٧ — وجه (د).

ويقول : ما أدركت أحدا يلبس هـذه الثياب الرقاق ، وإنما كانوا يلبسون الصفاق ، إلا «ربيعة» فإنه كان يلبس مثل هذا ـ ويشير إلى قميصه[1] ـ .

ويبرر القول بهذا التأثر، طول ملازمة «مالك لربيعة» ، فقد رُئى وعليه الشنف فى حلقته ؛ وسنراه يقعد للتدريس والفتيا متصلا «بربيعة» يستأذنه ، أو يخرج عليه ، على اختلاف الروايات فى ذلك .

---

(١) الديباج: ص ١٩ ط مصر . ولا يسلم هذا من اختلاف الرواية ، ففى (تذكرة الحفاظ ـ ١٩٧ ـ أن «مالكا» كان يقول : « ما أدركت فقهاء بلدنا إلا وهم يلبسون الثياب الحسان» فهل يلبسون الحسان مع الثياب الصفاق ؟ ! !

(٣)

وممن طال اتصال «مالك» به « ابن هرمز » أبو بكر عبد الله[1] بن يزيد المتوفى[2] سنة ١٤٨ هـ ، الأصم الشديد الصمم . كان مولى الدوسيين[3] . و يظن أنه فارسي كما يدل اسمه ، ولو أن الأسماء علامات ودلالات، لا توجب نسبا ولا تدفعه ؛ ومن طريف الحوار بين القدماء فى تحقيق الأنساب بحجة من الأسماء ، ما فى الأغانى (٣١/٦ ط الساسى) بين « خالد بن كلثوم » و « أبى عبيدة معمر بن المثنى » بشأن «وضاح اليمن» . فكان مما قال خالد : « . . . وأى شىء يكون إذا سمى عربى باسم فارسى ؟ وليس كل من كنى

---

(١) فى النسخة الخطية المحفوظة بدار الكتب المصرية من كتاب (طبقات الفقهاء) للشيرازى – ت ٤٧٦ هـ – ورقة ١٥ ظهر – يذكر اسمه : أبو عبدالله بن يزيد . وكذلك ورد فى النسخة المطبوعة من هذا الكتاب فى بغداد ص ٣٩ – لكن يسميه (ابن قتيبة) فى المعارف – ١٩٥ ط قديمة ، عبد الله فقط : وكذلك الطبرى فى (تاريخه) ٢٢٩/٩، وابن حزم فى (الإحكام) ٩٦/٥ ، وابن أبى حاتم الرازى فى (الجرح والتعديل) جـ ٤ من النسخة الخطية بدار الكتب المصرية وهى غير مرقمة فآثرت تسميته عبد الله ، دون (أبو) مع الكثرة

(٢) البخارى : (التاريخ الصغير) ص ١٧٢ .

(٣) ابن قتيبة : (المعارف) ص ١٩٥ . وفى (التاريخ الصغير) للبخارى سنة ١٧٢ ط الهند : «مولى بنى ليث» . ومثله فى (الجرح والتعديل) فهل هو غير من يتحدث عنه ابن قتيبة، وبخاصة لأن ابن قتيبة لم يزد على الاسم . وهو سمى ابن هرمز الأعرج عبد الرحمن ، أبوه هرمز لاجده كهذا . وتوفى الأعرج عبد الرحمن بالاسكندرية سنة ١١٧ ولم يعد مالك فى الآخذين عنه ، ففرق بينهما .

أبا بكر هو الصديق ، ولا من سمى عمر هو الفاروق ، وإنمـــا الأسماء أعلام ودلالات ، لا توجب نسبا ولا تدفعه » .

* * *

قل ما كتبوا عن « ابن هرمز » ، حتى ليكاد ما ورد فى ترجمة «مالك» من الإشارات إليه والخبر عنه ، يكون أكثر مما كتب عنه استقلالا[١] .

وربما أمكننا القول بأن «مالــكا» لزم «ابن هرمز» هذا وأطال ملازمته ، بعد ما سأله أبوه هو وأخاه الأكبر منه سؤالا ، فأصاب أخوه ولم يصب هو . فقرعه أبوه بقوله له : « ألهتك الحمام عن العـــلم » إذ يقول تعقيبا على الخبر : « فغضبت ، وانقطعت إلى ابن هرمز سبع سنين ـ وفى رواية ثمانى سنين ـ لم أخلطه بغيره[٢] » .

ولا تستــكثر انقطاعه إليه ثمانى سنين لا يخلطه بغيره ، لأن الرواية تجاوز ذلك من المدة ، وتختلف فى مدة التلمذة له ، فيروى أنه جالس « ابن هرمز » ثلاث عشرة ســنة[٣] ، أو أقام خمس عشرة ســنة يغدو من منزله إلى منزل « ابن هرمز » ، ويقيم عنده إلى صلاة الظهر ، مع ملازمته لغيره[٤] ، أو أنه

(١) لم يكتب عنه استقلالا إلا الشيرازى فى (طبقات الفقهاء) نحو ثلاثة أسطر، وابن أبى حاتم فى (الجرح والتعديل) قرابة ثلاثة أسطر أيضا ، ولم يذكره الذهبى فى (تذكرة الحفاظ)

(٢) (ترتيب المدارك) ١/١٨ ظهر د . و (الديباج) ٢٠ ط مصر

(٣) (الترتيب) ١/١٢ وجه(د) ، ومثله فى(الديباج) ص ٢٠

(٤) (الترتيب والديباج) فى الموضع السابق

جالسه ست عشرة سنة[١] . وقد تصل هذه المدة « بالإشارة » إلى ثلاثين سنة وذلك فى قول « مالك » : إن كان الرجل ليختلف للرجل ثلاثين سنة يتعلم منه ... فكان تلامذة مالك يظنون أنه يريد نفسه ، مع ابن هرمز[٢] .

***

ويمكن فهم هــــذه الروايات المتعددة ، على أن « مالكا » ، لازم « ابن هرمز » ، لا يخلط غيره به ، مدة سبع سنين أو ثمان ، هى التى يقول فيها: كنت آتى « ابن هرمز » من بكرة ، فما أخرج من بيته ، حتى الليل[٣] ؛ ـ ولعله إذ ذاك كان يعطى صبيانه التمر ، الذى يجعله فى كمه ، ليقولوا لمن يسأل : إن الشيخ مشغول ـ كما مر . وفيما بعد هذه السبع أو الثمان السنين ، كان يتردد على « ابن هرمز » ، مع أخذه عن غيره ، فقد يصح أن يغدو من منزله إلى منزل ابن هرمز ، فيقيم عنده إلى صلاة الظهر كما سمعناه يقول قريبا ، ثم يأتى « نافعا » نصف النهار ، وما يظلله الشجر من الشمس فيتحين خروجه كما وصف[٤] .
وأما الاختلاف إليه ثلاثين ، فقد يكون باقى المدة بعد أن كبر ، وتصدر للفتيا ، وجلس للتدريس ؛ فلم يكن عندهم ما يمنع من أن يطلب الرجل العلم ، وهو يدرّس ؛ كما كان « سفيان بن عيينة » ـ فيما رووه ـ يجلس فى حلقة « مالك » ،

---

(١) (الترتيب والديباج) فى الموضع نفسه .
(٢) (ترتيب المدارك) ١ : ورقة ١٨ ـ ظهر ـ (والديباج) ص ٢٠ ـ
(٣) » » ١ : » ١٩ ـ وجه » » »
(٤) المصدران السابقان

يسمع الحلال والحرام ، والحديث المعمول به ؛ لا يتكلم بحرف ، وإذا خرج حلّق لنفسه حلقة[١] . بل لقد كان من سنتهم ، أن يروى الأكابر عن الأصاغر ، يستديمون بذلك طلب العلم ، وإخضاع النفس ؛ وقد رَوَى عن «مالك» نفسه ، كبارُ أشياخه كما ينقل ذلك .

من كل مامضى لا نرى بأسا بأن تدوم صلة الغلام بشيخه هذه السنين الطوال .

٭٭٭

يعد «ابن هرمز» من فقهاء أهل المدينة ، من الطبقة التالية لفقهائها السبعة المعروفين ، أو الطبقة الرابعة من طبقات فقهاء المسلمين ، على اعتبار أن الصحابة طبقتان ، يليهم من التابعين ، الفقهاء السبعة ومن فى درجتهم ، ثم هذه الطبقة التى منها «ربيعة الرأى» ، «وابن شهاب الزهرى» ، «وعمر بن عبد العزيز» ، «وأبو الزناد» ، وهذا «ابن هرمز»[٢] .

ويشهد له أنداده بالخير إذ يقول «سليمان بن بلال المدنى»[٣] «لربيعة» : رأيتَ العلماء والناس ، فيقول له «ربيعة» : «ما رأيت عالما قط بعينك

---

(١) الزواوى : (مناقب مالك) ص ٩

(٢) أبو إسحق ، جمال الدين إبراهيم بن على الفيروزابادى الشيرازى : (طبقات الفقهاء) ط بغداد ١٣٥٦ . وعده البخارى فى فقهاء المدينة ، فى (التاريخ الصغير) ص ١٤٥ ، ١٦٧ ط الهند

(٣) بربرى ، ولى خراج المدينة ، وكان ثقة عاقلا يفتى بالمدينة : (تذكرة الحفاظ) ٢١٥/١ ط الهند .

إلا ذاك الأصم ابن هرمز[١] » . وعن « ابن هرمز » أخذ « مالك » الفقه كما صرحوا[٢] ولقد قالوا : إن «مالكا» إذا قال : «على هذا أدركت أهل العلم ببلدنا ، والأمر عندنا» فإنه يريد «ربيعة» و«ابن هرمز»[٣] .

* * *

لكن « مالكا » يحدثنا : أن « ابن هرمز » كان من أعلم الناس بالرد على أهل الأهواء ، وبما اختلف فيه الناس من هذه الأهواء[٤] ؛ وأنه كان يسد على أهل الأهواء[٥] . وسنرى تلميذه «مالكا» ؛ يؤلف فيما بعد ، فى الرد على الأهواء ، وتعتبر رسالته فى ذلك ، من خيار الكتب ، الدالة على سعة علمه ، كما قالوا[٦]

فنستنتج من ذلك ، أن لمشيخة « ابن هرمز » أثرا فى علم « مالك » الاعتقادى ، وفى منهجه الكلامى ، الذى سنقف عنده فيما يلى .

* * *

ويبقى بعد الفقه والكلام ، الحديثُ ؛ وهو العلم عندهم ؛ فكيف كانت صلة « ابن هرمز » بمالك فيه ؟ . . يفجؤنا فى جواب هذا السؤال .

---

(١) الشيرازى : (الطبقات) ص ٣٩ .
(٢) المصدر السابق — ص ٣٩
(٣) (ترتيب المدارك) ١ / ورقة ٣٧ وجه د
(٤) الشيرازى : (الطبقات) ص ٣٩ ومعه (ترتيب المدارك) ١ /ورقة ١٢ وجه د .
(٥) الزواوى: (مناقب مالك) ص ٤٠
(٦) (ترتيب المدارك) : ١ : ورقة ٣٩ آخر الوجه وأول الظهر — د — (والديباج) ٢٧/١٦ ط مصر

أن «ابن هرمز» ، كان قد استحلف «مالـكا» ألا يذكر اسمه فى حديث[1] ..
و إن هذا الاستحلاف ليلفت النظر ؛ فماذا كان من أمر « مالك » إزاء هذا الاستحلاف ؟ .. ثم ما سر هذا الاستحلاف غير المعتاد ؟

أما أثر هذا الاستحلاف فربما كان منه : أنى لم أر ـ فيما رأيت ـ من أثبات أسماء الرجال الذين يروى عنهم مالك ، اسم ابن هرمز ، .. فلم أره فى [تجريد ابن عبد البر] ؛ ولا رأيته فى جريدة الرجال الذين عدهم «السيوطى» فى [مناقب مالك] ؛ ولا رأيته فى [إسعاف المبطأ برجال الموطأ] للسيوطى أيضا ؛ لـكنى إلى جانب هذا ؛ وجدت ترجمة «لمالك» ، قد ألحقت بكتاب [تنوير الحوالك على موطأ مالك] للسيوطى ؛ فى طبعة مصر سنة ١٣٥٣ ؛ ووضعت فى آخر الجزء الثالث منه ، غير منسوبة إلى أحد ، وفى هذه الترجمة ذكر خبر هذا الاستحلاف ، وقد عقب عليه الـكاتب بقوله : ولعل هذا هو السر فى توسيطه أبا الزناد بينه و بينه[2] . فرجعت إلى «أبى الزناد» فاذا «لمالك» عنه أحاديث مختلَف فى عدها[3]

قال « ابن عبد البر فى [التجريد] ص ٩٢ «لمالك» عنه أربعة وخمسون حديثاً . ولـكنه ساق بعد ذلك ٥٦ حديثاً استغرقت فى الترقيم من ٢٤٩ إلى ٣٠٤ ، وقال « السيوطى » فى [التزيين] ص ٤٨ ، فى سياقة رجال « مالك »

---

(١) (ترتيب المدارك) ١ : ورقة ١٨ ـ ظهر ـ د (والديباج) ص ٢٠
(٢) بالجزء الثالث من تنوير الحوالك ص ١٦٥

الذين روى عنهم فى هذا المسند ما نصه : « أبو الزناد » ٦٤ أربعة وستون حديثاً اختلفوا فى خمسة عشر . فعلى هـذا يكون المتفق عليـه تسعة وأربعين حديثا لا أربعة وخمسين كما قال « ابن عبد البر » ولا كما عدها هو نفسه ! ! !

وقد ساق « ابن عبد البر » سند هذه الأحاديث فى [التجريد] هكذا : « مالك » عن «أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة»[1] و«الأعرج» هذا هو عبد الرحمن بن هرمز الراقد فى الاسكندرية ، وهو غير صاحبنا ؛ فهذا عبد الله ، وذاك عبد الرحمن ، وصاحبنا الأصم ، وهذا الأعرج ، وعبـد الله الفقيه جده هرمز ، وعبـد الرحمن أبوه هرمز ، وكأنما كاتب هـذه الترجمة السابقة قد وهم فيما أشار إليه من هذا التوسيط . و«مالك» لم يذكر «عبد الله ابن هرمز» فى مروياته على ماوصلت إليه يدى ؟ . .

وأما سر هذا الاستحلاف ، فما إخال القول فيه سيستقيم لنا ، إلا على ضروب من الفرض ، نقلبها رجاء أن نعثر منها بما يقبل . . فهل السر فى طلب «ابن هرمز» ألا يُذكر اسمه فى حديث ، ضرب من التوقى والاحتياط ، نشأ من تقديره تبعة الرواية ، والمسئولية فيها ؟... إنه لَيُروى عن «ابن هرمز» خبر يدخل فى هـذا الاحتياط ؛ وذلك أنه قيل له : نسألك فلا تجيبنا ؛

---

(١) ابن عبد البر : (تجريد التمهيد لما فى الوطأ من المعانى والأسانيد) ــ ٩٢ ط مصر سنة ١٣٥٠ ؛ يذكر هذا السند ثلاث مرات ثم يحيل عليه مابقى من الأحاديث كلها

و يسألك «مالك» و«عبد العزيز» ـ أى ابن الماجشون ـ فتجيبهما ! ! ؛ فقال : دخل علىّ فى بدنى ضعف ، ولا آمن أن يكون قد دخل علىّ فى عقلى مثل ذلك ، وأنتم إذا سألتمونى عن الشىء فأجبتكم قبلتموه، ومالك وعبد العزيز ينظران فيه ، فإن كان صوابا قبلاه ، و إن كان غيرَه تركاه[1] .

فعلى تقدير صحة هذا الخبر، واستبعاد أن تكون رغبة أصحاب المناقب فى الإشادة «بمالك» ونقده للمروى ، قد أثرت فى سَوْق هذا الخبر... على تقدير هذا نرى احتياطا طبيا، من رجل يشعر بما دخل على بدنه من ضعف ، و يخشى أن يكون قد دخل عليه فى عقله مثله ، فلا يحدث إلا النقاد، و يمسك عن تحديث سواهم ، وهو تقدير دقيق لتبعة الرواية ، قد يمهد لتفسير الاستحلاف بالاحتياط والتوقى ..

ولكن، أينتهى هذا الاحتياط والتوقى إلى سَوْق المروى بغير سند ؛ أم إلى ترك المروى و كتمان العلم ؟ ! هما أمران أحلاهما مر ؛ ثم هل يكون هذا التوقى قبل الضعف وخوف خطره ؟ ! ويكون فى السنين الطوال التى لازمه فيها تلميذه «مالك» الذى يشهد له ـ كما فى الخبر السابق ـ بأنه ناقد ينظر ؟ ! لعله ليس من القريب السائغ أن يعلل هذا الاستحلاف من «ابن هرمز» بالاحتياط والتوقى . .

فبقى أن يتجه الفرض اتجاها مغايرا ؛ فللمسألة جانب آخر يستحق النظر،

---

(١) القاضى عياض : (ترتيب المدارك) ١ / ٢٢ ظهر

وهو : أننا نقرأ فى [كتاب الجرح والتعديل] «لأبى حاتم الرازى» أن « عبد الله بن هرمز » أحدَ فقهاء أهل المدينة ، الذى روى عنه «مالك» «ليس بقوى[١]» . فهل كان الشيخ عند «مالك» فى الحديث ليس كما كان عنده فى الفقه ؟ ؛ وليس كما هو فى الكلام ومناقشة أهل الأهواء ؟ ؛ وهل لهذا لم يظهر اسمه فى رجال «مالك» بالموطأ ؟ ... هذا احتمال قريب ؛ لا يبعده أن « ابن هرمز » كان فقيها يؤخذ عنه ؛ فلهذا عندهم نظائر : يكون الرجل من كبار الفقهاء ، وهو مع ذلك متروك الحديث ، وهذا «الحجاج بن أرطاة النخعى الكوفى» ــ ت ١٥٠ هـ ــ ، من كبار الفقهاء ، ومع ذلك تركه «ابن مهدى» ؛ والقطان ؛ وقال «أحمد» لا يحتج به[٢] ؛ ؛ وهذا «أبو محمد ، الحسن بن عمارة الكوفى» ــ المتوفى سنة ١٥٣ هـ ــ كان قاضى بغداد ، لكنه واه باتفاقهم[٣] ؛ «وأبو عبد الله شريك بن عبد الله النخعى» الكوفى القاضى ــ ت ١٧٧ هـ ــ أحد الأعلام ، فقيه إمام ، لكنه يغلط و يضعف جدا[٤] ... وهؤلاء جميعا ــ كما ترى ــ من أهل القرن الثانى الهجرى ، وهو العهد الذى نؤرخه ، فهل كان «ابن هرمز»

---

(١) النسخة الخطية بدار الكتب المصرية جـ ٤ غير مرقم ــ فى حرف الغين ــ ؛ والذهبى لا يذكر ابن هرمز فى (تذكرته) ؛ ولكنه كذلك لا يذكره فى (ميزان الاعتدال) بين من فيهم شىء ؛ ولا يذكره النسائى فى كتابه (الضعفاء) .... ؟

(٢) (ابن العماد) : (شذرات الذهب) ١/ ٢٢٩ ــ و (الذهبى) : «ميزان الاعتدال» ١/ ٢١٣

(٣) » » » » ١/ ٢٣٤ ــ » » » ١/ ٢٣٩

(٤) » » » » ١/ ٢٨٧ ــ » » » ١/ ٤٤٤

شيخ «مالك» شبيهاً بهؤلاء ؟ وهل بين هذا ، و بين عدم ظهوره فى مشيخة «مالك» مع طول الملازمة صلة ؟ وهل يمت ذلك بسبب مّا إلى رواية الاستحلاف بترك اسمه ، ويفسرها بوجه من الوجوه ؟ . . تلك كلها فروض لا نقتحم فيها بترجيح، بل نترك للزمن ترجيحها ، ولا نقول فيهـا أكثر من أنها احتمالات ليست ببعيدة . . وأن هذا المتأخر منها ، قد يكون أقرب من متقدمها .

وتسلمنا هذه الفروض إلى فهم خاص ، لرواية أخرى تُنقل عن «مالك» فى شأن شيخه « ابن هرمز » تلك هى قوله : جالست «ابن هرمز» ثلاث عشرة سنة ـ ويروى ست عشرة سنة ـ فى علم لم أبثه لأحد من الناس[1] . فلأى شىء لم يبث «مالك» هذا العلم ؟ وهل يمكن أن يتصل ذلك بما أسلفنا ، من درجة الثقة بالشيخ ؟ هذا فرض أيضا نعرضه على الاحتمال ، ولا نزيد .

* * *

ونستطيع أن نلمح تأثر « مالك » بابن « هرمز » فى منهجه العلمى ، أو فى خلقه العلمى ، من حيث تقدير المسئولية ، وعدم التهجم بالإجابة ، وكبح النفس عن العجب ، وحب الرياسة ، إيثارا للحقيقة وميلا إلى التلقى بالتوقيف والنقل. ومظهر ذلك :قول العـالم « لا أدرى » أو « لا أُحسن » أو « حتى أنظر».. وذلك كله مما اشتهر نقله عن « مالك » رضى الله عنه . وقد حدثنا هو

---

(١) (ترتيب المدارك) ١ / ورقة ١٢ وجه ـ د ـ ومثله فى (الديباج)

أنه سمع « ابن هرمز » يقول : ينبغى أن يورث العالم جلساءه قول «لا أدرى» حتى يكون ذلك أصلا فى أيديهم ، يفزعون إليه ، فإذا سئل أحدهم عما لا يدرى قال : لا أدرى[٢] .

لقد كانت القولة ـ فيما يبدو ـ شائعة ، يتناقلها علماء الصحابة مقدرين الأمانة العلمية ، «فعمر بن الخطاب» ابتلى بأشياء سئل عنها فلم يجب ؛ وابن عباس قد ينسب إليه أنه قال : إذا أخطأ العالم « لا أدرى » أصيبت مقاتله ؛ وقد قال «ابن عمر» : لا أدرى ، وقال ابن الزبير : لا أدرى[١] .

وكأنما كان « ابن هرمز » من أظهر المتمسكين بذلك ، يرى توريث العالم جلساءه هذا الأصل ، فورثه عنه «مالك» مُلازمه الشديد الملازمة له .

وقد يدل هذا الأصل على ضرب من تهيب الرأى ، والتوقف عنه ، وميل إلى تحديد العمل العقلى فى الميدان الفقهى ، وعدم الاندفاع إلى القياس ، واستخراج الأحكام ، على نحو ما شوهد من هذا الإقدام فى بيئات فقهية أخرى. وسنعود إلى هذا فيما بعد بفضل بيان .

***

لعل طول ملازمة « مالك » «لابن هرمز» ، على ما رأيناه فى الروايات

---

(١) (ترتيب المدارك) ١ / ورقة ٢٥ وجه د .

(٢) ترتيب المدارك ١/٢٥ وجه ـ د ـ

المختلفة . قد عقد بينهما أواصر صداقة قوية تجعل «ابن هرمز» يفضي إلى تلميذه بسره السياسي الخطر في عصر انقلاب واضطراب، قامت فيه العباسية بعد الأموية ، وتوالى الخروج على هذه العباسية من العلويين وغيرهم . و«ابن جرير الطبري» يحدثنا[1] أن « مالك بن أنس » يقول : كنت آتي «ابن هرمز» ، فيأمر الجارية ، فتغلق الباب ، وترخي الستر ، ثم يذكر أول هذه الأمة « ثم يبكي حتى تخضل لحيته »

وسنرى هؤلاء الأشياخ في المعترك السياسي ، حينما نتحدث عن موقف «مالك» فيه . . وقد خرج «ابن هرمز» مع « النفس الزكية » سنة ١٤٥ هـ وعفا عنه العباسيون بعد الهزيمة .

***

على الرغم من قلة ما وصلت إليه اليد من أخبار الشيخ «ابن هرمز» ، فإننا نجد من يسير الأخبار، ميله إلى قلة الكلام[2] ، كما نحس أنه كان ميالا إلى العزلة ، إذ نراه يقضي يومه كله في بيته ، يأتيه « مالك » من بكرة ، فلا يخرج حتى الليل كما سمعنا ، ولعل في هاتيك الصفات الواضحة في الشيخ ، ما يلقي ضوءاً على شخصية « مالك » ، حينما نحاول تصويرها في شيء من الجلاء بعد ذلك إن شاء الله .

(١) (تاريخ الأمم والملوك) ٢٢٩/٩ ط مصر .

(٢) الزواوي : (مناقب مالك) ص ٤٠

(٤)

ومن زاحم « مالك » على بابه «ابن شهاب الزهرى» ـ أبو بكر محمد بن مسلم المدنى ، من زهرة بن كلاب من قريش ، ـ ت سنة ١٢٤ أو ٢٣ أو ١٢٥هـ ـ [(١)] عالم جامع : فهو محدث ، يعدّ رأس المدونين ، وواضع علم الحديث رواية ـ على رأيٍ ـ ، كثير الحديث ، حتى وسعه أن يقول : ما صبر أحد على العلم صبرى ، ولا نشره أحد نشرى [(٢)] .ولقب : أعلم الحفاظ .

ويعد من فقهاء المدينة من طبقة « ابن هرمز » وإخوانه [(٣)] . وله مع ذلك كله ثقافة أدبية واسعة ، حتى قيل : إن حدث عن العرب والأنساب ، قلت : لا يحسن إلا هذا ، وإن حدث عن القرآن والسنة فكذلك [(٤)] ، ويعد من أعلم الناس بالأنساب [(٥)] .

* * *

لم يزل « الزهرى » مع « عبد الملك بن مروان » ، ثم مع « هشام بن

---

(١) ابن خلكان : (الوفيات) ١/٧٥٢ ط بولاق

(٢) الذهبي: (تذكرة الحفاظ) ١ / ١٠٣ ؛ ط الهند

(٣) عده الشيرازى فى طبقاته ص ٣٥ ط بغداد ؛ وعده ابن حزم من أهل الفتيا في المدينة ، (الإحكام) ــ ٥ / ٩٦

(٤) الذهبي (التذكرة) ١ / ١٠٣

(٥) ابن عبد البر (القصد والأمم فى التعريف بأصول أنساب العرب والعجم) ص ٤٣ ط مصر

عبد الملك » ، كما استقضاه « يزيد »[١] وبهذا كان مقامه بالشام كثيراً ، ولما قدم المدينة قال « مالك » : كنا نزدحم على دَرَج سلم بابه[٢].

وكانت لبابه عتبة حسنة، كان يجلس عليها «مالك» ورفاقه ، ويتدافعون إذا دخلوا على الشيخ حتى يسقط بعضهم على بعض[٣]. وتظهر رغبة « مالك » في الانفراد به ، إذ تسمعه يقول : شهدتُ العيد ، فقلت : هذا اليوم يخلو فيه «ابن شهاب» ... فانصرفت من المصلى، حتى جلست على بابه . فسمعته يقول لجاريته : انظرى ، مَن على الباب . فنظرت ، فسمعتها تقول . مولاك الأشقر « مالك » ، قال : أدخليه ، فدخلت ، فقال : ما أراك انصرفت بعدُ إلى منزلك ، قلت : لا ، قال : هل أكلت شيئاً ؟ قلت : لا ، قال : فاطعم ، قلت لا حاجة لى فيه ، قال : فما تريد ؟ . قلت تحدثنى سبعة عشر حديثاً[٤]...وحدثه بكذا وكذا ـ الخ الخبر الدال على حرص « مالك » ، على فرص لقاء «ابن شهاب الزهرى » .

***

---

(١) ابن خلكان: (الوفيات) ١ / ٥٧٢ ط بولاق

(٢) ابن عبد البر (الانتقاء) ١٦ ، ١٧ ـ و(المدارك) ١ / ورقة ١٩ ظهر ـ د ـ

(٣) القاضى عياض : (ترتيب المدارك) ١/ورقة ١٩ وجه ـ د ـ وقد وجدت ابن حزم (احكام) ٥ : ١١٦ ـ يقول : وما كتب عنه ـ أى الزهرى ـ مالك إلا بمكة وهو غريب مع هذا الروايات السابقة : ولعل فيه وهما من ابن حزم.

(٤) القاضى عياض: (ترتيب المدارك) ١ / ورقة ١٩ وجه ـ د ـ

والحديث عن « ابن شهاب » يسلمنا إلى ما أشرنا إليه سابقاً من طريقة التعليم لهذا العهد ، واعتمادها على الكتابة ... إذ نجد من اختلاف الأخبار فى هذا الشأن ، ما لا يُحتمل الاغضاء عنه ، حتى آثرت أن أضع بين يدى القارئ مثلا آخر ، مما يجب أن يفرغ له المؤرخ من هذه الأخبار المتدافعة :

إنك لتقرأ من هذا، أن «الزهرى» يسأل «ابن عيينة» حين يجلس بين يديه وهو صبى ، فيقول له : أقرأت كذا وكذا؟ حتى يقول له: اكتبت الحديث[1] ؟.

وتقرأ : أن الزهرى هذا كان يطوف على العلماء، ومعه الألواح والصحف، يكتب ما سمع[2] .

وتقرأ : أن « الزهرى » ، كان إذا جلس فى بيته ، وضع كتبه حوله ، فيشتغل بها عن كل شيء من أمور الدنيا ، فقالت له امرأته يوماً : والله لهذه الكتب أشد علىّ من ثلاث ضرائر[3] ..

ذلك شأن «الزهرى» فى الكتابة والكتب . .

وتقرأ كذلك ، فى صفة تلقى « مالك » عنه ، أن عامة ما سمعه منه ، كان عرضاً ، يقرأ « مالك » عليه ؛ وكان حسن القراءة[4] . .

---

(١) الذهبي: (التذكره) ١ / ١٠٦
(٢) المصدر السابق ١ / ١٠٣
(٣) ابن العماد: (شذرات) ١ / ١٦٣ ، وابن خلكان : وفيات ١ / ٥٧١
(٤) (ترتيب المدارك) ١ / ورقة ١٩ وجه ــ د ــ

وفى خبر خلوة « مالك » به يوم العيد على ما أسلفنا منذ برهة ، يقول « مالك » فأخرجت ألواحى ، فحدثنى بأربعين حديثاً ، فقلت : زدنى ! قال : حسبك ، إن كنت رويت هذه الأحاديث ، فأنت من الحفاظ . قلت : قد رويتها ، فجبذ الألواح من يدى ، ثم قال : حدث . فحدثته بها ، فردها إلى ، وقال : قم ، فأنت من أوعية العلم .

وليس هذا فحسب هو اعتمادهم على الكتابة ، بل بلغ الأمر بهم أن رووا أن « ابن شهاب » كان يؤتى بالكتاب وما يقرأ ، ولا يقرأ عليه . فيقولون : نأخذ هذا عنك ؟ فيقول : نعم ! فيأخذونه وما يراه[1] .

وشبيه بهذا ما يروى عن « مالك » نفسه : أن شيخه « يحيى بن سعيد الأنصارى المدنى » — فى القرن الثانى الهجرى — حين خرج إلى العراق قال له : التقط لى مائة حديث من حديث « ابن شهاب » ، أرويها عنك . فكتبها « مالك » ثم دفعها إلى « يحيى » ، فقال له : أرويها عنك ؟ قال نعم . فقيل « لمالك » فسمعها منك ؟ قال: كان أفقه من ذلك[2] .

وهو إسراف غريب فى الاعتماد على الكتابة والثقة بها ، لو ضممته إلى ما يخبر به من أن طريقة التعليم فى المدينة لذلك العهد ، كانت القراءة كما يقرأ الصبى على المعلم ، لوسعك الانتهاء إلى تقرير الاعتماد على الكتابة كل الاعتماد.

---

(١) الذهبي : (التذكرة) ١ / ١٠٦

(٢) (ترتيب المدارك) ١/٢٣، ٢٩ وجه (د)

لـكنك تجد بإزاء هذا أنه لم يكن « للزهرى » كتاب إلا كتاب فى نسب قومه إلى قريش[١] . وأنه هلك فلم يترك كتاباً[٢] . كما تجد « مالـكا » يصف تلقيه عنه فيقول : أقل ذلك العرض[٣] أى القراءة على الشيخ. كما أنه حين نفى أن « لابن شهاب » كتاباً ، أو أنه ترك كتاباً ، سأله « ابن وهب » ـ وقالت الرواية : إنه سأله يريد أن يخصمه ، ويقيم عليه الحجة ـ سأله : ما كنت تكتب ؟! فقال « مالك » : « لا[٤] » .

وتنقل الرواية عن « أشهب » تلميـذه أيضاً قوله : عاب « مالك » الـكتابة للعلم ، وقال : « لم أدرك أحداً يفعله ، إنما كانوا يحفظون[٥] » . وتجـد قول « مالك » أيضاً : « ما كتبت عن أحد كتاباً على وجهه ، إلا عن العـلاء »[٦] . وهو صاحب الصحيفة التى أشرنا إليها سابقاً فى المدينة . كما يقول « مالك »: «ما كتبت فى هذه الألواح قط»[٧] . ويصف تلقيه عن « الزهرى » فيقول : « كنت أجلس إلى « ابن شهاب » ، ومعى خيط فإذا حدث عقدت، ثم رجعت إلى البيت...» يعنى فـكتبت، ويروى أنه

(١) ابن عبد البر : (القصد والأمم) ـ ص ٤٤
(٢) الذهبي : (التذكرة) ١ / ١٠٥
(٣) (ترتيب المدارك) ١ / ورقة ١٩ وجه د .
(٤) الذهبي : (التذكرة) ١ / ١٠٥
(٥) (ترتيب المدارك) ١ / ورقة ٢٩ ظهر ـ د
(٦) (ترتيب المدارك) ١ / ورقة ١٩ وجه ـ د
(٧) المصدر السابق نفسه

مرة ، سمع من « ابن شهاب » ثلاثين حديثاً وعقـدها ، فنسى منها واحداً ، فسأل « ابن شهاب » الإعادة . فقال له : ألم تـكن فى المجلس ؟ فقال : بلى، قال : فمالك لم تحفظ ؟ قال : ثلاثون ، إنمـا ذهب عنى منها واحد ، فقال له : لقد ذهب حفظ الناس ؛ ما استودعت قلبي شيئا قط فنسيته[1] . فـكأنما الأمر كله للحفظ والسماع ، والـكتابة مستبعدة أو مكروهة .

تلك روايات متدافعة ، ليس من اليسير أن توفق بينها ، إلا بكثير من التساهل وعدم الدقة ، وهى متجاورة قد تلقـاك فى الصفحة الواحدة من الـكتاب؛ أو متفرقة تلقاك فى كتب ، هى مصادر أمهات موثوق بها . والروايات بتراء ليس لهـا أسانيد ، حتى نجد فيها بعض المنفذ للتخلص من شىء منها أو تأخيره ، على أنك لو مضيت تنقدها واحدة واحدة لآدك ذلك وأضاع وقتك، فـكيف يصنع المؤرخ ، حينما يحاول أن يكتب « لمـالك » ترجمة محررة ، وأمامه هذا الخليط ؟ .

إنه ليجد بعض هذه الأخبار مكرراً فى حياة أشخاص آخرين، أو بصور مختلفة فى حياة الشخص الواحد : كشـكوى الزوجة من الـكتب ، وحفظ الـكثير ونسيان القليل ، وما إلى ذلك . ويذكر مع هذا ما أسلفنا من رغبة أصحاب المناقب والفضائل فى الثناء والمدح ... يذكر ذلك وغيره، فينظر فى حذر

(١) (ترتيب المدارك) ١/ورقة ١٩ــ ظهر ــدــ وهذه العبارة تنسب لغير واحد من الحفاظ .

إلى هذه المرويات مهما ينقلها رجال كبار فضلاء ..

ثم انظر فيما نحن فيه، تر أن هذا «الزهرى» كان فيما يصفونه أعمش[1]، فهل نتهم بهذا العمش ميله للكتابة أو مقدرته عليها ؟ وأنه هلك ولم يترك كتابا ؟ أو هل نرجح ما تشعر أن روح العصر تتجه إليه ، وهو الميل إلى التدوين الكتابى ، ذلك الميل الذى أيده الخلفاء ، وطلب الخليفة « عمر بن عبد العزيز » إلى هذا « الزهرى » ـ فيما يُرْوَى ـ أن يدون الحديث ؟

لك أن ترى من هذا ما تكون أكثر اطمئنانا إليه بعدما وضعت بين يديك كل ما وجدت .

***

كيفما كانت الحال ، فقد أصاب « مالك » ، من علم « ابن شهاب » كثيراً ، ظهر فى أحاديثه عنه فى [الموطأ][2] وليس ببعيد أن يكون قد أصاب من ثقافته الأدبية ، التى تحدثوا عن سعتها ، فقد تصدى « مالك » فيما بعد لتفسير غريب القرآن . وتكلم فى غريب الحديث بل قالوا : هو أول من تكلم فيه[3] . وحدث «الأصمعى» عنه ، فى بيان لغوى[4]

---

(١) الذهبى: (التذكرة) ١ / ١٠٥

(٢) جعله السيوطى أول ثبت أسماء من روى عنهم مالك (تزيين) ص ٤٨ ـ ـ .
وقال ابن عبد البر فى (التجريد) ـ ١١٦ ـ روى عنه مائة واثنين وثلاثين حديثا منها ٩٢ مسندة وسائرها منقطع . وقال السيوطى (تزيين) ٤٨ ـ إنها مائة حديث منها سبعة عشر اختلفوا فيها ، وتسعة مرسلة ، وثلاثة موقوفة .

(٣ و ٤) (ترتيب المدارك) ١ / ورقة ١٢ وجه ـ د ـ

ولنا عودة إلى مكانة « مالك » فى اللغة وعلوم العربية ، حينما نحاول وصف شخصيته العلمية .

* * *

ومما يعنينا أن نلمح فى سلوك « ابن شهاب » وعاداته ، مظاهر لعلها تنير سبيلنا ، إلى فهم ذلك من التلميذ - وقد كان « ابن شهاب » يأنس إلى خلفاء الأمويين : الذين ذكرناهم قريباً ، كان يجالس هشاماً ، ويؤدب ولده ، كما رأينا «يزيد» يستقضيه، وكان هؤلاء الخلفاء يصلونه ، ويقضون دينه ، ومما أدّى عنه «هشام» فى مرة، سبعةُ آلاف دينار[1] . وقد عيب الشيخ بالدَّين ، ووجه بهذا العيب فى حياته[2] وكان فيما يقولون : من أسخى الناس ، لم يكن الدينار والدرهم ، عند أحد أهون منه عند « الزهرى[3] » .

وقد نلمح لهذا أو بعضه ، مظاهر تشابه ، أو تأثر فى « مالك » ، على ما سيلى بعد .

---

(١) (شذرات الذهب) ١ / ١٦٢ ؛ (وتذكرة الحفاظ للذهبي) ١ / ١٠٣

(٢) (التذكرة) ١ / ١٠٥

(٣) (شذرات الذهب) ١ / ١٦٢ ؛ (وتذكرة الحفاظ للذهبى) ١ / ١٠٣

(٥)

وممن قويت صلة «مالك» به « نافع بن سرجس » أبو عبد الله الديلمى مولى «عبد الله بن عمر» ، المتوفى سنة ١١٧ هـ أو ١٢٠ هـ . خدم « ابنَ عمر » ثلاثين سنة ونقل عنه علماً كثيراً ؛ وللمصريين «بنافع» هذا صلة خاصة ؛ إذ بعثه إليهم «عمر بن عبد العزيز» ليعلمهم السنن[١] . وهو محدث ثقة ، لقبوه الإمام العَلَمَ[٢] وأكبروا من صلة «مالك» به ، فقالوا: أصح الأسانيد: «مالك» عن نافع عن ابن عمر ؛ وحين يتصل الشافعى بهذه السلسلة ، تسمى سلسلة الذهب[٣] .

هـذا « نافع » المحدث ؛ وهو كذلك يوصف بفقيه المدينة[٤] ويعده «ابن حزم» من أهل الفتيا فيها[٥] . وقد لازمه «مالك» ملازمة خاصة حريصة ؛ فقد سمعنا قريباً أنه كان يأتيه ، وما تظله الشجر من الشمس ؛ وكان يترصد دخوله وخروجه ليسأله[٦] ... وقد اتصل به مبكراً ، إذ يقول: كنت آتى «نافعاً» مولى ابن عمر ، وأنا يومئذ غلام ؛ ومعى غلام لى ، فينزل إلىّ من درجة له ....

(١) (التذكرة) ١ / ٩٤

(٢) المصدر السابق

(٣) ابن خلكان : (الوفيات) ٢ / ١٩٨ ط بولاق

(٤) (شذرات الذهب) ١ / ١٥٤ .

(٥) (الاحكام) ٥ / ٩٦ ؛ ولم يعده الشيرازى فى طبقاته

(٦) (ترتيب المدارك) ١ / ورقة ١٩ وجه — د —

فيقعدنى معه، فيحدثنى[1]. ولما كف بصر «نافع» كان «مالك» يقوده من منزله، إلى المسجد، فيسأله ويحدثه. وكان منزل «نافع» بناحية البقيع[2]، وأقرب بقيع إلى «المدينة» على بعد ميلين منها[3]. أى نحو أربعة كيلومترات؛ يقود فيها الفتى أستاذه الضرير، يسأله فيحدثه. كل هذا مع تقدير طيب عرف عن مالك له؛ إذ يقول: كنت إذا سمعت حديث «نافع» عن «ابن عمر» لا أبالى ألا أسمعه من أحد غيره[4]، وبذلك أصاب «مالك» عن «نافع» سنة وفقها؛ وأورد له فى [الموطأ] ثمانين حديثاً أو أكثر؛ على الخلاف[5] ولا تحدثنا الرواية هنا بشىء عن طريق تلقى مالك عن نافع؛ كالذى كان فى «ابن شهاب» وكتابته!!

* * *

كيف تبرز الأخبار لنا شخصية «نافع» الذى لازمه «مالك» ملازمة غير قصيرة؟..

تلك هى شخصيته بعبارات الأخبار: ديلمى، فيه لكنة.. كان يجلس بعد الصبح فى المسجد لا يكاد يأتيه أحد، فإذا طلعت الشمس قام... لا يفتى فى حياة سيده «سالم بن عبدالله بن عمر».. يأتيه «الزهرى» فيحدثه «نافع» عن

---

(١) ترتيب المدرك: ١ / ورقة ١٩ — وجه — (د)

(٢) المصدر السابق نفسه

(٣) ياقوت: (معجم البلدان) ٦ / ١٩٩

(٤) ابن خلكان: (الوفيات) ٢ / ١٩٨ والسيوطى (إسعاف) ص ٢١٦

(٥) يعدها ابن عبد البر فى (التجريد) — ص ١٧٠ — ثمانين حديثا. ويعدها السيوطى فى (التزيين) — ص ٤٨ — ستة وثمانين، اختلفو فى أحد عشر منها!

«ابن عمر» . ثم يذهب «الزهرى» بعد ذلك إلى «سالم» ابن ابن عمر ، فيقول : سمعتَ هذا من أبيك ؟ فيقول له : نعم . فيحدث «الزهرى» عن «سالم» ، ويدع «نافعاً» مع أن السياق من عند «نافع» . .

وكان «نافع» لا يكلم أحداً ، يقولون عنه بنص عبارتهم : كان صَغير النفس[1] .. ولا أتحكم فى تحديد معنى صغر النفس هذا عندهم ، بل حسبى أن أقول إن هذه الأوصاف : من لكنة ، وانفضاض طلبة ، وعزلة ، وصغر نفس ، وتقدير مهاون من الأنداد ، ربما لا تعطى «مالكا» قدوة صالحة رغم ما قد قيل ـ وربما لم يُقل إلا أخيراً فقط ـ من الإمامة ، والحفظ ، والعَلَمية فيه !!!

---

(١) الذهبي : (تذكرة الحفاظ) ـ ١/ ٩٤ .

(٦)

وممن اختلف إليهم «مالك» زمانا[١] «جعفر الصادق» ابن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب المدني ـ ت ١٤٨ هـ ـ .

أحد الأئمة الاثني عشر على مذهب الإمامية ، ويعد من سادات أهل البيت، وعبّاد تابعي التابعين، وعلماء أهل «المدينة»[٢]. وينسب له مع علم الدين، أن له كلاما في صنعة الكيمياء ، والزجر ، والفأل ، و « جابر بن حيان » الصوفي الطرسوسي رأس الصنعة في الإسلام، كان تلميذا «لجعفر» هذا؛ ويذكر أن «جابرا» وضع كتابا يشتمل على ألف ورقة، جمع فيه خمسمائة رسالة لأستاذه «جعفر الصادق»[٣] .

وإلى «جعفر» تنسب الشيعة كتاب « الجفر » الذي فيه كل ما يحتاجون لعلمه إلى يوم القيامة ؛ وكان بالمغرب يتوارثه بنو عبد المؤمن[٤] . وكثيرا ما تكذب الشيعة على «جعفر» هذا[٥] ؛ وتصوره صورة يقربها لنا ما سمعنا من أمر الجفر ، والزجر ، والفأل ، والكيمياء وغيرها ؛ ولا نقف طويلا أمام هذه

---

(١) الزواوي : (مناقب مالك) ص ٣٤
(٢) السيوطي : (اسعاف المبطأ) ص ١٨٦
(٣) ابن خلكان : (وفيات الأعيان) ١ / ١٣٠
(٤) عباس القمي : (سفينة بحار الأنوار) ٢/ ٢٠ ط النجف
(٥) ابن عبد البر : (تجريد التمهيد) ص ٢٤

الصورة لنتبين ملامح الزيف فيها ، أو معالم الصدق ؛ وإنما يعنينا من الأمر ما يتأثر به «مالك» من الاتصال بأحد الأئمة الاثنى عشر، وبزعيم شيعى عظيم، مهما نجرده مما أضفت عليه شيعته من زيادات ، فلو لم يكن كيماويا له خمسمائة رسالة دونها «جابر بن حيان» الكيماوى الشهير؛ ولولم يكن عالما بالزجر والفأل، ولا عنده خبر العالم وحال الدنيا إلى يوم القيامة ؛ فهو وراء ذلك كله رأسٌ فى فرقة وجهت الحياة الإسلامية ، وأثرت فى التاريخ الإسلامى منذ ظهر الإسلام إلى اليوم ؛ ووقفت فى الطرف المقابل لجماعة السنة ، التى يعد مالك علما من أعلامها .

لاتصال «مالك» «بجعفر الصادق» آثار، يجب أن نلتمسها فى نواحى عدة من شخصية «مالك» : نلتمسها فى شخصية «مالك» العلمية من حيث هو محدث كبير، ورأس فى فقه الحديث ؛ ونلتمسها فى شخصية «مالك» الاجتماعية، من حيث هو رجل بارز فى المجتمع الإسلامى لعهده ، قد اتصل برجال الحكم ، وسعوا هم للاتصال به ؛ كما نلتمسها فى خلقية «مالك» من حيث هو طالب يجد فى أستاذه القدوة المتبعة ، والأسوة المقلدة ؛ ونشير هنا إلى هذه الآثار فى إجمال ، مؤخرين تفصيلها إلى مكانه من وصف شخصية «مالك» ، بعد الفراغ من معرفة عناصر تكوينها .

على أنا حين نذكر صلة «مالك» بالتشيع ، تلوح لنا اعتبارات في شخصية «الصادق» ، وفي نظر العصر إلى التشيع لا بد لنا من تقديرها . فأما في شخصية «الصادق» فذلك ، أن أمه هي أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق» وأم أمه هي أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق » ؛ فلهذا كان يقول : ولدني أبو بكر مرتين[(١)] ومن يفخر، بل من يذكر ولادة «أبي بكر» إياه مرتين، لا ينظر إليه على أنه شيعي عادي ؛ لما نعرفه من نظر الشيعة وقولهم في أبي بكر .

ثم إن « الصادق » ـ كما تشهد حياته ـ مسالم أو مسرف في المسالمة : يقعد عن نصرة قومـه ، فقد خرج ابن عمه « محمد بن عبد الله ابن حسين » بالمدينة ؛ فهرب هو حتى قُتل « محمد » ؛ فلما قتل واطمأن الناس وأمنوا ، رجع إلى المدينة[(٢)] ، وذلك أقصى المسالمة ، أو هو يصل إلى شيء وراء المسالمة قد ينتقد . . .

تلك شخصية «الصادق» الإمام الاثني عشري، الذي اتصل به «مالك» ؛ وأما نظرة العصر إلى التشيع، ولا سيما نظرة العلماء، فلعلها كانت نظرة هادئة قليلة الحدة ، فلم يكونوا يتحرجون إذ ذاك من الأخذ والرواية عن علماء الشيعة ؛ فتقرأ مثلا أن «شعبة» و«الثوري» قد حملا عن «سلمة بن كهيل الكوفي» ـ ت ١٢١ هـ ـ من أثبات الشيعة[(٣)] . وأن «مسلماً» والأربعة قد خرجوا لـ«أبان بن تغلب الكوفي» ـ ت ١٤١ هـ ـ وهو غال في التشيع، حتى قال «الجوزجاني» : زائغ مذموم المذهب.

(١، ٢) ابن خلكان: (الوفيات) ١/١٣٠ وابن عبد البر: (تمهيد التجريد) ص ٢٤
(٣) ابن العماد : (الشذرات) ١/١٠٩

ولـكنه ثقة معروف، وثّقه «أحمد» و«ابن معين» و«أبو حاتم»[١]

فعلى ضوء هذا من شخصية «الصادق»، ونظرة الناس إذ ذاك للتشيع يُقدّر اتصال «مالك» «بجعفر بن محمد» الإمام، صاحب المركز المعروف عند الشيعة ..

* * *

أخذ « مالك » الحديث عن « جعفر » وأخرج له فى [موطئه] تسعة أحاديث ، منهـــا خمسة متصلة مسندة أصلها حديث واحد ، والأربعة منقطعة[٢] ، و«جعفر» لم يسلم عند نقاد الحديث من القول فيه ، «فالبخارى» لم يحتج به ، وقال « يحيى بن سـعيد » : فى نفسى منه شىء[٣] .

وقد نقل إلينا ما يفيـــد أن « مالـكا » كان يراعى هذا ، إذ قيل أنه لا يروى عن جعفر حتى يضمه إلى أحد[٤] .. لـكنى راجعت سند ما رواه عنه فى [الموطأ] فلم أره ضم إلى «جعفر» أحداً فيه ! !

تلك شخصية جعفر العلمية فى نظر أهـل السنة ، رغم ما نسجت الشيعة حوله ؛ وهذا مظهر اتصال « مالك » العلمى به .

* * *

ومركز «جعفر» الاجتماعى ، يجعل للمتصل به صفة سياسية خاصة، وسنقدر هذا حينما نعرض بعد لشخصية « مالك » السياسية ، وحسبنا أن نلفت النظر

---

(١) ابن العماد : (الشذرات) ٢١٠/١

(٢) ابن عبد البر : (التمهيد) ص ٢٤

(٣و٤) الذهبي : (ميزان الاعتدال) ١ /١٩٢

هنا إلى هذه الناحية إجمالا ، ونضع إلى جانبها خبراً، ينم عن احتياط «مالك» احتياطاً سياسياًفي روايته عن «الصادق» ، ذلك أنه يُنقل : أن «مالـكا» لم يرو عن جعفر حتى ظهر أمر بنى العباس[٥]. ومعنى ذلك خشيته الاتصال به قبل ذلك أيام الأمويين ، ولا يبدو لنـا سبيل قريب للتحقق من تمام صحة هذه الدعوى أو اتهامها ، فإن صحت ـ ولا بعد فيها على شخصية مالك ـ فهى تقية سياسية تريناأسلوب «مالك» فى الحياة ، والصلة بالحكام، والنزعات السياسية.

وخلقية « الصادق » من حيث هو أحد أشياخ « مالك » يُتوقع أن يكون لها أثر على التلميذ ، و«مالك» نفسه يحدثنا عن هذه الخلقية، فيُروى عنه قوله : كنت أرى « جعفر بن محمـد » وكان كثير الدعابة والتبسم ، فإذا ذكر عنده النبي صلى الله عليه وسلم اخضر واصفر ، ولقد اختلفت إليه زماناً، فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال : إما مصلياً ، وإما صائماً ، وإما يقرأ القرآن ، وما رأيته قط يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا على الطهارة ، ولا يتـكلم فيما لا يعنيه ، وكان من العلماء ، والعباد ، والزهاد الذين يخشون الله ، وما أتيته قط إلا ويخرج الوسادة من تحته ، ويجعلها تحتى[١].

و«مالك» نفسه هو الذى يحدثنا عن تأثره بهذه الأسوة ، إذ يصعب على

---

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) القاضى عياض : (ترتيب المدارك) ١ / ٣٣ وجه ـ د . والزواوى : (مناقب مالك) ص٣٣ ، ٣٤ مع تغاير فى بعض الألفاظ وتقديم وتأخير .

جلسائه ما يرونه من تغير لونه واصفراره إذا ذكر النبى صلى الله عليه وسلم ويقولون له فى ذلك فيقول: لو رأيتم ما رأيت لما أنكرتم على ما ترون؛ ويذكر لهم حال «ابن المنكدر» الآتى ذكره، ويعقب عليه بحال «جعفر» هذه التى وصفها[1].

ومن أجل هذا التأثر، ما عرضنا له من ذكر جعفر الصادق بين أساتذة «مالك».

---

(١) الزواوى: (مناقب) ص ٣٣

(٧)

أولئك هم المشهورون ممن لازمهم «مالك» واتصل بهم ، ووراء هؤلاء من أشياخه ، ناس ربما لا تكون لهم منه هذه الملازمة ، ولكن «لمالك» نفسه من الرأى فيهم ، وحسن التقدير لهم ، ما يلفت نظر المترجم له . .

كما أن هناك آخرين، فى شخصياتهم معانٍ لا بد لمتفهم «مالك» ومصوره من الوقوف عندها . .

فمن الصنف الأول ، الذى نقل فيه رأىٌ حسن لمالك : **محمد بن المنكدر** بن الهدير التيمى القرشى» المتوفى ١٣٠ أو ١٣١ هـ ـ من أسرة متفقهة. كان عمه «ربيعة بن المنكدر» من فقهاء الحجاز ، وأخواه «أبو بكر وعمر» فقيهان ، بل لهم موالٍ فقهاء أيضاً ، «كالماجشون ، يعقوب الفقيه » وابنه ، و« ربيعة الرأى » السابق ذكره[1] .

و « محمد » هذا من فقهاء المدينة[2] ، وهو إلى ذلك محدث ، كان من معادن الصدق، وكان قارئاً يعد سيد القراء. وهو وراء ذلك كله، زاهد عابد، يعد فى طبقاتهم[3] ،متقدم فى العلم والعمل . يقول : كابدت نفسى أربعين سنة حتى

---

(١) ابن قتيبة : (المعارف) ١٥٩

(٢) عده البخارى منهم فى (التاريخ الصغير) ص ١٤٥ ط الهند ، وابن حزم فى «الإحكام» ٩٦/٥ .

(٣) الشعرانى : (الطبقات الكبرى) ١ /٣٢ ط الشرفية ١٣١٥ .

استقامت . وكان لا يكاد أحد يسأله عن حديث إلا بكى[١] .

أخذ « مالك » ، عن «ابن المنكدر» هذا علما ، وعُد فى رجال [موطئه] وله بضعة من الأحاديث . ولكن الأهم من ذلك كله ، أن « مالكا » كان فيما يروى عنه ، قوى التأثر بشخصيته الزاهدة إذ يقول : كنت إذا وجدت من قلبي قسوة آتى « ابن المنكدر » ، فأنظر إليه نظرة ، فأبغض نفسى أياما[٢] .

ولا ندع الحديث عن زهد « ابن المنكدر » البكّاء ، قبل أن نلفت النظر إلى معنى إنسانى فى هذا الزهد المدنى المتقدم .

إذ يُسأل « ابن المنكدر » : أى الأعمال أفضل ؟ فيقول : إدخال السرور على المؤمن . و يسأل : أى الدنيا أحب إليك ؟ فيقول : الإفضال على الإخوان[٣] .

هذا الجمع بين البكاء، واعتبار إدخال السرور على المؤمن أفضل الأعمال، جمع ينم عن حس سليم ، شديد التأثر ، عميق الغور .

---

(١) الذهبي : (تذكرة الحفاظ) ١/١٢٠ بتصرف يسير جدا ، ومثله فى (ترتيب المدارك) ١/ ورقة ٣٣ وجه د

(٢) ابن العماد : (شذرات الذهب) ١٧٨/١ ، (وترتيب المدارك) ١ / ورقة ٣٣ ظهر د . وقد ورد فيها : « فأتعظ بنفسى أياما » بدل فأبغض نفسى

(٣) المعارف ص ١٥٩

(٨)

وفى جو السرور المدنى ، قد حفه الفقه والزهد ، تلوح لنا شخصية « أبى عامر عروة بن أذينة » وأذينة لقب أبيه « يحيى بن مالك » ؛ و« عروة » قرشى مدنى ؛ معدود فى الفقهاء والمحدثين[١] ، موصوف بأنه ثقة ثَبت[٢] ؛ على أنه مع ذلك ؛ شاعر غزِل ، مقدم من شعراء أهل المدينة ؛ بل تذكر له كذلك صنعة فى الغناء ؛ فهو الشاعر القائل :

يادِيار الحى بالأجمة لم تبين دارها كلمه

ثم هو صاحب الصنعة الذى وضع لحن هذا الشعر بنفسه[٣] . . .

تذكر رواية «الإمام مالك» عنه[٤] ، وتُخَص بالفقه[٥] . ولكنى مع هذا لم أجد اسمه فى مصادر عدت رجال «مالك» فى الحديث[٦] . وربما كان ذلك أثر شاعريته وصنعته؛ فقد كان شعره الغزلى، مما جعل نساء عصره يتهمن صلاحه وتقواه ،حتى وقفت عليه «سكينة بنت الحسين» فى موكبها ، ومعها جواريها ،

---

(١) (الأغانى) — ٢١ / ١٠٥ ط الساسى

(٢) (المعارف) ص ١٦٨

(٣) المصدر السابق ص ١٦٩

(٤) (الأغانى والمعارف) فى الموضعين السابقين

(٥) (المعارف) ص ١٦٨

(٦) لم أجده فى (التجريد) ولا (الاسعاف) ولا (التزيين) ، بل لم أجده فى (تذكرة الحفاظ)

فقالت : يا أبا عامر ، أنت الذى تزعم أن لك مروءة ، وأن غزلك من وراء عفة ، وأنك تقى ! ؟ قال : نعم ، قالت : أفأنت الذى تقول : ؟

قالت، وأبثثتها وجدى ، فبحت به: قد كنت عندى تحب الستر، فاستتر
ألست تبصر من حولى ؟ فقلت لها : غطى هواك ، وما ألقى ، على بصرى

قال لها : بلى ، قالت : هن حرائر ، إن كان هذا خرج من قلب سليم . ـ أو قالت : من قلب صحيح ـ

كما أن امرأة مرّت به وهو بفناء داره فقالت له : أأنت « ابن أذينة » ؟ قال : نعم ؛ قالت : أأنت الذى يقول الناس إنك امرؤ صالح ، وأنت الذى تقول ؟ :

إذا وجدت أوار الحب فى كبدى عمدت نحو سقاء القوم أبترد
هبنى ، بردت ببرد الماء ظاهره فمن لحرّ على الأحشاء يتقد ! ؟ [1]

وتزيد رواية [2] أنها قالت له : والله ما قال هذا رجل صالح قط . . .

ستكون هذه الأستاذية ، مع حال البيئة العامة ، مما نرجع إليه ونقدر أثره عند عرض جوانب الشخصية المختلفة « لمالك » الرجل بعد .

---

(١) (الأغانى) ـ ٢١ / ١٠٨ ، ١٠٩ ـ ساسى
(٢) رواية ابن قتيبة (فى المعارف) ص ١٦٩

(٩)

وما نشك فى أن فتانا ، قد تأثر بكثيرين من أساتذته غير هؤلاء ، فإنك تجد فى ثنايا الأخبار حسن تقديره لرجال منهم ؛ فهذا « عمارة بن عبد الله بن صياد المدنى » كان « مالك » لا يقدم عليه أحداً فى الفضل ! [١]

و « إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة الأنصارى » الفقيه ، المدنى ــ ت ١٣٢ أو ١٣٤ هـ ــ كان « مالك » لا يقدم عليه أحداً لنبله عنده [٢]

فبين يدى هؤلاء الذين ذكرنا من الأساتذة ، وغيرهم من العلماء فى الحجاز ، خطا الفتى متكملا حتى كان للتاريخ منه مالك الشاب .

---

(١) (المعارف) ــ ١٦٦

(٢) (شذرات الذهب) ١ / ١٨٩

مالك الشاب

١ ، ٢ — رحلته

(١)

ينضج عقله وخلقه ، ويتقدم لمواجهة الحياة رويداً رويدا ، واحتمال نصيبه فيها ، على أنا حين نلمح هذا الفتى الطويل الجسيم ، الذى أنشأ يفتل سبلتى شاربه[١] ، وقد نهل من علم « المدينة » وعلّ ؛ نريد لنعرف ، هل تحدثه نفسه برحلة إلى ما وراء الحجاز من أقطار الإمبراطورية الإسلامية الفسيحة ، التى صارت إليها الوصاية على الحضارة الإنسانية والميراث العقلى ؟ أيفكر الشاب « مالك » فى أن يسافر فى بعثة علمية إلى خارج الحجاز ؟

لقد كانت الرحلة فى طلب العلم خطة معروفة ؛ وما زلنا نسمع التحريض عليها من أفواه كرام الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ ومن الخالفين بعدهم من الرجال .. بل يحدثنا «مالك» نفسه، بالواسطة عن «سعيد بن المسيب» بقوله : إن كنت لأسير الليالى والأيام ، فى طلب الحديث الواحد[٢] .

لقد حُدثنا ، أن الشاب روى عن رجال من غير أهل « المدينة » ؛ « كأبى الزبير المكى محمد بن تَدْرُس » ـ ت سنة ١٢٨ هـ ـ القرشى مولاهم ؛ ولعله روى عنه فى إحدى حجاته إلى « مكة » فقد حج أكثر من مرة[٣]

---

(١) (الديباج المذهب) ــ ١٨

(٢) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ــ مختصر المحمصانى ــ ٤٧

(٣) (الديباج المذهب) ــ ٢١

وفى حجته الثالثة ، روى عن « أيوب بن أبى تميمة السختيانى » من علماء البصرة[١] . . وقد روى عن آخرين غير حجازيين ، « كعطاء بن عبد الله » من أهل خراسان ؛ وغيره من أهل الشام والجزيرة[٢] . فهل لقى هؤلاء وأمثالهم فى الحجاز ؟ جاءوه حاجين أو زوارا ؟ أوخرج هو راحلا إلى بعض بلادهم ؟

لم أعثر على خبر رحلة له إلى خارج الحجاز ، أيام طلبه العلم ؛ ولا بعد هذا العهد ؛ إلا أن تكون عبارات مشتبهة ؛ كقول « ابن خلكان[٣] » : لما قدم « مالك » ، على « أبى جعفر المنصور » ، سأله : من بقى بالمدينة من المشيخة ؟ فقال : فلان وفلان . . فأين قدم عليه ؟ . أو مثل قوله[٤] : إن « أبا جعفر المنصور » استدعى « عبد الله بن طاوس » ، « ومالك بن أنس » ؛ فإلى أين استدعاه ؟ . . جائز أن يكون قدومه عليه ، واستدعاؤه له بالحجاز ، فى مرة من المرات التى حج فيها « المنصور » .

وهكذا لا نجد خبراً صريحاً ، لرحلة « مالك » إلى خارج الحجاز فى عهد من عهود حياته ؟ . . اللهم إلا أن يكون قول « أبى الفلاح بن العماد الحنبلى »

---

(١) الديباج المذهب : ٢١

(٢) السيوطى (تنوير الحوالك) ١ / ١٠

(٣) (الوفيات) ١ / ٥٧٤ ط بولاق

(٤) (الوفيات) ـ ١ / ٢٩٢

ـ ت ١٠٨٩ هـ ـ فى (الشذرات[1]) ، فى محنة مالك ما نصه : وقيـل حمل إلى بغداد ، وقال له واليها: ما تقول فى كذا وكذا ؟ الخ وما نصه : «فطيف به على ثور مشوها فكان يرفع القذر عن وجهه و يقول : يا أهل بغداد » : الخ

و روايته (حمل مالك إلى بغداد) (وطيف به فيها)غريبة لم أرها لغيره ..

و « مالك » على كل حال قد رفض عرض خلفاء العباسيين عليه أكثر من مرة ، أن يسافر معهم إلى بغـداد ، إذ كان من خطتهم أن يحملوا من علماء الحجاز ، من يستقضونه بالعراق ، أو يستنزلونه هناك ، استظهاراً بهم ، وتأييداً لمركزهم السياسى ؛ وقد حدثتنا الرواية ، أنه فى مذاكرة وكلام ، بين « المنصور » و « مالك » ؛ كان ممـا قال له « المنصور » « . . ولـكن إن أردت ما عندنا ، فاذهب معى إلى مدينة السلام ؛ فلا أقدم أحداً عليك » أو نحو هـذا ؛ فقال له « مالك » : « إن تـكن عزيمةً من أمير المؤمنين ، فلا سبيل إلى مخالفته ؛ و إن تـكن غير ذلك ، فقد قال « رسول الله صلى الله عليه وسـلم » : والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » فقال له « المنصور » : فلا أحمل عليك شيئاً تـكرهه[2] .

و يتكرر هذا العرض ، لما قدم « المهدى » المدينة ، فبعث إلى « مالك »

---

(١) الشذرات : ١ / ٢٩٢

(٢) الزواوى : مناقب مالك ٢٣ ، ٢٤

بألفى دينار ، أو بثلاثة آلاف مع « الربيع » فلما خرج من عنده ، قال : « يا جارية لا تمسى هذا المال ، فإنى تفرست ، حين نظرت وجه « الربيع » ورأيت فيه أمراً منكرا ، ولهذا المال سبب » ؛ فلما حج « المهدى » وقدم المدينة ، أتى « الربيع » « مالكا » بعد ذلك ، فقال له : أمير المؤمنين يقرئك السلام ويحب أن تعادله — أى يركب فى السفر عديلا له — إلى مدينة السلام ؛ فقال له « مالك » : أقرئ أمير المؤمنين السلام ؛ وقل له : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » ؛ والمال عندى على حاله ؛ أخرجيه يا جارية . . الخ القصة[1] .

وقد تذكر القصة مع « الرشيد » بعد ذلك ، بصيغة : أن أمير المؤمنين ، يحب أن يرسل « مالكا » إلى مدينة السلام[2] ، وقد تروى دون تسمية الخليفة[3] . وتنتهى فى كل حال بقول « مالك » : « والمدينة خير لهم لو يعلمون » .

---

(١) (ترتيب المدارك) — ١ / آخر ورقة ٤٠ — ظهر — وأول ٤١ وجه

(٢) (الزواوى) : (مناقب مالك) — ٢٩ ، ٣٠

(٣) السيوطى (تزيين الممالك) — ١٢

(٢)

لعل رفض « مالك » الرجل فيما بعد ، الانتقال إلى مدينة السلام ليقيم هناك ، له أسبابه ؛ ولكن ، ترى ما الذى هون رغبة الشاب أيام الطلب فى الرحلة ؟ . . أتقديره أن الحجاز مثابة للمسلمين ؛ لله عليهم حج البيت ، من استطاع إليه سبيلا ؛ فعلماؤهم يفدون إلى الحجاز ، وهناك يلقاهم ؟ . . أم أنه كان يرى المدينة ، قد ذهبت من العلم بما استغنت به عن غيرها من البلدان ؛ فلا حاجة بابنها إلى الرحلة لغيرها ؟

قد نرى شواهد لهذه الفكرة ؛ فى بعث « عبد العزيز بن مروان » الأموى ، ابنه « عمر » إلى المدينة ليتأدب بها[1] وفيما نسمع من قول القائل لهذا الحين : خرجْت إلى المدينة أطلب العلم والشرف[2] . وفيما يُفهم منه أنها كانت قصد الراحل فى طلب الحديث ، حين يقول « الشعبى » لمن حدثه: أعطيتكه بغير شىء ، وإن كان الراكب ليركب إلى المدينة فيما دونه[3] .

وهنا نجد من أقوالهم ما يجعلون به العلم حظ الحجاز وأهله ؛ وينسب ذلك إلى « مالك » نفسه ؛ فهو القائل فيما يروى[4] . . أما أهل العراق ،

---

(١) ابن الاثير : (الكامل) ٥ / ٢٣ ط مصر

(٢) ابن عبد البر (جامع بيان العلم) مختصره — ٤٧

(٣) المصدر السابق نفسه

(٤) الزواوى : (مناقب الامام مالك) — ٢٤

فأهل كذب ، وباطل وزور ؛ وأما أهل الشام فأهل جهاد ، ليس عندهم كبير علم ؛ وأما أهل الحجاز ففيهم بقية العلم . . .

بل تجعل الرواية من يعترف لغيرهم بشيء من العلم ، يقدم علم المدينة ؛ فيُسأل « عبد الرحمن بن مهدى » ـ ت ١٩٨ هـ ـ وهو عراقى بصرى : أىّ الحديث أصح ؟ فيقول : حديث أهل الحجاز ، قيل ثم من ؟ قال حديث أهل البصرة ؛ قيل ، ثم من ؟ قال حديث أهل الكوفة ؛ قالوا فالشام ؟ فنفض يده[1] .

تلك أخبار لا نناقشها هنا ، وإنما نكتفى بما فيها من تصوير لما يفهم ، من رأى أهل المدينة فى بلدهم ، وهو ذلك الرأى الذى ظهر أثره ، فى أصول مذهب « مالك » ، من حيث الاحتجاج بعمل أهل المدينة ـ على ما سنتناوله ـ ونظن أنه كان لهذا الرأى ، أثر فى تقليل رغبة الشاب « مالك » فى الرحلة إلى الخارج .

بعض هذه الأسباب السابقة ، أو هذه الأسباب كلها مجتمعة ، يمكن أن تكون هى التى جعلت « مالكا » ، لا يرحل ـ على ما وصلنى من رواية ـ وربما تكون الأسباب التى حببت إليه البقاء الدائم بالمدينة ، شيئاً غير هذا كله .

---

(١) الزواوى : مناقب ص ٥٢

نوال الإجازة العلمية

١ — نظام العصر

٢ — متى ؟

٣ — وكيف ؟

(١)

يحدثنا « مالك » رضى الله عنه ، عن نظام عصره فى منح الإجازات العلمية ، حين يقول : « ليس كل من أحب أن يجلس فى المسجد للحديث والفتيا جلس ؛ حتى يشاور فيه أهل الصلاح والفضل والجهة من المسجد[١] ، فإن رأوه لذلك أهلا ، جلس » فهو نظام إلى حد ما ، يقوم على تقدير الطالب ممن لهم هذا التقدير ؛ وهم أهل الصلاح والفضل ، فى الحى الذى فيه مسجده ، أى معهده ؛ وفى قائمة المقدرين من يشبه أهل قسمه ، أو أهل فرقته التى يدرس فيها مثلا ، وهم أهل الجهة من المسجد[٢] الذين يقومون مع شيخهم فى ناحية بعنيها من المسجد ، كما رأينا « ابن شهاب » يجلس فى الروضة ، بين القبر والمنبر ؛ « وابن هرمز » يجلس فى صحن المسجد ، . . فنظام هـذا التقدير ، يقوم على تزكيـة الطالب من شيخه الخاص ، وأنداد شيخه ؛ وزملائه من كبار الطلاب . .

---

(١) القاضى عياض : (ترتيب المدارك) ١/ ورقة ٢٠ ـ ظهر ـ د ـ (والديباج المذهب) ـ ٢١

(٢) (ترتيب المدارك) ١/ ورقه ٢٠ ـ ظ ـ الصفحة السابقة والكلمة فيها مشتبهة تقرأ « الجمعة » وقرأها طابع (الديباج) فى مصر « الجهة » وهو أنسب للمعروف من أماكن العلماء فى المسجد النبوى .

وهـذا النظام فى أماكنه وإجازاته التقديرية كان معروفا فى الأزهر ، إلى عهد ليس بالبعيد ، حتى بدأت النظم الجديدة والامتحانات ؛ ولعله كان نظامَ المساجد كلها فى العالم الإسلامى ، ما دامت هى المعاهد ودور العلم ؛ بل ربما كان نظام الدور المفردة للتعليم ، من المدارس الإسلامية

ويظهر أن « مالـكا » ، قد أصاب هـذا التقدير مبكرا ؛ إذ كان الأمراء يدعون أهل العلم لحضور مجالسهم ؛ يستشيرونهم فى الشؤون العامة ، ويستفتونهم ؛ وقد بعث الأمير إلى « مالك » فى الحداثة ، أن يحضر المجلس ، فحضر مع أستاذه « ربيعة »[1] .

---

(١) (ترتيب المدارك) ١/ورقه ٢٠ وجه ـ

(٢)

ونحاول تحديد العام ، الذى نال فيه « مالك » إجازة التدريس ، وجلس للفتيا ، وكيف كانت هذه التزكية من أشياخه أو غيرهم ، فنرى اضطراب الرواية عن هذا كله :

فأما عام الإجازة ففيه روايات مبهمة ممن شهدوا تدريس « مالك » ، وأنه كانت له حلقة فى حياة « نافع » أكبرُ من حلقة « نافع »[١] ؛ أو أنه رئى وله حلقة بعد موت « نافع » بسنة[٢] . وموت « نافع » نفسه مختلف فيه بين سنة ١١٧ وسنة ١٢٠[٣] .

ونجاوز هذه المبهمات المختلفة، إلى من عين سن « مالك » عند الجلوس فنجد أيضاً روايتين : إحداهما تقول : إنه جلس للناس وهو ابن سبع عشرة سنة[٤] ، والأخرى تقول : إن « مالكا » حدّث حين بلغ عشرين سنة[٥]

(١) ترتيب المدارك ١ / ورقة ٢٠ وجه
(٢) ابن عبد البر : (الانتقاء) ـ ٢٣
(٣) ابن خلكان ٢/١٩٨
(٤) (الديباج) ـ ٢١
(٥) ملا على القارى (شرح نخبة الفكر) ـ ٣ ط الآستانة

ولو ذكرنا الاختلاف فى سـنة ميلاد « مالك » ؛ لرأينا صعوبة ضبط سنة الإجازة ؛ فهو قد نال هذه الإجازة فى العقد الثانى من القرن الثانى ؛ على ترجيح أنه ولد سنة ٩٣ ـ وهو الأشهر ـ ويتراوح عام نواله إياها ، بين العاشرة والثالثة عشرة بعد المائة . . ؟

(٣)

ولا تسلم الرواية من الاختلاف ، فى كيفية هـذا التقدير وعلى أى حال تم ... فيقول «مالك» ـفيما يُروَى ـ من حديث له مع «ابن وهب» تلميذه : ما أفتيت حتى سألت : هل أنا للفتيا موضع ؟ ويقول : إنه سأل فى ذلك ، « الزهرى » و « ربيعة الرأى »[١]. كما يروى عنـه قوله : ما جلست حتى شهد لى سبعون شيخاً من أهل العلم ، أنى موضع لذلك[٢] . وهو يرى أن لا خير ، فيمن يرى نفسه بحالة ، لا يراه الناس لها أهلا[٣] .

لـكنا نقرأ إلى جانب هذا كله ، خبراً له نظائر فى تراجم الناشئين من العلماء مع أشياخهم ، وجلوسهم للإقراء بغير إذنهم ، أوفى مغاضبتهم لأشياخهم ؛ فيروى : أنه دارت مسألة ، فى مجلس « ربيعة » ، فتكلم فيها « ربيعة » ، فقال « مالك » : ما تقول « يا أباعثمان » ؟ ! فقال « ربيعة » : (أقول فلا تقول ؛ وأقول إذ لا تقول ؛ وأقول ، فلا تفقه ما أقول) و « مالك » ساكت فلم يجب بشىء وانصرف . فلما راح إلى الظهر ، جلس وحـده ، وجلس إليه قوم ؛ فلما صلى المغرب ، اجتمع الى « مالك » خمسون أو أكثر ؛ فلما كان

---

(١) و (٢) و (٣) (الديباج المذهب) ـ ٢١ ـ وهو تلخيص (ترتيب المدارك)

من الغد ، اجتمع إليه خلق كثير ؛ قال : فجلس للناس وهو ابن سبع عشرة سنة ؛ وعُرفت له الإمامة ، وبالناس حياة إذ ذاك[١]

فهل جلس « مالك » مسالمًا ، قد أجازه أشياخه ؟ أو جلس مغاضباً ، إذ شتمه « ربيعة » ؟ . .

لعلنا لا نستطيع الترجيح ، إلا اعتماداً على شيء من حسن الظن ، وحمل الحالِ على الصلاح . . وليس هذا بالترجيح التاريخي . . .

وفى كل حال ، قد برز للحياة « مالك » الرجل .

---

(١) الديباج ص ٢١

مالك الرّجل

١ — عناصر شخصيته

٢ — الوراثة

(١)

ذلك الذى جاز اسمه إلينا الأجيال ورددناه بعد نحو مائتين وألف عام ؛ وعمدنا إليه نؤرخه ، محاولين ، أن نصور الجوانب المختلفة من شخصيته ، فى ألوان الحياة المتعددة ، فنراه فى السياسة والاجتماع كما نراه فى حياته الفردية الخاصة ، ثم نراه فى العلم دينيه ودنيويه ، وفى الآداب وفى الفنون على تنوعها ، وفى غير ذلك .

ولا تتضح لنا هذه الشخصية المتشعبة المناحى ، المتعددة الجوانب ، إلا إذا ما اتضحت لنا عناصرها المختلفة ، فعرفنا وراثات الإمام المتسلسلة إليه ، وما منحته إياه الفطرة ... ثم بيئاته المادية والمعنوية ، وما أجدت عليه ، بقدر ما ينال جهد البحث ، ومقدرة الدراسة . .

وليس الذى أسلفنا من حال أسرته ، وخبر حياته ، حتى عهد الرجولة ، إلا مفتاح القول فى تلك الشخصية ، فالآن نستطيع أن نقف هنا ، لنتحدث عن تلك العوامل من الوراثة والبيئة ، قبل تناول شخصيته بالبيـان والتصوير التفصيلى .

(٢)

فأما الوراثة، فما أحسب القول فيها، يقوم إلا على شواهد مظنونة، من عبارة منقولة، أو فعلة محكية، ولذا نمس الحديث عنها مشفقين، مقدرين أن يعيدها العالى، من الأصول، والشعب، والقبيل بعامة، لا يهون حمله على الفرد الواحد، ..

وأما خاصها فى الآباء الأقربين، والأسرة، فقد غامت سماؤه بالروايات، التى رأينا تدافعها، وتعددها، فى صغير شئون الإمام وكبيرها . .

سنلم من حديث هذه الوراثة بيسير، لعلنا نبلغ العذر فيه، بما قرنا من قلة المروى، واضطراب الرواية .

***

رجلنا يمنى، قحطانى. وفى اليمن ميل إلى حياة العمل والصناعة، فقد جُو به اليمنيون فى مفاخرات العرب، بأنهم ما بين (حائك برد، وسائس قرد، ودابغ جلد).

واليمن قد عرفت الحيـاة القارة، فزرعت، وبنت، واستوطنت، وكل ذلك يؤيد فيهـا الميل للعمل، ويؤصل روح الـكدّ . .

ولعلك تجد هذا النزوع العملى واضحاً فى جواب «مالك» لمن سأله عن طلب العلم، أفريضة هو؟ فقال له : نعم، ولـكن يطلب ما ينتفع به[1]، وسنرى

---

(١) (الديباج المذهب) ــ ٢٥

لهذا ، مظاهر أكثر وضوحاً ، فى منهج « مالك » العلمى وأسلوب تفكيره
ثم لعل من هذا الميل العملى ، النزوع إلى الكدح فى الحياة طلباً للكسب ، إذ يُتناقل قول « مالك » : « طلب الرزق فى شبهة أحسن من الحاجة إلى الناس[١] » وقد كانت للإمام تجارة ومضاربة على ما سيأتى خبره

والرجل قد نمته أسرة مالكة ، وجرى فى عروقه دم أزرق — كما يقولون — ولعل هذا أصل مظاهر مختلفة : من الوقار ، وقلة الكلام ، وندرة الضحك ، وكراهة المزاح ، إلى ما يعرف له من قوة الأخذ ، عند قيامه على الحياة فى المدينة أحياناً ، إذا كان له نفوذ عملى يخوله إياه الولاة ، على ما سنرى ...
ولعل من ذلك مايصفونه به من هيبة ووقار فى مجلسه العلمى ، ومسلكه فى التعليم مع طلبته وسائليه ، واتخاذ آذن يأذن للناس عليه ، وقيام سودان على رأسه ، يقيمون من يأمر بإقامته من مجلسه ؛ وما إلى ذلك .

***

وتجد من وصفهم لليمنيين : أنهم أهل سمع ، وطاعة ، ولزوم للجماعة[١]
وسنرى فى حياة « مالك » مظاهر لوراثة هذه الصفة ؛ نراها فى مسلكه السياسى على ما سنصفه ، فهو حريص على لزوم الجماعة ؛ ميال إلى السلم ميلا قوياً ، يبلغ إلى حد التهيب ؛ بل يظهر ميله السلمى فى تفكيره العلمى نفسه ، فهو

---

(١) (الديباج المذهب) — ٢٥
(٢) ابن خلكان : ١٠٣/١

يكره الجدل والخصومة ، حتى قيل له: الرجل عالم بالسنة ، أيجادل عنها ؟ قال : لا ؛ ولكن ليخبر بالسنة ، فإن قبل منه وإلا سكت[1] .

تلك أصول وراثات بعيدة ، أعانت عليها تجارب القوم متناقلَة ، فقدمناها بين يدى الحديث عن شخصية « مالك » تعبيدا للسبيل .

* * *

وهناك وراثات قريبة، من الأسرة، ربما لا يبدو لنا منها أظهر من شخصية والدته التى كثرت إشارتنا إلى فضلها عليه . وهى ـ فى رواية ـ يمنية تشارك فى هذه الخصائص العامة لليمنية ؛ ثم هى أزدية ، والأزد قوم ملاحون ، يقول فيهم الشاعر :

إذا أزدية ولدت غلاما فبشرها بملاح مجيد[2]

ولهم يقول « قتيبة بن مسلم الباهلى » بعد الإسلام ، من خطبة له فى جنده : « يا معشر الأزد ، تبدلتم بقُلوس السفن ـ جمع قلس وهو حبل ضخم ـ أعنة الخيل ، إن هذا بدعة فى الإسلام[3] !! . »

ولعل هذه الملاحة أورثتهم ضرباً من الإقدام ، حتى قيل عنهم ـ الأزد آساد الناس[4] فلو صحت أزدية الأم ـ على غير خلاف ـ لكانت مصدر قوة

---

(١) (الديباج) ـ ٢٤
(٢) (شذرات الذهب) : ١/٢٠٠
(٣) ابن الأثير : الكامل ٥/٥
(٤) ابن خلكان : الوفيات ١/١٠٤

الإقدام العملى فى « مالك » وحب التقدم فى الحياة : نراه فى دأبه على الطلب ، والظهور فى أيام أساتذته إذ لا تزال فى الناس حياة — كما قال مترجموه أنفسهم — وهو ضرب من الإقدام يختلف عن إقدام البدوى المغامر ، الذى تتطلبه شجاعة الصحراء والحاجة إلى الدفاع ؛ هو ضرب من الشجاعة المعنوية فى ميدان عقلى ، ومجال اجتماعى .

تلك وأشباهها ملاحظات ، لا نزال نردد القول بأنها ظنية استنتاجية ، ليس لها إلّا فضل ضبط الفكرة عن شخصية المترجم ، واستطاعة تكوين الرأى فيه إلى حدّ ما . وإلا فدراسة الوراثات إنما تقوم على التجارب العلمية العملية المنضبطة ، مما لا يدَ لنا به فى الأحياء ، فكيف بسالفى الموتى ! ! !

البيئة

١ — البيئة الطبيعية الكبرى

٢ — « « الخاصة

٣ — « المعنوية العامة من الجانب السياسى

٤ — « السياسية الخاصة

٥ — « المعنوية العامة من الجانب العقلى

٦ — « العقلية الخاصة

٧ — مزايا المدنية

٨ — البيئة المعنوية من الناحية الدينية

٩ — « الدينية الخاصة

١٠ — « المعنوية من الناحية الاجتماعية

١١ — « الاجتماعية الخاصة

(١)

أما البيئة : الطبيعية الكبرى : فهى الحجاز ، الذى لزمه الإمام بضعة عقود من الأعوام لم يبرحه إلى غيره ـ على الراجح ـ . وقد يغادر المدينة إلى مكة حاجًا . ثم يعود إلى المدينة أو ضاحية من ضواحيها . .

والحجاز كما وصفه الله تعالى : «واد غير ذى زرع» فالحياة فيه صورة أخرى ، غيرها فى العراق ، أو فى الشام ، . . وهو ناء عن مقر الدولتين اللتين عاصرهما الإمام : وهما الأموية فى الشام ، والعباسية فى العراق ؛ ولهذا البعد كذلك أثره فى الحياة وأهلها ؛ .

لكن هذا الحجاز ، قد خص بدعوة « إبراهيم عليه السلام » إذ قال : « . . . فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم » ، فهو ملتقى الحجيج وقبلة الشعوب الإسلامية المختلفة ، يلتقى فيه الأصفر والأحمر، ويعرف من شؤون هذه الجماعات المختلفة مالا يتيسر لغيره ؛ فالحرمان فيه مركزان ، يهيئان لساكنيه من الصلات بالناس ، مالا يتهيأ لغير الحجازيين . . . ولهذه الاعتبارات فى البيئة الطبيعية أثرها فى الناشئ بها . .

وقد يكون لجو الحجاز من حرارة شديدة وما إليها، آثار تميز هذه البيئة ، لكنى لا أقف عند أمثال هذه المؤثرات لئلا أسرف فى الظنون وأجازف فى الاستنتاج . . وإنما ألتفت إلى البيئة الطبيعية الخاصة .

(٢)

البيئة الطبيعية الخاصة : وهى ما نزله «مالك» من المواطن ؛ فقد نلحظ أن الإمام ولد بذى المروة كما أسلفنا ؛ وهو موضع به عيون ومزارع و بساتين ؛ وكان ينزل العقيق قبل المدينة ، ويقول : إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحبه ويأتيه ؛ والعرب تقول لكل مسيل ماء ، شقه السيل فى الأرض ، وأنهره ، ووسعه : عقيق ؛ وفى عقيق المدينة عيون ونخل ؛ .

وليس يبعد عندى ، أن يكون لهذه البيئة الخاصة ، ذات العيون والنخيل والمزارع والبساتين ، أثر مّا فى مزاج الإمام ورقته ، وما سنرى من ذلك فى وصف دَلّه ، وسمته ، وميله الفنى فيما بعد . .

ولا أبالغ فى أثر البيئة ، إذا ما لحظ أن ذا المروة هذا ـ حيث مولد الإمام ـ قد حُدِّثنا أن ساكنيه شكوا إلى الرسول عليه السلام حين نزله ، من أن الناس يقهرونهم عند المياه ؛ وأن الرسول صلى الله عليه وسلم، دعا قوماً فأقطعهم ، وأشهد بعضهم على بعض بأنى قد أقطعتهم ، وأمرت ألا يضاموا ؛ ودعوت لكم ، وأمرنى حبيبى جبريل أن أعدكم حلفاء[1] . فهو مكان يُقهرَ أهله على المياه ، ويشكون نزول الناس عليهم ، وغلبتهم إياهم ؛ ويأمر الرسول

---

(١) السمهودى : (وفاء الوفا) ٢/٣٧٣

بألا يضاموا ، ويأمره جبريل بأن يعدهم حلفاءه ...

أللنشأة فى مثل هـذا المـكان أثر ما فى حب السلم ، والميل إلى الوداعة والهدوء ، ممـا سنجد الكثير من شواهده فى شخصية الإمام ؟ أم يعتبر ذلك من المبالغة فى أثر البيئة ؟ إنى لأميل إلى الأول، ولا أرى فى ذلك مبالغة .

وكنت وشيكا أن أتحدث عن مدينة الرسول نفسها ، من حيث هى بيئة طبيعية خاصة ؛ وما لموقعها وجوها من أثر ، ولـكنى أكتفى بهذا الإجمال الخاطف ، لأنظر إلى :

البيئة المعنوية ، وما لها من أثر على الحى فيهـا ، من حيث وضعها السياسى ؛ وظفر صاحبنا فيـه بالحرية أو وقوعه تحت قهر الاستبداد ؛ وحياتها الدينية،وسعة أفقها أو ضيقه ؛ ونظرتها إلى الدنيا ، وتنظيمها للحياة . . وكيانها العقلى ، وما تعنى به من المعارف ؛ وحالها الاجتماعية بعامة ، وما لها من جاه ، وما لديهامن ثراء ، وما تعنى به من فن؛ فـكل أولئك وغيره ، أجواء و بيئات معنوية يتأثر بها الحى فى تفـكيره وتـكونه ونضوجه . .

وننظر من ذلك أولا ، إلى :

(٣)

البيئة المعنوية العامة من الجانب السياسى : فنرى أن الإمام قد ولد فى خلافة «الوليد بن عبد الملك الأموى» ـ على الأشهر ـ ومات فى خلافة «الرشيد العباسى» فسلخ بضعة وثلاثين سنة من عمره ، فى حكم الأموية ؛ وأفنى قرابة نصف قرن فى حكم العباسيين ؛ وشهد انتقال الدولة من هؤلاء إلى أولئك ؛ ورأى « داود ابن على » عم « السفاح » يقتل من ظفر به من بنى أمية بمكة والمدينة[1] ؛ كما رأى ألواناً من الاضطراب التى تتبع مثل هذا الانتقال ، وكيف تعصف بأخلاق الناس إلى عصفها بأرواحهم وأموالهم . .

لقد خضع فى الحالتين لحكم فردى ، أدنى إلى الاستبداد المحض ، تحتكم فيه إرادة الفرد المسيِّرة لمن حوله ، فتصرّف ما تشاء كما تشاء ؛ فى مركزية تحمل إلى العاصمة فى الشام أو فى العراق ما يجبى من شرق الإمبراطورية الإسلامية وغربها ؛ وتصدر إليها الأوامر ، وتعطيها الحكام .

كانت تتجاذب الحياةَ السياسية فى العصر الذى عاش فيه الإمام ، تياراتٌ مختلفة تتصل بحياة أهل العلم اتصالها بحياة غيرهم ، بل كان أهل هذا العلم الدينى أوثق بها اتصالا من سواهم ، لحاجة السلطة الزمنية إلى سناد من السلطة الدينية دائماً .

---

(١) ابن الأثير (الكامل) ٥/١٦٨ ط مصر سنة ١٣٠٣ هـ

كانت هـذه التيارات التى تتجاذب حياتهم أشـبه بالأحزاب السياسية لأيامنا، لولا اختلاف فى الأساليب قضت به الملـكية المتفردة، فـكان هناك من تلك الأحزاب :

١ — *حزب الأسرة الحاكمة* : يجمعه لون من العصبية الدموية فى تلك الأسرة، إلى عصبيةِ قبيلة تمتُّ بصلات قوية، من أواصر جاهلية، ربطت بين تلك القبائل فى حياتها الأولى قبل الإسلام، كما كان الشأن فى الأموية مثلا مع المضرية، والعباسية مع اليمنية ... أو تجمع هذا الحزبَ عصبيةُ رأيٍ مصلحى يقوم على فـكرة اعتقادية، كما كان الشأن فى العباسـية مع الفرس ؛ ويدخل فى هذا الحزب أرباب المصالح، وروّاد المنافع الذين ينالهم خير الأسرة الحاكمة، ما دام لها خير يرتجى، وسطوة تتقى . . .

وقد شهدت حياة الإمام الصراع الخفى والعلنى بين حزبى الحـكم، وإن كان نصيب الحجاز فى الصراع الخفى أيسر منه فى غيره ... على أنه بعد استقرار الحـكم للعباسيين ظل هناك حزب يعمل فى الخفاء هو :

٢ — **الحزب العلوى** : إذ لم يُرضه مصير الأمر لأبنـاء عمومتهم، فنازعوهم الملك منازعتهم ذلك للأمويين من قبل، وكان للحجاز نصيب غير يسير فى مناصرة هذا الحزب، واتصل ذلك بالإمام نفسه، فـكان له فيه موقف أو مواقف، نشير إليها قريباً .

وإلى جانب ذلك كان يوجد :

٣ — *حزب ثالث* ، تقوده غاية ، وتسيره فكرة ، لم يحققها فى رأيه حكم الأمويين ولا العباسيين، ذلك هو : *حزب الخوارج* ، الذين رموا إلى أهداف تشبه أن تكون من اشتراكية هذا العصر ، أو تلم بيسير مما تقرر الشيوعية ، من إنكار لمتعة بعض الأفراد ، ولاستقرار فوارق الطبقات ؛ والحزب يتمثل فى كل حال ضربا من الحكم العادل المسوّى ، الصالح خُلُقا ودينا ؛ وكان لهذا الحزب فى حياة الإمام أعمال بالحجاز ، والمدينة بخاصة، على ما سنشير إليه قريباً .

تلك أمهات الاتجاهات السياسية فى عصر حياة الإمام ، ما نشك فى أنه وقف من كل منها موقفا معيناً ، لعل الباحث يوفق إلى تحديده .

وفى ضوء هذه الفكرة المجملة عن الحياة السياسية العامة ؛ ننظر إلى :

(٤)

البيئة السياسية الخاصة : فى الحجاز كله ؛ أو فى مدينة الرسول وحدها ؛ مستفسرين كبريات الحوادث السياسية فى هذا العهد ، فنرى أنه :

١ — فى حكم الأمويين قبيل انتهائه — أى سنة ١٢٩ إلى ١٣٠ هـ — استولى « أبو حمزة الخارجى الإباضى » من قبل « عبد الله بن يحيى » المعروف باسم « طالب الحق » فى حضرموت ، على مكة والمدينة بعدما قتل من أهل المدينة خلقاً كثيراً[١] ؛ وإن كان قد أُخرج منها هو وقومه فى العام نفسه ؛ ولم أر للإمام فى هذه الحركة أثراً .

« وأبو حمزة » هذا مع قصر عهده بالمدينة وأهلها ، قد ذم أخلاقهم ، وعاب سلوكهم على ما سنسمع من قوله فيهم بعد يسير[٢] . . .

ثم نرى أنه :

---

(١) ابن الأثير : (الكامل) ٥/١٣١ ، ١٤٠ ، ١٤٦

(٢) كان مما عاب به أهل المدينة « أبا حمزة » وصحبه أنهم شبان فقال لهم من خطبة فيهم : يا أهل المدينة ، بلغنى أنكم تنتقصون أصحابى ، قلتم شباب أحداث ، وأعراب حفاة . . ويحكم هل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا شبابا أحداثا ، وأعرابا حفاة ؟ هم والله مكتهلون فى شبابهم غضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أقدامهم — ابن الأثير : ٥/١٤٦

٢ — بعد ما آل الأمر إلى العباسيين ، نشط العلويون فى الشغب عليهم ، فخرج على « المنصور » فى عام ١٤٥ هـ ، الأخوان « محمد بن عبد الله » الملقب بالنفس الزكية ، « وإبراهيم بن عبد الله » ؛ خرج أولهما بالمدينة ؛ وخرج الثانى بالبصرة ؛ وكان لأهل العلم والدين فى الخرجتين مواقف ، فخرج مع « إبراهيم » كثير من القراء والعلماء : خرج معه « أبو حنيفة » ، وكان يجاهر فى أمره ، ويحث الناس على الخروج معه ، وقال عمن قتل معه: إنه كما لو قتل يوم بدر .

وقال «شعبة بن الحجاج» الملقب أمير المؤمنين فى الحديث ـ ت ١٦٠ هـ ـ عن موقعة باخمرا التى قتل فيها «إبراهيم» : والله لهى عندى بدر الصغرى[1] .

ومثل ذلك كان موقف العلماء مع أخيه « محمد » فى المدينة : فقد خرج معه « ابن هرمز » شيخ « مالك » ، فقيل له : والله ما فيك شىء ، فقال : قد علمت ، ولكن يرانى جاهل فيقتدى بى[2] .

وأما « مالك » فكان يحث الناس على الخروج مع النفس الزكية[3] ، واستفتاه أهل المدينة فى الخروج معه وقالوا: إن فى أعناقنا بيعة «لأبى جعفر»

---

(١) ابن العماد : (شذرات الذهب) ١/٢١٤ ، ٢١٥ .
(٢) ابن جرير : (التاريخ) ٩/٢٢٩ ط الحسينية
(٣) ابن العماد : (شذرات الذهب) ١/٢١٤ ، ٢١٥

فقال : « إنما بايعتم مكرهين ، وليس على مكره يمين » فأسرع النـاس إلى « محمد[١] » ، ولزم « مالك » بيته[٢] . وكان موقفـه قبل الخروج موقف انحياز إلى «المنصور» ، إذ حج « المنصور » سنة ١٤٤ هـ أى قبل خروج « محمد بن عبد الله » بعام . وقد حُبس « بنو الحسن » فأرسل إليهم فى الحبس رسولين ، كان أحـدهما « مالك بن أنس » ، يسألهم أن يدفعوا إليه « محمـداً وإبراهيم ابنى عبد الله » وقد رفض « عبد الله والد محمد وإبراهيم » أن يرد على الرسـولين ، وقال : « لا والله لا أرد عليـكما حرفاً ، إن أحب أن يأذن لى فألقاه فليفعل » . وعاد الرسولان إلى « المنصور » فأبلغاه[٣] .

كانت سن « مالك » إذ خرج « محمد » خرجته بالمدينة خمسين سـنة أو أكثر ، وكان قد اكتمل علمه ، ولـكنه وقف منه هذا الموقف . فـكان رسول « المنصور » إليـه فى السجن ، ثم كان يفتى بالخروج معه ، ويلزم مع ذلك بيته .

٣ — وفى عام ١٦٩ هـ ، خرج بالمدينة علوى آخر هو «الحسين بن على- قتيل فخ » ، خرج بالمدينـة متعجلا لظروف طارئة ، وكان الموعد أن يظهر

---

(١) ابن الأثير : (الـكامل) ٥/١٩٧
(٢) ابن الأثير : الموضع السابق . وابن جرير : ٩/٢٠٦ ط الحسينية
(٣) ابن الأثير : (الـكامل) ٥/١٩٤

بمنى و بمكة فى الموسم . فكان مقامه بالمدينة أحد عشر يوماً فقط ، ثم خرج منها بعد ما قاتله شيعة بنى العباس[١] فيها : كانت مدته بالمدينة قصيرة ، وكان « مالك » قد قاربت سنه الخامسة والسبعين ، فلم أر له موقفاً فى هذه الخرجة . .

تلك أشهر الهزات السياسية بالمدينة فى عهد « مالك » ، ورجال السياسة الذين جربوا أهل المدينة من جميع الأحزاب ، لا يحمدون سلوكهم السياسى ولا يعدونهم قوة يستنصر بها :

« فأبو حمزة » الخارجى يقول لهم من خطبة خطبها فيهم : « يا أهل المدينة : أولكم خير أول ، وآخركم شر آخر[٢] » .

« ومحمد بن عبد الله » — وإن كان ظهوره فيهم — خطبهم أول خروجه فقال : « أيها الناس ، والله ما خرجت بين أظهركم وأنتم عندى أهل قوة ولا شدة ، ولكنى اخترتكم لنفسى[٣] » .

وقال مستشار « المنصور » له بشأن خروج « محمد » فى المدينة : « هلك وأهلك ، خرج فى غير عدد ولا رجال[٤] » .

ولما غادرها « الحسين » صاحب فخ قال لهم : « يا أهل المدينة ،

---

(١) ابن الأثير : (الكامل) ٦/ ٣٠
(٢) » » » ٥/ ١٤٦
(٣) » » » ٥/ ١٩٧
(٤) » » » ٥/ ١٩٨

لا أخلف الله علىكم بخير » . فقالوا له : « بل أنت لا أخلف الله عليك ولا ردك » .

ولعله من هنا ما يقول « ابن الأثير » فى وصف المدنيين عند لقاء « أبى حمزة الخارجى » : « وكانوا مترفين ليسوا بأصحاب حرب[1] » .

ومن كل هذا ندرك أن النشاط السياسى فى المدينة كان محدودا ، والعناية بنصرة ناحية حزبية أو الصمود لها ، كانت قليلة فى المدينة : ولعل هذا من أمر تلك البيئة يفسر لنا صنيع « مالك » مع « محمد بن عبد الله » ، حين خرج بها . . .

(١) ابن الأثير : (الكامل) ـ ٥/١٤٥

(٧)

ثم ننظر إلى **البيئة المعنوية العامة من الجانب العقلى** ؛ لا لنؤرخ حيـاة العلوم إذ ذاك ، ولا لنصف طرق التعليم والتعلم ؛ ولـكن لنبين الاتجـاهات العقلية العليا وأهدافها البعيدة ، وتأثر كل مسلك منها بغيره، فى إجمال شامل ، يصور لنا تأثر عقلية الإمام بما حوله من التيارات الفـكرية ؛ متحدثين أولا عن:

البيئة العلمية العامة فى العالم الإسلامى ، فنرى صدق ما يقرره « ابن خلدون » من : « أن العلوم إنما تـكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة» وأن هذه الأمة العربية فى العهـد الذى نتحدث عنه ، قد صارت من العمران إلى درجة لم تعد تـكفى فيهـا معارفها الأولى التى كانت تتوارثها ، من أمر الأنواء والنجوم ، أو الزجر والعيافة ، أو مجربات الطب ، وما إلى ذلك ، بل إن هذه الحياة الدينية القوية ، قد أحوجتها إلى علوم لخدمتها .. فـكانت لها تلك الدراسات النقلية الدائرة حول القرآن ، كتاب الإسلام ومعجزته ؛ وحول ما خلف « الرسول عليه السلام » من آثار فى بيانه وتطبيقه ، وكانت تلك العلوم ، وما تبعها من الدراسات اللسانية اللازمة فى دور التكون والنماء الأول ، خلال القرنين الأول والثـانى من الهجرة . وكان لهذه العلوم منهجها النقلى الخاص بها . . .

ثم نرى أن هذا الملك الفسيح و إرث الأمم ذوات الحضارات ، قد دفع الأمة الإسلامية إلى الصنف الثانى من الدراسات العقلية ، التى تقوم على جهاد العقل الإنسانى ، والمدارك البشرية ، وهى العلوم الحكمية الفلسفية ذات المنهج الخاص بها ، الذى يفترق فى أساسه عن المنهج النقلى الأول .

***

و إلى مولد الإمام لم يكن قد عُرف للمسلمين جد فى سبيل هـذه العلوم الحكمية ، ولعل حركة النقل والترجمة الظاهرة تساير حياة الإمام أو تكاد ، فيما عدا المنسوب إلى « خالد بن يزيد الأموى » من نقل كتب الصنعة وهو — إن صح — عمل يسير الأهمية .

ولسنا نؤرخ حركة الترجمة بكثير هنا ولا قليل ، إنما نقول : إن العناية بهذه العلوم الحكمية قد تبعت حواضر الملك ، ونمت فى كنف الحاكمين بالشام طوراً ، والعراق تارة ، وأيدها الخلفـــاء ومن حولهم فى العواصم من وجوه الدولة وأعيان الأمة ، فنمت وازدهرت .

***

فى عصر الإمام كان اللقاح العلمى الجديد ، يسرى فى دم الجماعة الإسلامية ، و به يتفاعل المنهجان العقلى والنقلى ، رويداً رويداً ؛ ويظهر أثر هذا التفاعل فى بطء . . والمنهجان — كما نعرف — يفترقان بطبيعتهما وباختلاف شخصية متناولها ، فترى المنهج النقلى يطمئن إلى شىء من قرب التسليم ، وقلة ترديد

الفروض ، وعدم الإمعان والتعمق فى أغوار المسائل ، على حين لا يطمئن المنهج العقلى إلى هذا التسليم القريب ، ويكثر من ترديد الفروض ، ويطلب أسرار الأمور ، وبواطن الحقائق ، ولا يقتنع إلا حيث يرضى عقله ، ويتضح برهانه . .

ولست أفيض فى بيان تفاعل المنهجين هنا ، وإنما تكفى الإشارة أيضاً ، إلى ما استبان بعد هذا العصر من أثر اتصال النزعة المنطقية والفلسفية بالدراسات حتى الأدبى منها واللغوى ، إلى حد أن يكون « لأبى الحسن الرمانى » ـ ت سنة ٣٨٤ هـ ـ من النحو المنطقى ما يقول فيه « أبو على الفارسى » : « إن كان النحو ما يقوله «أبو الحسن الرمانى» فليس معنا منه شىء، وإن كان النحو ما نقوله ، فليس معه منه شىء[١] » مع أن « أبا على الفارسى » من أصحاب المنطق فى النحو ، إلى حد غير قليل . . .

ولقد أصابت الدراسات الدينية: من العقائد ، والفقه ، والأصول ، وعلوم الحديث وغيرها ، حظها من ذلك التفاعل ، واختلف نصيبها باختلاف البيئات ، والرجال القائمين بها ، على ما يبين فى تاريخها التفصيلى . . . وعصر الإمام ـ كما قلنا ـ بدء هذا التأثر ، وأول ظهوره ، والجد فيه .

---

(١) ابن الأنبارى : (نزهة الألبا فى طبقات الأدبا) ـ ٣٩٠ ط حجر سنة ١٢٩٤ مصر

* * *

ومن تمام القول فى البيئة العلميـة العامة ، أن نشير إلى النشاط الشامل لأنحاء العالم الإسـلامى إذ ذاك ، فى الدراسات الدينية المختلفة ، فبينا نرى فى المدينـة والحجاز ، ذلك النشاط الذى سنصفه ، إذا بنا نرى فى غيرها قسطا منه وافرا ، فتلمع فى ذلك العهد أسماء شهيرة ، لأعلام الدراسات القرآنيـة والحديثية . .

فهذه مصر، إذ ذاك، قد نزلها «ابن هرمز الأعرج» وبها توفى ـ ١١٧ هـ ، و بعث الخليفة إليها «نافعا» «مولى ابن عمر» ليعلم الناس الحديث، وفيها مات ـ ١١٧ هـ ـ كما نزلها «أبو يونس مولى أبى هريرة» حتى مات ـ ١٢٣ هـ ـ وعرف فيها محدثون : «كعلى بن رباح» ، أحد علماء زمانه ـ ت ١١٤ أو ١١٧ هـ ـ ، و«موسى بن وردان المصرى» ـ ت ١١٧ هـ ـ و « يونس بن يزيد الأيلى » ، أوثق أصحاب «الزهرى» ـ ت ١٥٢ هـ ـ و« عمرو بن الحارث » الفقيه الحافظ ، كان أحفظ الناس فى زمانه ـ ت ١٤٨ هـ ـ ومحدثها الشهير « أبى عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة المصرى» ـ ت ١٧٤ هـ ـ وكثير غير هؤلاء .

وكان بها الفقهاء والمفتون : « كبـكر بن سوادة » الآخذ عن « ابن عمر » ـ ت ١٢٨ هـ ـ و«أبى رجاء يزيد بن حبيب» فقيـه مصر ، وشيخها ومفتيها

ـ ت١٢٨ هـ[1] ـ ، و«الليث بن سعد» الفقيه الجليل ، الذى يعنيه «مالك» حين يقول : وأخبرنى من أرضى من أهل العلم[2] ، والذى آثره « الشافعى » عند الموازنة بينهما[3] .

وتدع مصر إلى الشام، فتلقاك الشام فى ذلك العهد، بجلة من الرجال، « كأبى عبد الله مكحول» ـ ت١١٣هـ ـ و«ويحيى بن يحيى الغسانى» ـ ت١٣٣هـ ـ و « الأوزاعى » ـ ت ١٥٧ هـ ـ و«أبى محمد سعيد بن عبد العزيز التنوخى» الذى هو لأهل الشام « كمالك » لأهل المدينة ـ ت ١٦٧ هـ[4] ـ .

وإن رنوت إلى العراق، جاءتك العراق بوجوه من المحدِّثين : «كالشعبى» ـ ت ١٠٤هـ ـ و«العرزمى» ـ ت١٤٥هـ ـ و«الأعمش» ـ ت١٤٨ هـ ـ «وابن عون » ـ ت ١٥١ هـ ـ وكثير غيرهم ؛ يؤيدهم أعيان من الفقهاء ، كالقضاة المشهورين : « إياس بن معاوية » ـ ت١٢٢ هـ ـ و «ابن شبرمة» القاضى الشاعر ـ ت١٤٤ هـ ـ و « ابن أبى ليلى » الذى قيل فيه ، أنه كان أفقه أهل الدنيا ـ ت١٤٨ هـ ـ والإمام الكبير «أبى حنيفة» ـ ت١٥٠ هـ ـ وكرام

---

(١) ابن العماد : (شذرات الذهب) جـ ١ ـ راجع الأسماء فى سنى الوفيات .
(٢) ابن حجر : (الرحمة الغيثية فى الترجمة الليثية) ـ ٦ ـ ط بولاق .
(٣) المصدر السابق .
(٤) شذرات الذهب : جـ ١ ـ فى سنى الوفاة المذكورة هنا .

أصحابه ؛ و«سفيان الثورى» الإمام صاحب المذهب ـ ت ١٦١ ـ والحمادين: « حماد بن سلمة » ـ ت ١٦٧ هـ ـ و « حماد بن زيد » ـ ت ١٧٩ هـ ـ [١] الذى يقاسم «مالكا» الإمامة فى عصره [٢] .

وأنت واجد مثل هؤلاء فى اليمن ، وفى أقطار المشرق وأنحاء المغرب ، فتقدر أن البيئة الإسلامية ، كان يسودها فى القرن الثانى نشاط جم فى الدراسات الدينية ، كما كانت تتلقى تأثيراً جديداً من النقل والترجمة ، والتمثل للعلوم العقلية الفلسفية .

---

(١) شذرات الذهب فى سنى الوفيات المذكورة هنا

(٢) شذرات الذهب ١/٢٩٢

(٦)

١ — وأما *البيئة العقلية الخاصة* ، فى الحجاز والمدينة، من الناحية العلمية فمع مشاركتها العامة للعالم الإسلامى إذ ذاك ، تتميز بخصائص تعين قسطها فى تلك المشاركة ، وتفردها عن غيرها .

وهذه البيئة هى عش العروبة ، ومنبت الرسالة ، وموئل الصحابة والتابعين، ثم هى بمنأى من عواصم الملك فى الدولتين . . . ثم هى فى عزلتها الجغرافية لم تتصل بمناشئ الحضارات القديمة اتصال غيرها . ومن كل أولئك نلمس فيها خواص بينة منها :

أولا : أنها من حيث الاتجاهات الفكرية التى وصفناها ، ومن حيث التأثر باللقاح الجديد من الحكمة والفلسفة، لا تتعرض لذلك تعرض غيرها ، ولا يبدو فيها مثل نشاط غيرها ، نعم إنها لا تنجو من هذا التأثر ولا تخلص من تفاعل مناهج التفكير التى أشرنا إليها ، ولكن يكون ذلك أبطأ وأهدأ من غيرها ، ومتأخراً بعض التأخر ، وضعيفاً بعض الضعف .

ثانياً : أن لها فضل عناية بما كانت تعنى به العروبة قديماً . وفيها بقية وراثة من ذلك أظهر من غيرها ، فنرى مثلا أن علم الأنساب فيها متدارس أكثر منه فى غيرها. وتسمع «مالكا» يقول : إن «ابن شهاب الزهرى» لم يكن

معه كتاب إلا كتاب فيه نسب قومه . وكان « ابن شهاب » هذا من أعلم الناس بالأنساب[١] . .

ثالثاً : أنه لا يظهر فيها أثر واضح لوراثة حضارات قديمة ، إذ ليس لها مثل صلة الشام بالحضارة الإغريقية والحضارة الرومانية ، ولا مثل صلة العراق بالحضارة الأشورية والكلدانية والفارسية مثلا[٢] . وقد خلفت هذه الصلات فى أهل تلك البلاد عادات ، وتقاليد ، ووراثات عملية مختلفة فى حياتهم ، لها فعلها فى توجيه تفكير المفكر من أهل تلك البيئة ، وبخاصة حينما يعكف على التشريع ، وتنظيم الحياة العاملة ، ذلك التنظيم الفقهى الذى عكف عليه إمامنا « مالك » وأضرابه من الفقهاء والمفتين .

* * *

أما حين نصف حركة الدراسات الدينية فى تلك البيئة الحجازية ، فإنا لمقدورن أنها مهبط الوحى ، ودار الدعوة ، رددت جوانبها أصداء النداء السماوى ، وعلى معالمها تفهم تعاليمه ، وبحوادث تاريخها تفسر نصوصه . ورجالها هم دعاة الرسالة ، وبناة الدولة ، ومطبقو الشريعة ، وحملتها إلى الناس ، فلا

(١) وقفنا فى صفحة ـ ٨١ إلى ٨٥ ـ عند كتابة « ابن شهاب » وما قيل فيها إثباتا ونفيا ، وما هنا ليس إلا شاهداً على العناية بالنسب .

(٢) إن لها لصلة بالحضارة المصرية القديمة قد تركت أثرها فيها ، لكنها لم تتناول بالبحث العميق ، ولنا فى سبيل ذلك جهد نرجو أن يؤتى ثمره قريباً . وفى كل حال هى تختلف من حيث القدم عن تلك الأقطار الشمالية والشرقية

غرو أن خلف من بعدهم خلف ورثوا هذا العلم الدينى ، سواء فى ذلك أبناء هؤلاء الرجال ومواليهم الذين اجتلبوهم فى فتوحهم ، وآخوا بينهم وبينهم ذلك الإخاء الإسلامى ، فكانت للعلم الدينى من هذه البيئة سوق نافقة ، حافلة بالعرب والموالى من مختلف الأجناس ، فترى وجوه العلماء — بل القراء الذين يؤخذ عنهم القرآن وهو الأصل الأكبر — منهم الفارسى « كابن كثير » قارئ مكة — ت ١٢٠ هـ — ومنهم الرومى « كاسماعيل بن عبدالله بن قسطنطين » — ت ١٧٠ هـ — قارئ مكة أيضاً . ومنهم من تلاقت فيه الأجناس « كسلمة بن دينار » عالم المدينة وزاهدها وواعظها ، فارسى وأمه رومية . وكذلك تجد القضاة والمفتين وأوعية العلم ، ونقلة الدين ، ألواناً وأجناساً .

وكانت العناية متجهة ، إلى الأصول الأولى : من القراءات والتفسير ، والحديث ، والفتاوى الفقهية ، والأحكام العملية ، أو ما يتصل بذلك كالمغازى والسير ، يُتدارس ذلك ، رواية ونقلا ، أكثره شفوى معتمد على الحفظ ، لا يغلب فيه شىء من المناقشة أو البحث النظرى ، ولا يسوده ميل إلى الجدل ، ولا رغبة فى التعمق والتفريع ، إذ لا يدفع واقع الحياة ، إلى ذلك كثيرا .

ثم تتبّع الأخلافُ هذه المرويات حفظا ونقلا ، وكانت الفتيا فى العبادات والأحكام مما عنى بحفظه وإحصائه ، حتى وسع « ابن حزم » أن يقول

فى [الإحكام(١)] : إن هذه الفتيا لم تُرو إلا عن مائة ونيف وثلاثين من رجل وامرأة من الصحابة ، وأنه ما فاته منهم ــ إن كان فات ــ إلا يسير جداً ، ممّن لم يرو عنه أيضاً إلا مسألة واحدة أو مسألتان ... ثم يسوق هؤلاء المروى عنهم من الصحابة أقساما : فيذكر المكثرين منهم ، والمتوسطين ، والمقلين من الفتوى . و يتصدى بعد ذلك لحصر فقهاء التابعين ، فيذكر من عرف منهم ، على البلاد المشهورة فى صدر الإسلام ، بادئا بمدن هذه البيئة الحجازية ، فيذكر بمكة ستة عشر من الفقهاء إلى عهد « الشافعى » ثم يذكر بالمدينة فقهاءها السبعة المعروفين ، ثم نحو أربعين فقيها آخرين إلى عهد إمامنا « مالك » . وقد رتّب هؤلاء صحابة وتابعين فى طبقات مختلفة على ما يتولاه المؤرخون من ذلك(٢) .

ولا يعنينا من هذا إلا دلالته على العناية المتوفرة بالدراسة الدينية ــ ولا سيما الفقهية ــ فى الحجاز لهذا العهد ، . وما فى ذلك من إعدادٍ صالح « لمالك » ومدرسته بالحجاز .

---

(١) ٥/٩٢ ، ٩٧

(٢) الشيرازى : (طبقات الفقهاء) ٣ / ٤٢

(٧)

وهـذا الذى قررنا من صفة « المدينة » علمياً ، يسلمنا إلى البحث فى امتيازها على غيرها من الأقطار الاسلامية لهذا العهد ؛ فقد قرر هذا الامتياز فى مسألتين أصوليتين متصلتين :

أولاهما : أن إجماع أهل المدينة وحدهم ، يكون حجة على من خالفهم ، فى حالة انعقاد إجماعهم[١] فإذا اجتمعوا ، لم يُعتَد بخلاف غيرهم .

ثانيتهما : أن خبر الواحد من نقلهم ، إذا عارضه خبر آخر من نقل غيرهم من الآفاق ، كان ما نقلوه مرجَّحاً — على رأى — بزيادة مزية مشاهدتهم قرائن الأحوال ، وتقصدهم لنقل آثار الرسول عليه السلام .

والمسألتان متصلتان ، تُذكر الثانية عقب تفصيل أحوال الأولى ، . .

وهذه الأولى كما يقول «القاضى عياض[٢]» : جميع أرباب المذاهب، من الفقهاء والمتكلمين ، وأصحاب الأثر ، والنظر ، إلب واحد فيها على المالكية ، مخطّئون لهم فيها بزعمهم ، محتجون عليهم ؛ حتى تجاوز بعضهم حد التعصب والتشنيع ، إلى الطعن فى المدينة ، وعدِّ مثالبها . . .

---

(١) الآمدى : (الإحكام) ١ / ٣٤٩

(٢) (ترتيب المدارك) — ١ / ٧ وجه — نسخة الدار

وفى هذا الموضوع كثر تحريف المخالفين ، ولم تحرر عباراتهم ، ولئن كنا لن نعنى منه إلا بالجانب التاريخى المحض ، تاركين الجانب الأصولى ، استدلالا ومناقشة ، لموضعه من الدرس ، فإنا على كل حال محتاجون إلى تحرير الرأى فيه ، لنتحدث فى الأمر على بصيرة :

ولعل « القاضى عياضاً » خير من حرر هذه المسألة ممن رأيت من الكاتبين القدماء والمحدثين ، إذ عقد لها باباً خاصاً فى كتابه المخطوط : [ترتيب المدارك ، وتقريب المسالك ، لمعرفة أعلام مذهب مالك[1]] فاستبعد منها الآراء غير المحررة مما وقع فيه رجال ، أمثال « الغزالى » فمنها :

١ — قول من يقول : إن إجماع أهل المدينة على عمل من طريق الاجتهاد والاستدلال ، يكون حجة ؛ مع أنهم بعض الأمة ، والحجة إنما هى لمجموعها ؛ ولا يذهب « مالك » لمثل هذا .

٢ — وقول من من يقول : إن « مالكا » لا يعتبر إلا بإجماع أهل المدينة دون غيرهم ، وهو ما لا يقوله « مالك » ولا واحد من أصحابه

---

(١) قد عقد لذلك باباً عنوانه : باب بيان الحجة بإجماع أهل المدينة فيم هو ؟ وتحقيق أهل المدينة مذهب « مالك » فى ذلك ؛ ويستغرق من ص ٧ وجه إلى ص ٨ ظهر ؛ وهو معجب بهذا التحقيق ، ويقول فى ختام الباب : فهذا منتهى الكلام فى هذا الباب ، ولباب العقول والألباب ، ومنزع فى المسألة من التحقيق والتدقيق ، شهد له كل منصف بالصواب .

٣ — وقول من يقول : إن « مالــكا » يرى إجماع الفقهاء السبعة بالمدينة إجماعاً ؛ ولم يقله « مالك » ولا روى عنه.

٤ — وقول من يقول : إن « مالــكا » لا يقبل من الأخبار إلا ما صححه عمــل أهل المدينة[1] . وهو كذب وجهل كما يقول . ثم قال فى تحرير المقام ما خلاصته ــ فى ترتيب و بتصرف ــ إن إجماع أهل المدينة على ضربين :

الأول — إجماع عن طريق النقل والحــكاية الذى تأثره الــكافة عن الــكافة ، وعملت به عملا لا يخفى ، ونقله الجمهور عن الجمهور من زمن النبي صلى الله عليه وسلم .

الثانى — إجماع عن طريق الاجتهاد والاستدلال .

وتحت الأول أنواع[2] منها :

١ — نقل شرع من جهة النبي ـ ص ـ من قول أو فعل ، كالصاع والمد.. وكالأذان والإقامة ، وترك الجهر بالبسملة فى الصلاة ، وكالوقوف والأحباس ، فنقلهم لهذه الأمور كنقلهم موضع قبره ومسجده ، ومنبره ، ومدينته ، وغير ذلك مما علم ضرورة من أحواله وسيرته ، وصفة صلاته ، وعدد ركعاتها وسجداتها وأشباه هذا .

---

(١) من كلام القاضى عياض ، الباب السابق ص ٧ ظهر (بتصرف)
(٢) ذكر أنها أربعة ، ولم يسق إلا الثلاثة التى هنا ، فاكتفيت بقولى «أنواع» دون عدد.

٢ — ومن النوع الأول من إجماعهم النقلى أيضاً ، نقل إقراره عليه السلام لما شاهده منهم ، ولم ينقل عنه إنكاره .

٣ — ومنه أيضاً ، نقل تركه لأمور وأحكام لم يلزمهم إياها مع شهرتها لديهم وظهورها فيهم . . . فهذا النوع من إجماعهم فى هذه الوجوه حجة ، يلزم المصير إليها ، ويترك ما خالفها من خبر واحد أو قياس . . لأنه تواتر يفيد العلم ضرورة ؛ وأهل المدينة وغيرهم من أهل الآفاق فى هذا سواء . . وإنما خالف فى تلك المسائل من غير أهل المدينة ، من لم يبلغه النقل الذى بلغ أهل المدينة .

وأما النوع الثانى وهو الإجماع عن طريق الاجتهاد والاستدلال ، فينكر معظم أصحاب « مالك » أن يكون قد قال إنه حجة ؛ بل هو عنده ليس حجة . . ويذهب بعضهم إلى أنه حجة كالنوع الأول ؛ وأنه مقدم على خبر الواحد والقياس ؛ وهنا يطبق المخالفون على أنه قول « مالك » ؛ وليس هذا صحيحاً على الإطلاق ، بل الراجح غيره .

هذا حينما يكون لأهل المدينة عمل مجتمع عليه . وأما حينما لا يكون لهم عمل بخلاف أو وفاق ، ولكن لهم خبر آحاد ، فهنا المسألة الثانية ؛ إذ يرى نفر من محققى أصحاب « مالك » ترجيح نقلهم على نقل غيرهم من أهل الآفاق للمزايا التى ذكرنا آنفاً .

هذا التحرير لمسألة إجماع أهل المدينة أو عملهم، كما أورده «القاضى عياض» فى حياد وتحرير دقيق، قد يتبادر إلى الذهن أنه لا يقوم على تمييز لأهل المدينة عن غيرهم، إذ عد عملهم المتواتر المتناقل من زمن الرسول -صلى الله عليه وسلم- حجة، ومثله كذلك منهم ومن غيرهم، لكنك لو تابعت كلام القاضى نفسه فيما بعد هذا التقرير، لوجدت معنى التمييز واضحا، فهو يقول بعد هذا مباشرة[1] ما نصه: كذلك نقول لو تصورت المسألة فى حق غيرهم، لكن لا يوجد مثل هذا النقل كذلك عند غيرهم، فإن شرط نقل التواتر، تساوى طرفيه ووسطه، وهذا موجود فى أهل المدينة، ونقلهم الجماعة عن الجماعة عن النبى، والعمل فى عصره، وإنما ينقل أهل البلاد غيرهم عن جماعتهم، حتى يرجع إلى الواحد أو الاثنين من الصحابة، فرجعت المسألة إلى خبر الآحاد».

ويتابع بيان هذا الامتياز فيقرر أنه حتى لو فرضت المسألة فى أهل مكة فى الأذان، ونقلهم المتواتر عن الأذان بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم، لا يكون هذا كما فى المدينة، إذ يعارضه آخر الفعلين من رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذى مات عليه بالمدينة[2].

وهكذا يقرر الرأى فى عمل أهل المدينة على فكرة من الامتياز لها،

---

(١) و(٢) (ترتيب المدارك) ١/٧ ظهر.

كما سمعنا فى المسألة الثانيـة أن تقديم خبر الآحاد عنهم قائم على ما قيل من مزية مشاهدتهم قرائن الأحوال . . الخ ؛ وهـذا الامتياز هو ما نعرض له عرضنا التاريخى ، فى الحديث عن البيئة المعنوية التى عاش فيها صاحبنا الإمام .

***

نجد من تاريخ الفكرة عن عمل أهل المدينة ، أنها أقدم من « مالك » فهذا « ابن جرير الطبرى » يحدثنا فى تاريخه أن «محمد بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم» ــ وهو أحد فقهاء المدينة ــ ت سنة ١٣٢ هـ ــ كان على القضاء بالمدينة ، فكان إذا قضى بالقضاء مخالفاً للحديث ، ورجع إلى منزله ، قال له أخوه « عبد الله بن أبى بكر » ــ وكان رجلا صالحاً ــ : أى أخى ، قضيت اليوم فى كذا وكذا ، بكذا وكذا ، فيقول له « محمد » : نعم ، إى أخى . . فيقول له « عبـد الله » : فأين الحديث ، أى أخى . . عز الحديثُ أن يُقضى به ! ؟ . فيقول « محمد » : إيهـاه . . فأين العمل ! ؟ يعنى ما أجمع عليه من العمل بالمدينة ، والعمل المجتمع عندهم أقوى من الحديث(١) .

و « محمد بن أبى بكر » هذا شيخ « مالك » ، وأبوه « أبو بكر » كان

(١) ١٣/١٠٠ ط الحسينية . ويسوق «القاضي عياض» فى (الترتيب) ــ ١/٧ وجه ــ هذه القصة، وهى مروية فى « الطبرى » عن « مالك » نفسه . .

والياً على المدينة قبيل نهاية القرن الأول ـ سنة ٩٦[1] هـ ـ فهو مدنى قديم العهد بالمدينة .

وعبارة القاضى محمد « فأين العمل ؟ » عامـة ، فسرها « الطبرى » بقوله : يعنى ما أجمع عليه من العمل بالمدينة[2] . . الخ .

لـكن فى النفس من ذلك التخصيص شيئاً ، ولعل مراد القاضى مطلق العمل ، لا عمل أهل المدينة دون غيرهم . . . وذلك لما يروى من أن « عمر بن عبد العزيز » كان يجمع الفقهاء ، ويسألهم عن السنن والأقضية التى يُعمل بها ، فيثبتها ، وما كان منها لا يعمل به الناس ألقاه[3] . وهو تحكيم للعمل ، دون نص على أنه عمل المدينة بخاصة .

ولما يروى من عمل «عمر بن عبد العزيز» هذا ، سابقة أقدم منه ، هى ما يروى عن «أبى الدرداء» الخزرجى الأنصارى ، الصحابى ، الجليل ـ ت ٣٢ هـ ـ من أنه كان يسأل فيجيب ، فيقال له : إنه بلغنـا كذا وكذا ـ بخلاف ما قال ـ فيقول : وأنا قد سمعته ، ولـكن أدركت العمل على غير ذلك[4] .

« وأبو الدرداء » هـذا كان قد ولاه « معاوية » قضاء دمشق ، فى خلافة

---

(١) ابن الأثير : ٥/٨

(٢) يروى « الزواوى » ـ ص٥٢ (مناقب) ـ عن « أبى بكر بن حزم » هذا قوله لمن سأله كيف تصنع بهذا الاختلاف: «يا أخى إذا وجدت أهل المدينة مجتمعين على أمر فلا تشك أنه الحق » . وهذا لا يناقض أنه يرجح بالعمل مطلقا .

(٣)و(٤) القاضى عياض : (ترتيب المدارك) خط ١/٧ وجه .

«عمر» رضي الله عنه[١]، فأى عمل هذا الذى كان يترك به ما سمعه ؟ أعمل المدينة فقط، أم عمل غيرها ؟ ليس فى الرواية تخصيص؛ وفى كل حال، هذه ـ فيما أعلم ـ أقدم سابقة لترك الخبر بالعمل ، و بينها و بين رجولة «مالك» نحو قرن من الزمن

ثم . . هـل كان ذلك الاعتماد على العمل عند « أبى الدرداء » ، تأثراً بفـكرة أقدم منه وأسبق ، أو هو الذى بدأ ذلك ، وهو أحد فقهاء الصحابة الذى قال فيه الرسول : « هو حكيم أمتى[٢] » ؟ ندع هذا البحث المفصـل وحسبنا الآن أن نرتقى بفـكرة عمل أهل المدينة إلى هـذا الأصل الأسبق ، لننظر بعد ذلك فى تدرج الفـكرة ومسايرتها الظروف الاجتماعية .

***

سواء أكان « مالك » قد تلقى عن أشـياخه فـكرة الترجيح بالعمل عامة ، أم خاصة بعمل أهل المدينـــة ، فقد تمسك بفـكرة تمييز عمل أهل المدينـة ، وأيدها بكثرة الصحابة فيها ، كما يروى عنه فى قوله : (انصرف رسول الله صلى الله عليه وسـلم من غزوة كذا ، فى نحو كذا وكذا ألفاً من من الصحابة ، مات بالمدينة منهم نحو عشرة آلاف ، وباقيهم تفرق بالبلدان . فأيهما أحرى أن يتبع ويؤخذ بقولهم ؟! من مات عندهم النبى صلى الله عليه وسلم

---

(١) ابن حجر : (الإصابة) ٥/٤٦

(٢) المصدر السابق .

وأصحابه الذين ذكرت ، أو من مات عندهم واحد أو اثنان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم[١] ؟ ؟)

وهذه الأعداد المكنى عنها بكذا وكذا فى هذه الرواية ، تُبين فى رواية أخرى «بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قفل من غزوة حنين فى اثنى عشر ألفاً ، مات منها بالمدينة نحو عشرة آلاف ، وتفرقت ألفان فى سائر البلدان[٢] » .

وكذلك دعا « مالك » للفكرة فى قوة ، كما نحس من رسالته إلى « الليث بن سعد » فقيه مصر ، فهذه الفكرة تستغرق موضوع الرسالة كلها . وفى تأييد الفكرة والاستدلال لها يقول « مالك » رضى الله عنه : « فإنما الناس تبع لأهل المدينة ، إليها كانت الهجرة ، وبها نزل القرآن ، وأحل الحلال ، وحرم الحرام ، إذ رسول الله بين أظهرهم ، يحضرون الوحى والتنزيل ، ويأمرهم فيطيعون ، ويسن لهم فيتبعون . . حتى يقول : فإذا كان الأمر بالمدينة ظاهراً معمولًا به ، لم أر لأحد خلافا للذى فى أيديهم ، من تلك الوراثة التى لا يجوز لأحد انتحالها ، ولا ادعاؤها . ولو ذهب أهل الأمصار يقولون : هذا العمل ببلدنا ، وهذا الذى مضى عليه من مضى منا ، لم يكونوا من ذلك على ثقة ، ولم يكن لهم من ذلك الذى جاز لهم[٣] . »

---

(١) القاضى عياض : (الترتيب) ١/٧ وجه .
(٢) الزواوى : (المناقب) — ٥١
(٣) القاضى عياض : (الترتيب) ١ / آخر ص ٦ وجه وأول ٦ ظهر

تلك أمهات الأدلة لتمييز المدينة علميا ، رددها المالكية بعد ذلك ، وزادوا عليها قليلا ، كقول بعضهم : وبها كانت السبعة الفقهاء من التابعين المشهورين بالفضل والعلم ، المخصوصين بهذا الاسم[١] ، وهو ما لا يحتج بمثله « مالك » لفكرته وإن قاله المتأخرون .

ولقد تؤيد الفكرة بأسباب اجتماعية نعرض لها بعد فى الحديث عن البيئة الاجتماعية . أما هنا فنقف قليلا لننظر فى أوجه هذا التميز العلمى ، وهى منذ القدم محل خلاف شديد ، كما أشار إلى ذلك « القاضى عياض » ، والجميع إلب على المالكية فيها ، وربما كان « ابن حزم » أقسى المخالفين لهم لساناً[٢] ، ولا غرو فلسانه وسيف « الحجاج » توأمان كما قالوا .

على أننا ننظر فى هدوء المؤرخ المنصف إلى تلك المزايا فنراها تتلخص فيما يأتى :

أولا : كثرة الصحابة فى المدينة ، وأنه مات بها منهم نحو عشرة آلاف — كما فى عبارة « مالك » السابقة — وهو أمر لا ينكر ، لكن يجب معه ملاحظة أشياء :

---

(١) الزواوى : (مناقب مالك) ص ٦

(٢) سود « ابن حزم » فى ذلك عشرات الصحف فصولا مستقلة ، وأبحاثاً استطرادية : راجع (إحكامه) جـ ٢ / ٩٧ — ١٢٣ و جـ ٤ / ٢٠٢ — ٢١٨ و جـ ٦ / ١٦٩ وصفحات متفرقة بعدها .

منها أن ليست هذه الآلاف من الصحابة أصحاب فتيا وعلم ، بل أصحاب ذلك منهم كما قدمنا ، نيف وثلاثون ومائة شخص .

ومنها أن ليس كل من مات بالمدينة كان قد عاش فيها حياته كلها ، بل قد يفنى الصحابي حياته فى غيرها من الأقطار ثم يعود ليموت فيها « كابن مسعود » مثلا ، كما أنه قد مات خارج المدينة العالم الفذ « كعلى بن أبي طالب » مثلاً .

ثانياً : أن أهل المدينة من العلم بسبيل حسن ، رسول الله بين أظهرهم ، وهم يحضرون الوحى والتنزيل ، وكما قال غير « مالك » : قد رأوا آخر الأفعال وعرفوا الناسخ والمنسوخ . وهذا الكلام حق فى جملته ، لكن المؤرخ يلحظ مع ذلك أيضاً أن الصحابة قد التزموا تعليم الناس أحكام دينهم ، وسعوا لذلك فى كل مكان ؛ كما يقدر التزام الخلفاء الأولين بخاصة ، أن يبعثوا إلى كل قطر من يعلمهم السنن وأصول الدين . وكانوا على هذا الأساس يختارون ولاتهم على البلاد ، فيبقى للمدينة بعد ذلك كله من الميزة العلمية ما لا يقدره التاريخ مثل تقدير القائلين بإجماع أهل المدينة و إن لم ينكره أصلا .

هذا هو الرأى المعتدل ، أما قول المالكية : « ان غير أهل المدينة من سائر البلدان لم تكن السنة بها قط متواترة » ، فذلك ومثله ، تحكم متطرف سيبين لنا تطرفه .

***

ولمسألة الامتياز هذه ناحية أخرى ، بدأت منذ عهد « مالك » ، واشترك فيها هو نفسه : تلك هى الناحيـــة التى تشبه أن تكون عصبية ، قد أثارت نزاعاً حاداً بين المدينة دار الدعوة ، والعراق دار الدولة ، وهو نزاع لا يحجم المؤرخ عن تقدير أثره فى رواج هذه الفـكرة عن أهل المدينة وروايتهم .

قوى هـذا النزاع حتى ترك للتاريخ آثارا لا تنكر . . . ترك آثاراً على ألسنة الشعراء ، فهذا يتهم المدينة بالغناء وينكر عليها العلم فيقول :

وليس يعرف هذا الدين نعلمه ⁂ إلا حنيفية كوفية الدور
لا تسألن مدينيا وتكفره ⁂ إلا عن البمّ والمثناة والزير

فيجيبه رجل من أهل المدينة :

لقـد عجبت لغاوٍ ساقه قدر ⁂ وكل أمرٍ إذا ما حم مقـدور
قال : المدينة أرض لا يكون بها ⁂ إلا الغنـاء وإلا البم والزير
لقد كذبت ـ لعمرو الله ـ إنَّ بها ⁂ قبرَ الرسول، وخير الناس مقبور [1]

ومثل هذه العصبية ، مما لا يزال يجرى بين البلاد والأقطار ، وما عصم الله الفقهاء ، من أن يتأثروا بشىء من هذا ، وقد سجل الشعر شكوى القرن

---

(١) الطبرى : ١٠٣/١٣

الثـانى من حمـل الفقهاء على مخالفيهم ، واستقباحهم لصوابهم ، فقال « أبو العتاهية » الذى عاش أكثر عمره فى هذا القرن ـ ١٣٠ : ٢١١ ـ

بكى شجوه الإسلامُ من علمائه فما اكترثوا مما رأوا من بكائه

فأكثرهم مستقبح لصواب من يخالفـه ، مستحسن لخطائه

فأيهم المرجو فينا لدينه؟ وأيهم الموثوق فينـا برائه[١] !

***

وتحدثنا الرواية عن نصيب الأقطار من علم الدين فتقول : أما أهل العراق فأهل كذب ، وباطل ، وزور . وأما أهل الشام ، فأهل جهاد ، ليس عندهم كبير علم . وأما أهل الحجاز ففيهم بقية العلم . وهـذه الرواية عن « مالك » نفسه ، من حديث بينه و بين « جعفر » ـ وهو الصادق غالباً ـ وتختم الرواية بقول « جعفر » « لمالك » ، وأنت عليم الحجاز[٢]

كما يروى عنه « ابن عبـد الحـكم » قوله : إذا جاوز الحديث الحرتين ضعفت شجاعته[٣] .

وتسند الرواية إلى « مالك » نفسه قوله لعراقى شكا قلة ما كتبه من الحديث بالحجاز : بالعراق عندكم دار الضرب ، يضرب بالليل ويخرج بالنهار .

---

(١) الديوان ـ ص ١١ ط بيروت : ومختصر جامع بيان العلم وفضله ـ ٢٠٣

(٢) الزواوى : (مناقب مالك) ص ٢٤

(٣) المصدر السابق ـ ٥٢

وهو يقول بعد ذلك : كانت العراق تجيش علينا بالدنانير والدراهم ، فصارت الآن تجيش علينا بالحديث [١] . وهى عبارة تشير ولو من طرف خفى ، إلى ظواهر المشادة بين الحجاز والعراق فى هذا العصر .

ولعله من مثل هذه الأقوال ، وسع الناس أن يذكروا بغض « مالك » للعراقيين فيقول « أبو طالب المكى » : كان « مالك » أبعد الناس ، من مذاهب المتكلمين ، وأشدهم بغضاً للعراقيين [٢] . وإن كنت أستكثر من « أبى طالب » التعبير بلفظ البغض ، وأشعر بخلافه من قول « مالك » نفسه رضى الله عنه : لو رأى صاحبى – يعنى « أبا حنيفة » – ما رأيت ، لرجع كما رجعت [٣] ..

هــذا شىء مما قد يسند إلى « مالك » ذاته فى تصوير النزاع بين العراق والحجاز .

وأما قول غيره من أهل زمنه ، أو قول من بعده من رجال مدرسته ، ففيه ما هو تنقص عنيف للعراق والعراقيين كذلك، فينسب إلى « ابن شهاب الزهرى » شيخ « مالك » قوله : يخرج الحديث من عندنا شبرا فيعود فى

(١) القاضى عياض : (الترتيب) ١/٤٦ ظ
(٢) المصدر السابق ١/٣١ وجه
(٣) الزواوى : (مناقب) – ٥١

العراق ذراعا[١] و « ربيعة الرأى » شيخه أيضاً ، يستقدمه « أبو العباس السفاح » ليوليه قضاء العراق ، فيخرج من الحجاز على رأى سيئ في العراق قبل رؤيتهم ، إذ يقول « لمالك » نفسه حين أراد الخروج إلى العراق : إن سمعت أنى حدثتهم شيئاً أو أفتيتهم ، فلا تعدنى شيئاً ، وفى رواية : فاعلم أنى مجنون[٢]؛ ويقول « مالك »: فكان كما قال لى ، لما قدمها لزم بيته فلم يخرج إليهم ، ولم يحدثهم بشيء حتى رجع .

ومن رواية « مالك » نفسه أيضاً : أن « ربيعة » لما قدم على « أبى العباس » أمر له بجائزة فأبى أن يقبلها ، فأعطاه خمسة آلاف درهم يشترى بها جارية حين أبى أن يقبلها ، فأبى أن يقبلها[٣] .

ويزيد الأمر حتى يُلحق أهل العراق بأهل الكتاب فيقال فى المدينة : أنزلوا أحاديث أهل العراق منزلة أحاديث أهل الكتاب ، فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم[٤] . بل قد ينسب هذا القول إلى « مالك[٥] » نفسه . ويسند ذلك إلى وصية « لعمر بن عبد العزيز » إذ استأذنه « إسحق بن عبد الله بن أبى طلحة الأنصارى » الفقيه ـ أحد أشياخ « مالك » ـ ت ١٣٢ هـ ـ فى الخروج إلى العراق ،

(١) زواوى : (مناقب مالك) ـ ٥٧
(٢) المصدر نفسه ـ ٥٦
(٣) الخطيب البغدادى : (تاريخ بغداد) ـ ٨ / ٤٢٥
(٤) الزواوى : (مناقب مالك) ـ ٥٥
(٥) ابن عبد البر : (جامع بيان العلم ـ مختصره ـ) ـ ١٩٩

فقال له « عمر » — فيما يروى — إذا قدمت العراق فأقرهم ولا تستقرهم ، وعلمهم ولا تتعلم منهم ، وحدثهم ولا تسمع حديثهم[1] .

وأما أقوال المتأخرين فأجرأ من ذلك وأقسى . . .

لكن يتسع صدر المؤرخ النزيه ، فيحاول استخراج تهم محدودة يستطاع فحصها ، فيجد مثلا :

١ — اتهام « ربيعة » لهم بنقص العقل إذ يروى عنه « مالك » قوله : « ورب هذا المقام ما رأيت عراقياً تام العقل[2] » وهى تهمة ليست أرزن من الأقوال السابقة ، ولا هى مما يقوله رجل قوى الذكاء « كربيعة » ، فيحكم على العراقيين عامة بضعف العقل ، وهو رجل قدم بلادهم فلزم بيته لم يخرج إليهم كما يقول « مالك » نفسه ! ! فهى تهمة لا يوقف عندها .

٢ — ضعف الإسناد ، كما يروى أن « مالكا » قال « لحماد بن زيد » حين قدم المدينة : « إنكم يا أهل العراق ، تحبون أن تكتبوا عمن لا شهادة له عندنا ، فكذلك أنكم تفعلون فى بلدكم[3] » . مع أن « حماد بن زيد »

---

(١) الزواوى : (مناقب مالك) — ٥٧

(٢) الذهبي : (تذكرة الحفاظ) — ١ /١٩٦

(٣) الزواوى : (مناقب مالك) — ٥٦

هذا إمام ثقة ، قال فيه «ابن معين» : ليس أحد أثبت من «حماد بن زيد[١]»
ولعل هذه القولة لحماد مما يستبعد أن يواجهه به « مالك » . . .

ومن هذه التهمة ما يعزى لبعض العراقيين من قول فيهم : كالذى ينسب إلى « عبد الرحمن بن مهدى » البصرى الحافظ ـ ت ١٩٨ ـ من أنه قال : لا تكاد أن تهجم على إسناد من أسانيد أهل الكوفة لا تجد له أصلا ، إلا هجمت . وهو اتهام جزئى للكوفة وحدها ، لا يهز العراق كله ، ولكنه مع ذلك لا يستقيم توجيهه بهذا العموم من فقيه محدث « كابن مهدى » ، وإن اتجه على هذه الحال فليس يثبت على النقد بهذه السعة وذاك العموم، الذى لا يسلم معه إسناد من أسانيد أهل الكوفة ولا يقوم على أصل .

وهكذا لا تثبت تهمة علمية محدودة من الحجازيين للعراقيين حتى يقف عندها المؤرخ ، بل على العكس من ذلك نجد المالكية قد قلبوا البحث فى قضية ما بينهم وبين العراقيين ، فتساءلوا عن السبب فى خلاف أهل العراق دون غيرهم لأهل المدينة ، على حين أن غير أهل العراق من سائر البلدان كاليمن ، والشام ، ومصر ، وإفريقية ، والأندلس ، كلهم معترف بفضل علماء المدينة ، وحجة أصولهم ، وتقدم حديثهم[٢] . فترى من قولهم فى تعليل هذه

(١) ابن العماد : (شذرات الذهب) ـ ١ /٢٩٢
(٢) الزواوى : (مناقب مالك) ـ ٥٧

الظاهرة شهادة صريحة لأهل العراق ، إذ يردون هـذه المخالفة القوية إلى أشياء منها :

١ — كثرة جموع المسلمين فى صدر الإسلام فى المناطق العراقية التى منها امتد الفتح شرقا فى عهد « عمر بن الخطاب » .

٢ — انتقال الخلافة من المدينة إلى الكوفة ووجود أكابر الصحابة بها، كأمير المؤمنين « على بن أبى طالب » و « عبد الله بن مسعود » و « سعد ابن أبى وقاص » و « أبى موسى الأشعرى » و « المغيرة بن شعبة » و « عمار ابن ياسر » و « أنس بن مالك » وغيرهم من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين . ولم يك مثل ذلك فى غير العراق من البلدان : كاليمن ، والشام ، ومصر ، وأفريقية ، والأندلس . وكان هذا هو السبب فى قوة نفوس أهل العراق ، حتى خالفوا أهل المدينة فى كثير من العلم ، ظنا منهم أن السنة انتقلت إليهم وصارت عندهم[1] . هذه قالتهم قديما ، كما نقرؤها فى [مناقب مالك] « للزواوى » المتوفى فى القرن الثامن الهجرى ،وهى تنقض ما أسلفوا فى حق العراقيين وغيرهم ، من أن السنة لم تكن قط متواترة عند غير أهل المدينة

---

(١) الزواوى : (مناقب) ـ ٥٧، ٥٨ بتصرف يسير جداً

من سائر البلدان ، وإنما كان يخرج إليهم من المدينة آحاد من العلماء معلمين ، أو بعض الصحابة مؤمرين ، أو غزاة ، أو مجاهدين[١] .

وإنك لتتنسم ريح هذا الإنصاف من مثل قولهم : لا ننكر أنه كان بالعراق علماء فى الدين ، ورواية فى السنة ، ولا ندعى العصمة لإمامنا ، ونفى الصواب عن غير علمائنا ، لكنا ندعى الفضل له ، والترجيح لمذهبه ، ونقول إنه أقوم قيلا وأهدى سبيلا[٢] » وإن يكن آخر هذا القول أظهر تسامحا من أوله .

ولكنك فى كل حال لا تصل إلى هذا القول النزيه إلى حد ما ، إلا بعد أن تضيق ذرعا بما سمعت من تنقص وعيب ، وحكم قاس شامل غير منضبط .

وهذا هو ما أرده — فى غير تهيب — إلى العصبية ، وأرى أن هناك أشياء كثيرة تسببها :

١ — هناك السياسة والدولة ، إذ ينفس الناس قيام الدولة فى قطر ، واستئثاره بالسلطان .

٢ — هناك الحياة الدنيا والمادة ، كالذى سمعنا من قول « مالك » رضه : كانت العراق تجيش علينا بالدنانير والدراهم . ألخ ما سبق .

---

(١) المصدر السابق — ٥٣
(٢) الزواوى : (مناقب) — ٥٧

٣ — هناك حب المحمدة ، والغريزة الإنسانية فى ذلك ، وعدم عصمة النفوس مهما ترقَ من التأثر بهذا .

فهذه الأسباب التى أجملنا — وغيرها مما لم نطل القول فيه حتى لا نخرج عن موضوعنا ـ مما يجب على المؤرخ المنصف أن يقدر أثره فى إصدار الأحكام وتكوين الآراء ، ونقل الأقوال وفهم الحقائق ، والأخـذ بدعاوى التميز ، وتفضيل بيئة على بيئة . وعلى المؤرخ ـ مادام الأمر كذلك ـ أن يتلقى بحذر ونقد ، مايروى من أخبار انتقاص العراقيين ، أو تعييب العراقيين للحجازيين أيضا ، مهما يسند شىء من ذلك إلى رجال موثقين ، أو صلحة منصفين . ولا يهِمَنّ واهم أن ما ذكرنا من أمر العصبية بين هؤلاء العلماء ، بدع من الأمر انترعناه ، أوجرأة على الحق خطونا إليها ، فإنه لشىء قد أدرك القدماء أنفسهم أصله ، وخافوا خطره ، وهـذا « ابن عبد البر » قد عقد فى كتابه [جامع بيان العلم وفضله] بابا عنوانه (حكم قول العلماء بعضهم فى بعض) وساق فيه طرفا من مثل ما قدمنا من حكم بعضهم على بعض، فى غير هوادة ولا دقة ، وتعييب بعض الأقاليم والجماعات ؛ ونقل معه ماقيل منذ عهد مبكر فى عدم قبول قول الفقهاء بعضهم على بعض ، وأنهم أشد تحاسدا من التيوس بعضها على بعض ؛ وإن السلف رضوان الله عليهم قد سبق من بعضهم فى بعض

كلام كثير : منه فى حال الغضب ، ومنه ماحمل عليه الحسد ، ومنه ما كان من جهة التأويل مما لا يلزم المقول فيه ماقاله[1] القائل فيه » .

وإذا كان الأمر على ما نسمع ، فهذا الذى ذكرنا تحت عنوان العصبية طرف من قول بعضهم فى بعض، لا يوقف عنده، ولا يأخذ به مؤرخ إلا حذراً وإن لم يفعل أخل بواجب الأمانه العلمية ، وسنجد شواهد متعدده لأثر هذه العصبية فى العراقيين والحجازيين معا ، عندما نتناول الجوانب المختلفة من البيئة المعنوية للإمام « مالك » .

---

(١) المختصر — ١٩٤ وما بعدها

(١٠)

أما الآن ، فنريد أن نصف هــذه البيئة المعنوية من الناحية الدينية لأنَّا نعرف أن الأصول الاعتقادية توجه النظرة القانونيــة الفقهية، التى تريد تدبير الحياة ، ووضع الأحكام العملية لتنظيمها ، كما نعرف أن المنزع الاعتقادى يؤثر على الأفق العقلى ومداه ضيقاً وسعة . وكما نعرف أن الاتجاه الاعتقادى يثير العصبية لنفسه ، والهوى لأهله ، مما يكون قوى الأثر على كل عمل علمى لصاحبه ، سواء أكان فقهياً دينياً أم غير ذلك . وقديماً بحث السالفون فى البدع والأهواء ، وأثرها على العدالة باختلاف أنواعها ، تقديراً منهم لهــذا التأثير ..

من أجل ذلك كله نريد أن نصف البيئة الإسلامية العامة فى القرن الثانى الهجرى من الناحية الدينية .

ثم ننظر فى بيئة الحجاز والمدينة بخاصة ـ كالذى مضينا عليه آنفاً . . . على أنا لن نعمد من ذلك إلى تاريخ الحياة الدينية فى هــذا القرن أو ما يشبه ذلك ، إنما هى المعالم الــكبرى ننظر منها إلى ما يمس حياة العلم الدينى ولا سيما الفقه ، ونقصد إلى بيان المؤثرات الهامة على تفــكير صاحبنا الإمام لا غير .

(١١)

رووا عن الرسول عليه السلام أنه قال : «لتسلكُن سبل الأمم قبلكم ، حذو القُذة بالقذة ، والنعل بالنعل ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » . وهذا الحديث نداء جهير بثبات النواميس الاجتماعية ، واطرادها فى حياة الأمم ، أمة بعد أمة ، ودهراً بعد دهر . وهو معنى انتبه إليه القدماء ، فرأيناهم يقررون : أن الشبهات الدينية التى فى آخر الزمان هى بعينها تلك الشبهات التى وقعت فى أول الزمان[١] . كما يقررون أن أول شبهة وقعت فى الخليقة هى شبهة « إبليس »[٢] حين استكبر عن السجود ، وعارض الأمر بما قال : كيف أسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون ؟ وفرعوا عن هذه الشبهة كل أنواع الشبه التى ظهرت بعد ذلك . وفى غير نظرٍ منا إلى هذه الأصالة وذلك التفريع ، نقدر إدراكهم ثبات الناموس الاجتماعى ووحدته ، مهما تتغير الألوان أو تختلف العبارات ، على مر الأزمان .

وإنهم ليذكرون أيضاً أن النبى صلى الله عليه وسلم ، شبه كل فرقة ضالة من هذه الأمة بأمة ضالة من الأمم السالفة ، فقال : القدرية مجوس هذه الأمة وقال : المشبهة يهود هذه الأمة» ، والرافضة نصاراها[٣] ؛ وسواء

---

(١) الشهرستانى : (الملل والنحل) ــ ١/١٦ على هامش (الفصل) ط الأدبية سنة ١٣١٧

(٢) الشهرستانى : (الملل والنحل) ــ ١/ ١٠ ــ ١١ على هامش (الفصل) ط الأدبية سنة ١٣١٧

(٣) المصدر نفسه ــ ١/١٦

أثبتَ على النقد أن هذه أحاديث نبوية ، أم رجح أنها أحكام يثبتها البحث ، فإنما يعنينا من ذلك ما تقرره هـذه الأحكام من تبادل التأثير بين الديانات المختلفة ، وظهور آثار لليهودية، والنصرانية، والمجوسية، فى آراء أصحاب المقالات من الأمة الإسلامية .

فإذا ما أدركنا أن الناموس الاجتماعى فى الحيـاة الدينية ثابت ثباته فى غيرها ؛ وأن الأديان المختلفة قد تبادلت التأثير والتأثر ، فإنا نستطيع أن ندرك كيف كانت الحياة الإسلامية الدينية فى القرنين الأول والثانى من الهجرة ـ كما كانت بعد ذلك ـ مجالا لتطبيق هذين الناموسين ، وكيف كان المسلمون يمرون بما مر به غيرهم من أطوار التفكير الدينى والبحث الاعتقادى . وتظهر فى ذلك آثار اتصالهم بالديانات السابقة ، والأمم الماضية ؛ وكان ذلك فى الجاهلية نفسها قبل الإسلام، فهذا « الأعشى ميمون » أستاذ الشعراء فى الجاهلية ، يقول « يحيى بن متى » راويته : كان الأعشى قدريًّا إذ قال :

استأثر الله بالوفاء وبالعـــدل وولى الملامة الرجلا

فلما سئل « يحيى بن متى » : من أين أخذ « الأعشى » مذهبه ؟ قال : من قبل العِبَاديين نصارى الحيرة . كان يأتيهم ، يشترى منهم الخمر فلقنوه ذلك

وهكذا يجب أن ينظر إلى حياة المقالات ، فلا تنسب فى أصلها إلى فلان من بلد كذا ، بدأت على يده فى سنة كذا وما إلى هذا من ظواهر ...

وعلى هذا الأصل الاجتماعى بدأت المقالات . فبدأت مبكرة من عهد الرسول نفسه ، يستخرج مؤرخو المقالات مختلف الشبهات من شبهات المنافقين ، ففيها الخروج الصريح وفيها القدرية الصريحة ؛ والجبرية الصريحة ؛ وفيها إلى جانب ذلك ، الجدال الصريح فى ذات الله ، على ما يبين فى مواضعه[١] ونكتفى بهذه الإشارة الخاطفة إليه .

***

الدين تدبير للحياة ينظمها ، ويحدد صلات الإنسان بما فيها ؛ فهو يقوم على آراء ومقررات ، فى حقائق الأشياء ، وطبائع الأكوان ، وغاية الوجود ؛ وآراء فى قوى الإنسان ، وأعمالها ؛ وكيف ينظم ذلك كله .

ومن هنا ندرك أن الآراء الدينية ، والمقالات الاعتقادية ، ومذاهب الفرق فى الأديان المختلفة ، إنما هى فى الحقيقة ، محاولة إنسانية ، يراد منها فهم هذا التدبير ، وإدراك ما يقرره الدين منه ولا سيما ما يخفى من حال القوى الإنسانية ، على اختلافها ؛ وكيف يريد الدين أن يخضعها ؟ وما يريد أن يخضعها له من نظم ، ودرجة تقييدها لتلك القوى ... الخ

ونظرة عميقة فى أصول المقالات الإسلامية ، تكشف لنا هذه الحقيقة ، وترينا ـ تحت الضوء الساطع ـ أن جميع المقالات الدينية ، لا تعدو أن تكون تبيينا لدرجة حرية القوى الإنسانية ؛ ومظاهر الشعور البشرى ؛

---

(١) (الملل والنحل) ـ ١٨ ، ١٩

ومقدار ما تستعد هذه القوى ، وتلك المظاهر ، لتقبله من تقييد وطاعة وخضوع

ذلك أن هذه المقالات يمكن أن تنحصر فى أصول وأسس ، لا تجاوز الأربعة :

١ — ما يرجع إلى أصل الاعتقاد ، ويتصل بالإيمان والتوبة ، والتكفير والتضليل ، إثباتا ونفياً وتخوض فيه فرق مختلفة من مرجئة ، ووعيدية ، ومعتزلة ، وأهل سنة ، وغيرهم .

٢ — مايرجع إلى الأساس الأول فى التدين والاعتقاد ، ويتصل بالإله ذاته ، وصفاته ، وما يجب له ، وما يجوز عليه ، وما يستحيل ؟ وتشترك فيه كذلك فرق مختلفة .

وهذان الأصلان الراجعان إلى الاعتقاد ومتعلقه، يخصان القوة الوجدانية فى الإنسانية ؛ وندرك من مقالات الفرق فيهما ، أنها نضال فى سبيل الطمأنينة الوجدانية ، ودرجة راحة هذا الوجدان الإنسانى

٣ — ما يرجع إلى تحكيم السمع ، وتحكيم العقل ، وفيم يحكم كل منهما ؟ وهى مسائل الرسالة ، وأبحاث التحسين والتقبيح ، وعصمة النبوة وشرائط الإمامة[1] . وتشترك فيها فرق متعددة أيضاً .

---

(١) هذا وجه من التقسيم ، وقد ترد مسائل الإمامة إلى أصل التدين ، لأن من أصحابها من يرون أن الدين خضوع لرجل ليس غير ، وفى كل حال فهذا التقسيم للضبط ؛ وكلا الوجهين كفيل به

وهذا الأصل الثالث ، مما نحس أنه يدور حول حرية العقل ، ومدى هذه الحرية ، وكيف يحدها الشرع ، وإلام يصل هذا الحد ، فهى دائرة حول المظهر الثانى من مظاهر الشعور الإنسانى ، وهو الفكر .

٤ — مايرجع إلى القضاء والقدر ، والجبر والكسب ،فى إرادة الخير والشر ، وهى مسائل القدر والعدل وما إليها على ما اختلفت فيه فرق عديدة أيضاً[١] .

وهذا الأصل الرابع مما ندرك أنه يدور حول حرية الإرادة الإنسانية ، أو عدم حريتها ؛ ومدى ذلك فى كل حال من الحالين .

فالمقالة الدينية ليست إلا توافقا بين الشخص و بين ماحوله من الحياة ، وهو توافق يصور فى الوقت نفسه قوى الشخص المختلفة : من وجدان ، وعقل ، و إرادة ، توافق يدل على درجة انحطاط هذه القوى فيه ، أو رقيها . ومن هنا تكون الآراء الدينية عاملا جوهريا ، فى إدراك شخصية الفرد ، وفهم العوامل الكبرى المؤثرة فى حياته والمدونة لتاريخه ، كما يكون لها هذه الأهمية نفسها فى حضارة أمة من الأمم ، أو عصر من العصور ، بجميع ألوانها ومظاهرها : من فنية ، وعلمية ، وعملية ، لأنها صورة وجدان تلك الأمة ، وذلك العصر . صورة فكر هذه الأمة ، وذلك العصر .. صورة إرادة هاتيك الأمة ، وذياك العصر . وحسبك ذلك ملونا للحضارة .

---

(١) أصل هذا التقسيم الرباعى قد ذكره الشهرستانى فى (الملل والنحل) ١/٧ ، ٨

ومن أجل هــذا نطلب معرفة أثر الحياة الدينية ، فى علم « مالك » من فقه وحديث ، كما نطلب ذلك الأثر على جوانب شخصيته المختلفة . وصلاته المتنوعة بالحياة .

* * *

وهنا أشعر بالحاجة إلى بيان : أن هذا الفقه ، الذى كان يشتغل به أولئك المحدّثون، والقضاة ، والمفتون، ينتظم أنواع القوانين المختلفة، فهو يشمل القانون الأساسى النظامى ، ويعرض لأوضاع الحــكم ؛ وهو يشمل القانون الدولى بنوعيه ، العام والخاص ، ويمس علاقات الأمم بعضها ببعض ؛ وهو يشمل أنواع القوانين المنظمة لحياة الجماعة ، من قانون مدنى ، على اختلاف أبوابه ، وقانون جنائى كذلك . فإذا ما لاحظنا، والأمر هكذا ، أن الخلاف فى الفرق الإسلاميــة ومقالاتها يدور على شيئين : الإمامة والأصول[1] ، وأن هــذا الخلاف على الإمامة يمس أصول الحــكم ، وأسس نظمه ؛ والخلاف على الأصول يمس حرية العمل ، وحرية العقل على ما أسلفنا الإشارة إليه ؛ أدركنا أن هذا الفقه الذى اشتغل به إمامنا وزملاؤه ، يصطدم قهراً ؛ بهذه المقالات، سواء أكانت لصاحبه مقالة معروفة ، ونحلة مشتهرة ، أم لم تــكن له تلك الصفة البارزة ، فى ميدان هذه الخلافات ؛ فصلة الفقه والفقهاء بهذه المذاهب ، قوية

---

(١) الشهرستانى : (الملل والنحل) ـ ١/٢٧

وثيقة كما أنها دقيقة عميقة ، ولهذه المقالات انعكاسات قوية التأثير على الفقه ، يرجى أن يقدرها مؤرخو الفقه ، ويوفق إلى تبينها من يترجمون للفقهاء ؛ وإنها لكبيرة إلا على الصابرين ، الذين يثبتون للبحث ويصمدون للدرس .

... وقبل رؤية « مالك » للنور بأعوام طوال ، كانت قد ظهرت فى الحياة الإسلامية تلك الألوان المختلفة من المقالات الدينية ، التى بينّا ما تدور عليه أنواعها المختلفة ، وأقسامها المتعددة : فكانت هناك مدارس دينية ، وجماعات مذهبية من الشيعة ، والخوارج ، والقدرية ، والمرجئة ؛ وفى حياته كانت تجلجل أصوات المختلفين ، بصنوف من الدعاوى الغريبة ، والمذاهب الجريئة ، فحين كان المعتزلة ، يتحدثون فى الإيمان والتوبة ، والإله وصفاته ، والعقل وحريته ، كانت آراء عن الحلول ، وصفة الإله ، تذاع فى جرأة رهيبة. و « المقنع الخراسانى » ـ سنة ١٦١ هـ ـ يدعى الربوبية بمرو ، ويقول لأشياعه إن الله تعالى تحول إلى صورة « آدم » عليه السلام ، ثم تحول من « آدم » إلى « نوح » ، ثم إلى صورة واحد فواحد من الأنبياء عليهم السلام والحكماء حتى حصل فى صورة « أبى مسلم الخراسانى » ثم انتقل منه إليه هو ؛ ويقبل قوم دعواه ، ويعبدونه ، ويقاتلون دونه[1] . وكذلك ترى فى طوائف الشيعة

---

(١) ابن خلكان : (الوفيات) ـ ١/٤٠٢ ط بولاق

الغالية مذاهب وآراء من صميم ما قالت الهند من التناسخ والحلول ، ومذاهب اليهود والنصارى فى التشبيه .

وفى هذا الجو المائج بأعاصير النحل وعواصف الآراء ، تظهر الزندقة وتشيع أيام حياة إمامنا . والكلمة فارسية ، وربما رجح أن المعنى القديم لكلمة (زنديك) الساحر القبيح المذهب[١] فكانت الزندقة تحللا من قيود التدين، وهى ظاهرة من ظواهر التحضر ، نرى مثلها اليوم من الاستهانة إما تظرفاً وتجدداً، وإما مجوناً وفسقاً وانتهاباً للذة ، وإما شكا وضجراً بالعقائد والمقررات الدينية. وكذلك كانت تلك الصنوف المختلفة تظهر فى الحياة الإسلامية أثناء القرن الثانى ؛ ولعل البلوى كانت قد عمّت بذلك حتى أنشئت إدارة خاصة لتعقب الزنادقة فى عهد « المهدى » ، تولاها الرجل بعد الرجل جداً فى طلبهم[٢] . ومن تتبع أسماء من ذكرت مصادرتهم فى هذا العهد، نرى عدا الشعراء وأصحاب الفنون القريبين بجوهم إلى مثل هذا العبث أو الخروج ، أشخاصاً من موظفى الدولة أو أبنائهم ، فيؤخذ بالزندقة رجل كان كاتب « المنصور » ، ويؤخذ بها ابن العامل على البصرة ، فيرسل إلى أبيه ويؤمر بتأديبه[٣] . ونراها فى

---

(١) الألفاظ الفارسية المعربة للسيد أدى شير — ٨٠ ، ٨١
(٢) ابن الأثير : (الكامل) — ٦ —/٢٦ ط مصر
(٣) ابن الأثير : (الكامل) — ٦/٢٤ ط مصر

رجال من الأسرة المالكة، فنسمع أكثر من اسم منهم ، يؤخذ أيام «المهدى» أيضاً ، وأحدهم قد استحل المحارم ووجدت ابنته بعد موته تقر أنها حبلى من أبيها[١] ، بعد ما أقرت هى وأمها على نفسيهما بالزندقة[٢] وترى الزندقة لهذا العهد فى العراق ، وفى حلب ، فيجوز إليها « المهدى » الفرات ، ويجمع من فى تلك الناحيــة من الزنادقة فيقتلهم ، ويقطع كتبهم بالسكاكين . . . وربما كانت الآفة من ذلك بالعراق أكثر ، لتوافر أسباب جمة فيه لهذا ، من غليان فكرى سببه القرب من منابع تفكير فلسفى ودينى مختلف ، إلى ثراء فياض يثير الرفه ويبطر الناس ، ويغرى بالمروق ، إلى غير ذلك مما نتولى بيانه فى البحث المستقل .

***

وفى هذا الخضم ، نرقب الفقهاء والمحدثين بخاصة ، فنرى أسماء لامعة ، وشخصيات بارزة قد لصقت بها أوصاف مذهبية وسمات طائفية: «فأبو حنيفة» مرجئ تارة، وشيعى زيدى تارة ، وقائل بمقالة الضرارية من المعتزلة طورا ،[٣] وموصوف بالجهمية[٤] حيناً ، وأصحابه كذلك مرجئة ، « والحسن البصرى »

(٢،١) ابن جرير (التاريخ) — ١٠/٢٤ ط مصر
(٣) الشهرستانى : (الملل والنحل) — ١/١١٤، ١٨١، ٢١٢
(٤) الخطيب : (تاريخ بغداد) — ٣/١١

قدرى ؛ « ومكحول » الشامى قدرى ؛ «ومحمد بن اسحق» صاحب [المغازى] كذلك ؛ و « سعيد بن أبى عروبة » أول من دون العلم بالبصرة — ت ١٥٦ هـ — يقول بالقـدر سرا ؛ « وابن أبى ذئب » الفقية صديق « مالك » من القائلين بالقدر وقد يكذب ذلك عنه[1] .. وغيرهم وغيرهم . « والنخعى » — ت ٩٥ هـ — ؛ و « طاوس » — ت ١٠٦هـ — و«الأعمش — ت ١٤٨ هـ — ؛ و« شعبة ابن الحجاج » — ت ١٦٠ هـ — ؛ و « سفيان الثورى » صاحب المذهب — ت ١٦١ — و« القاضى شريك النخعى » — ت ١٧٧ هـ ؛ و « وكيع بن الجراح » — ت ١٩٧ هـ — ؛ و « يحيى بن سعيد القطان » — ت ١٩٨ — هـ وغيرهم وغيرهم من أهل القرن الثانى، كانوا شيعة ،وغير ذلك من أصحاب المقالات ...

وتلك هى الحياة الدينية فى مقالاتها ونحلها ، و بخاصة بين الفقهاء والمفتين والقضاة والمحدثين ، يمسون هذه العقد ، و يخوضون هـذه المشكلات ، مع إقبالهم على الحفظ والنقل والرواية ، والتفهم والاستنباط . ولا بد لفهم شخصية « مالك » من معرفة موقفه فى هؤلاء .

* * *

ثم هناك من جوانب هذه الحياة الدينية ، ميدان الزهد ، وعالم الورعين الأتقياء المتعففين ، يجانبون الحيـاة ، و يحادّون السلاطين ، ويتحرجون فى مساس ماتصـل بهم . ومن هؤلاء فى القرن الثانى فئة وافرة من الرجال والنساء ، من وجوههم : « مالك بن دينار » — ت ١٢٧ هـ — « و إبراهيم بن

---

(١) تاريخ بغداد — ٢/٣٠١

أدهم » ـ ت ١٦٢ هـ ـ، « وداود بن نصير الطائى » ـ ١٦٢ هـ ـ «والفضيل ابن عياض » ـ ١٨٧ هـ ـ « وعبد الله بن المبارك » ـ ١٨١ هـ ـ والسيدات « رابعة العدوية » ـ ١٣٥ هـ ـ « وعائشة بنت جعفر الصادق » ـ ١٤٥ هـ ـ وغيرهم وغيرهن كثير .

ولهذه الطبقة على جو الفقه تأثير خاص هو الذى يدعونا إلى الوقوف عندهم ، إذ هم يرون الفقه والتحديث مثلا أمراً مخلا بالزهد ، ومنهم غير واحد قد ترك الفقه بعد ما اتصل بدراسته « كإبراهيم بن أدهم » ، قد بلغ رتبة الاجتهاد ولم يتكلم فى العلوم[1] ، « وداود بن نصير » يبرع فى الفقه ثم يعتزل[2] . وهذا « أبو سلمة مسعر بن كدام » ـ ت ١٥٢ أو ١٥٥ هـ ـ ويسمى المصحف لإتقانه ، ويدعى (الميزان) لنقده وتحرير لسانه ، قد نُقل عنه أنه كان يقول : من أبغضنى فجعله الله محدّثا[3] ، فهو يدعو على من يبغضه أن يجعله الله محدثا ومفتيا[4] ، وهم فى ذلك يكرهون الاتصال بالحكام . وملابسة السلاطين ، ويتشددون فى ذلك حتى نرى « وهيب بن الورد » الصالح المحدث ـ ت ١٥٣ ـ لا يأكل مما فى الحجاز ، تورعاً عما اصطفاه

---

(١) ابن العماد : شذرات الذهب ـ ١/٢٥٥
(٢) ابن العماد : شذرات الذهب ـ ١/٢٥٦
(٣) ابن قتيبة : (المعارف) ـ ١٦٥
(٤) الشعرانى : (الطبقات الكبرى) ـ ١/٥٠

الولاة لأنفسهم ومواشيهم [شذرات ٢٣٦/١] وهذا « أبو الفيض ذو النون المصرى ثوبان بن إبراهيم » ــت ٢٤٥ هـ ــ فى قريب من هذا العهد ، يُسأل : لم لا تشتغل بالحديث ؟ فيكون من جوابه : « ... والحديث من أركان الدين ، ولولا نقص دخل على أهل الحديث والفقه ، لكانوا أفضل الناس فى زمانهم . ألا تراهم بذلوا علمهم لأهل الدنيا يستجلبون به دنياهم فحجبوهم ، واستكبروا عليهم ؟ ! » وكان مما يقوله : « العجب كل العجب من هؤلاء العلماء كيف خضعوا للمخلوقين دون الخالق ، وهم يدعون أنهم أعلى درجة من جميع الخلائق[1] »

بل إن من متطرفى أصحاب المقالات الدينية ، من يتشدد فى هذا أكثر مما تحرجت المتصوفة والزهاد ، فهذا « عيسى بن صبيح » المسمى راهب المعتزلة ، ورأس إحدى طوائفهم ، يكفر من لابَس السلطان ، ويزعم أنه لا يرث ولا يورث[2] ..

نعم .. انها مبالغة مسرفة ؛ ولكن تحرّج الزهاد ، وتشدد أصحاب المقالات ، مجتمعين ، مما يلزمنا أن نقدر أثر هذه الفكرة فى البيئة الفقهية الحديثية وأن نعرف موقف إمامنا « مالك » منها ، حين نحلل شخصيته .

---

(١) الشعرانى : (الطبقات الكبرى) ــ ٦١/١ ط

(٢) الشهرستانى : (الملل والنحل) ــ ٨٨/١

(١١)

وإذا كان هـذا حال البيئة المعنوية العامة ، من الناحية الدينية ، فماذا كان حال البيئة الخاصة من هذه الناحية ؟ . هل تشترك بيئة الحجاز ، فى المظاهر التى رأيناها اشتراك غيرها ؟ أم تراها تتميز عما سواها ؟ . . هذا سؤال يعيدنا إلى ما خضناه قريباً ، من دعوى تميز بيئة المدينة . . إذ نرى أنصارها أيضاً ، يتنقصون العراق من الناحية الدينية ، بياناً لامتياز المدينة عليها ، فيقولون : إن من العراق ، خرجت الخوارج ؛ وفيها اعتزلت المعتزلة ، وظهرت القدرية ، وقامت الجهمية ، وبها كان « المختار بن أبى عبيد » الكذاب ؛ « والحجاج ابن يوسف » ؛ ومقتل « الحسين » ؛ وتشيع الشيعة ؛ ومبدأ دين القرامطة والمجوس فى هذه الأمة[١] .

ولا نناقش أصحاب المدينة فى قيمة التعييب بهذا والفخر بعدمه الآن ؛ ولكننا ننظر أولا فى درجة انتشار المقالات فى الأقطار الإسلامية ، وحظ كل قطر من ذلك ، أثناء القرن الثانى الهجرى . . . وفى هذا السبيل سلكتُ خطة إحصائية تعطى رأياً محدوداً إلى درجة مّا ؟ . . . نظرت فى من سُمى من أرباب المقالات لهذا العهد ، وجمعت من تلك الأسماء ما استطعت ممن عرفت

(١) الزواوى : (مناقب مالك) ــ ٥٤

موطنه ، وتاريخ وفاته ، لأقدر بذلك نصيب كل إقليم من هذا العدد ، الذى لم يلاحظ فى جمعه اعتبار خاص ، إلا أن اسم صاحبه قد حفظه التاريخ ، ونقله المدونون . نعم إنه ربما كان من لم يذكر من هؤلاء أكثر ، وكانت النسبة بذلك تتغير ، ولكنه التقدير التقريبى . . . وقد اكتمل لى من ذلك أربعة وثلاثون شيعيا ، كان منهم واحد وثلاثون عراقيا ؛ أى بنسبة ½ ٩١ ٪ تقريبا . . وبينهم حجازيان اثنان أى بنسبة ٦ ٪ تقريبا .

واجتمع لى من المرجئة فى هذا القرن الثانى نحو ثلاثة عشر رجلا ؛ منهم عشرة عراقيون أى بنسبة ٧٧ ٪ تقريباً . . . واثنان حجازيان فقط أى بنسبة ⅖ ١٥ ٪ تقريباً . . وواحد شامى فقط .

كما وجدت من القدرية إذ ذاك نحو ثلاثة وثلاثين شخصا ؛ . . منهم سبعة عشر عراقيا أى بنسبة ½ ٥١ ٪ تقريباً وعشرة حجازيون أى بنسبة ½ ٣٠ ٪ تقريبا ، وستة شاميون أى بنسبة ⅕ ١٨ ٪ تقريباً . . فنصيب العراق من المرجئة ، والقدرية والشيعة جميعاً ، أكثر من نصيب الحجاز كثيراً وإن كانت نسبة القدرية فى الحجاز لهذا العهد ، لا تتفق مع ما ينقل عن « ابن تيمية » من : أن أكثر الخوض فى القدر كان بالبصرة والشام ؛ وبعضه فى المدينة لأن ما بالمدينة على هذه النسبة يقارب ضعف ما فى الشام ؛ وإن يكن اعتباريا ، فربما كان نشاط القول بالقدر قولا نظريا والاستدلال له مثلا أقوى فى الشام منه فى المدينة . . .

على أنا نتحدث عن القرن الثانى فقط ، وحكم « ابن تيمية » أعم من ذاك وأوسع ... وعلى كل حال فللمدينة لهذا العهد، تلك النسبة المئوية الواضحة من القدرية . وقد يكون من شواهد تفشّى القدرية بالمدينة ما يروى من أنه فى زمن « المهدى » قد أخذوا أهل القدر بالمدينة وضربوهم ونفوهم على ما فى رواية « الخطيب » [تاريخ بغداد ٣٠١/٢] .

« والطبرى » يحدثنا — ١٦/١٠ — أن « المهدى » كتب إلى «جعفر بن سليمان» وهوعامل المدينة أن يحمل إليه جماعة اتهموا بالقدر، فحمل إليه رجالا سمى منهم « ابن جرير » أربعة ، بينهم « عبد الله » الذى جد أبيه « عمار ابن ياسر » الصحابى ، وقد انبرى « للمهدى » من بينهم فقال له : هذا دين أبيك ورأيه . قال « المهدى » : لا ، ذاك عمّى « داود » . قال : لا ، إلا أبوك ، على هذا فارقنا ، وبه كان يدين . فأطلقهم « المهدى » .

وسنرى الإمام « مالكا » ينشط للرد على القدرية بخاصة ، ويؤلف فى ذلك تأليفاً مفرداً ، وهذا مما قد يكون أثراً لاستئثارهم بالبيئة الحجازية .

ثم يمكن للتاريخ بعد ذلك أيضاً أن يعتبر المدينة مصدر القول بالإرجاء، إذ أول من قال به هو « الحسن بن محمد بن على بن أبى طالب المدنى » ، وكان يكتب فيه الكتب إلى الأمصار على قول « الشهرستانى » فى

[الملل[١] والنحل] وإن كان « ابن العماد » فى [شذرات الذهب[٢]] ينقل أنه : رُوى أن « الحسن » هذا صنف كتاباً فى الإرجاء ثم ندم عليه . وهى رواية لا تنفى أولية « الحسن » فى القول بالإرجاء ، وإن أثرت فى خبر إنفاذه الرسائل إلى الأمصار . . .

وبهذا يكون نصيب البيئة المدنية من المقالات ليس قليلا إلى الحد الذى يميل إليه القائلون بتمييزها فى هذه الناحية ؛ فلها صلتها بالإرجاء ، ولها فى القدر نسبة ظاهرة فى هذا المعنى بخاصة . . . تلك هى : إن القول بالقدر يتصل فى نظر القائلين به من علماء هـذا الزمن بفكرة سياسية ، سببها هذا الحكم المطلق الذى أشرنا إلى سيادته فى البلاد الإسلامية . وإليكم خبراً يبين هذه الصلة . . . ذلك هو : أن « الحسن البصرى » قيل له يا أبا سعيد ، إن هؤلاء الملوك يسفكون دماء المسلمين ، ويأخذون أموالهم ، ويقولون : إنما تجرى أعمالنا على قدر الله تعالى . فقال « الحسن البصرى » : كذب أعداء الله[٣] .

فالملوك على ما سمعنا يجعلون الأفعال لله ، وينالون من الناس بذلك ما يشاءون ، والعلماء يُسألون ، فيجعلون الأفعال للناس ، ليحملوا الملوك مسئولية

---

(١) ١٩١/١

(٢) ١٢١/٢

(٣) ابن العماد : (شذرات الذهب) — ١٣٨/١

أعمالهم . « والطبرى » يروى لنا عن « الحسن البصرى » خبراً آخر مع أحد الأفراد يريد فيه « الحسن » أن يحمل الرجل مسئولية عمله ، وذلك أنه : جاء رجل إلى « الحسن » فقال : إنه طلق امرأته ثلاثا . فقال : إنك عصيت ربك ، وبانت منك امرأتك ؛ فقال الرجل : قضى الله ذلك علىّ . فقال « الحسن » ما قضى الله ، أى ما أمر الله عز وجل ، وقرأ هذه الآية : « وَقضى ربكَ ألاَّ تَعبُدوا إلاَّ إيَّاه[١] » « فالحسن » كما نرى بوضوح ، يحمّل الرجل مسئولية عمله، حينما أراد الرجل أن يهرب بقوله : قضى الله ذلك علىّ. فتحميل الملوك مسئولية عملهم هو الناحية السياسية الخطرة التى روّجت ـ على مايظهر ـ لفكرة القدرية فى ذلك العهد . ولعله مما يؤيد ذلك الملحظ ، أن العدل من الملوك قد يكون قدريا ، فهذا « يزيد بن الوليد » الخليفة الأموى الملقب بالناقص وأحد العدلين فى بنى أمية وصنو « عمر بن عبد العزيز الأشج » وهو الذى قتل سلفه « الوليد » لإلحاده ، قيل إن هذا الخليفة كان قدريا[٢] ، وكان للقدرية عليه تأثير فى تصرفاته[٣] . وكان « عمرو بن عبيد » المعتزلى الزاهد الشهير من دعاة « يزيد الناقص » هذا فى أيام بنى أمية[٤] . . . فصلة

---

(١) الطبرى : (تاريخ الأمم والملوك) ـ ٩٥/١٣

(٢) ابن الأثير : ١١٥/٥

(٣) المصدر السابق ـ ١١٤،١٠٨

(٤) الشهرستانى : (الملل والنحل) ـ ٣٢/١

الفكرة القدرية بالحياة والعدالة هى التى جعلت جلة من العلماء ينسبون إليها « كعطار بن يسار » الفقيه المحدث ، « والحسن البصرى » ، « ومكحول » وغيرهم على ما سبق .

على أنا بعد ذلك نقف عند هذا الخبر عن « الحسن » ، وقفة تتصل ببيئة المدينة التى نتكلم عنها من الناحية الدينية ، فنرى فى الرواية السابقة التى سئل فيها « الحسن » عن عمل الملوك ، أن الذى كان يسأل « الحسن البصرى » هذا السؤال عن عمل الملوك هو « معبد الجهنى » الذى تنسب إليه أولية القول بالقدر ، ومعه « عطاء بن يسار » الفقيه المدنى قاضى المدينة ، والذى يعد من القدرية[1] « فالحسن البصرى » يلقن « معبدا » هذا القول بالقدر على ما سمعناه ، ويلقنه « لعطاء المدنى » ، « والحسن البصرى » هذا إنما نشأ بالمدينة نفسها ، وحفظ كتاب الله فى خلافة « عثمان » ، وسمع « عثمان » وهو يخطب مرات ؛ وعلمه ــ على ما نستطيع أن نرجح ــ مدنى لنشأته ، فهلا نقول من ذلك كله : إن للمدينة صلة غير ضعيفة ــ بل صلة قوية ــ بالفكرة القدرية ، وهذا قاضيها ومفتيها «عطاء» فى نهاية القرن الأول كان يرى القدر ؟ لعلنا نستطيع ذلك فى غير كبير تحرج .

وهذه الفكرة القدرية فى أفعال العباد ، هى الفكرة الاعتزالية التى

---

(١) الشذرات : ١/١٣٧، ١٣٨

تلقاها المعتزلة عن القدرية الأولى ، وبها دُعوا قدرية ، فإذا كانت للمدينة صلة قوية بالقدرية ، فلها إذن صلة غير ضعيفة بالاعتزال ومبادئه من حيث المنشأ والأصل ، وإن لم تكن صلتها به من حيث الانتشار والرواج فيما بعد ، على مثل صلتها بمنشئه . . .

ومن هنا اتضح لنا أن ما ينعاه المدنيون على العراقيين ، من نشأة المقالات والفرق ، ليست المدينة بمنجاة منه إلى الحد الذى يريدونه لها .

وسنرى المدينة منشأ مقالة سلفية فى الصفات ، لعل رأسها إمامنا « مالك » رضى الله عنه على ما سنبينه عند تصوير شخصيته الدينية. ولعلنا نستطيع القول استنتاجاً: أن ما وصفنا من أمر الزندقة قريبا ، كان بالحجاز أقل تفشياً وأضيق انتشاراً، لما توافر للعراق من عوامل اجتماعية تدفع إلى هذا التمرد ، وقلة ذلك بالحجاز.

* * *

والمتحدث عما بين المدينة والعراق من الناحية الدينية ، لا ينبغى له أن يغفل عمل السياسة فى هذه الناحية ، ومثلها مما لا يمكن أن تغفل السياسة العناية به . . . لقد نرى تقدير الأمويين للمدينة ورجالها ولا سيما الصالحين « كعمر بن عبد العزيز » ، وإن كانت الأحداث السياسية إذا جد الجد ، لا ترحم مكة ولا مدينة ، ولا مثل يوم الحرة وحصار الكعبة .

ثم يجىء العباسيون ويؤسسون بغداد ، وينشىء « المنصور » فيها قصر الذهب وغيره فيزعم لنا مؤرخ من أبناء عصرنا ــ هو صاحب [تاريخ التمدن

الإسلامى] ـ صنع الله له ـ يزعم أنه لما أفضى الأمر إلى بنى العباس ، وأراد « المنصور » تصغير أمر العرب و إعظام أمر الفرس ، لأنهم أنصارهم وأهل دولتهم ، كان من جملة مساعيه فى ذلك تحويل أنظار المسلمين عن الحرمين . فبنى بناء سماه القبة الخضراء حجا للناس ، وقطع الميرة عن المدينة ، وفقيه المدينة يومئذ الإمام « مالك » الشهير ، فاستفتاه أهلها فى أمر « المنصور » فأفتى لهم بخلع بيعته فخلعوها ، و بايعوا « محمد بن عبد الله من آل على » . . . الخ[1] . وهذا حديث عن بيئة المدينة وما بينها و بين العراق من الناحية الدينية ، سمعتموه يمتد إلى « مالك » نفسه ، فليس غريبا أن نقف عنده وقفة مدققة ، نبتغى الحقيقة .

« المنصور » يبنى القبة الخضراء حجا للناس ؟ ! خطب ـ إن صح ـ جلل ، فهل ترونه صح ؟ لقد بنى « المنصور » ببغداده قبة يقول « الخطيب البغدادى » إنها كانت تاج بغداد وعلم البلد ، ومأثرة من مآثر بنى العباس عظيمة ، بنيت أول ملكهم ، وكانت هذه القبة الخضراء تقوم سقفا على إيوان فى صدر قصر الذهب « للمنصور » وكانت رأس القبة الخضراء ترتفع عن الأرض ثمانين ذراعاً ، وكانت هـذه القبة ترى من أطراف بغداد[2] . الخ مايقال فى وصفها . تلك هى القبة ، وأما الرغبة فى تحويل أنظار المسلمين عن الكعبة إليها ، فتهمة يجبه

(١) جورجى زيدان : (تاريخ التمدن الإسلامى) ـ ٢/٣٠ ، جـ ٣/٧١ ، جـ ٥/٩٣
(٢) الخطيب البغدادى : (تاريخ بغداد) ـ ١/٧٣

« المنصورَ » بها فى حياته ، « النفسُ الزكية محمد بن عبد الله » إذ يصعد منبر « الرسول عليه السلام » عند خروجه ، فيخطب فى أهل المدينة قائلا :

أما بعد أيها الناس ، فإنه كان من أمر هـذا الطاغية عدو الله « أبى جعفر » ما لم يخف عليكم من بنائه القبة الخضراء التى بناها معاندا لله فى ملكه ، وتصغيراً للكعبة الحرام . الخ ما خطب به . كذلك نقل هذه الخطبة «ابن جرير الطبرى[1] » و « ابن الأثير[2] » . وغيرهم . وتداولها بيننا مؤرخون محدثون[3] يرددون هذه المقالة . فالتهمة تهمة ثابتة .

لـكن عالما هنديا من أبناء العصر ، هو المرحوم « الشيخ شبلى النعمانى » قد كتب كتابا فى نقد صاحب [تاريخ التمدن الإسلامى] ، وعرض فيه لمسألة القبة الخضراء هذه ، ينقدها على أساس : أن من يدعى الخلافة — وهى منصب دينى — لا يجد لذلك سبيلا إلا بالتظاهر بالدين ، ونصب نفسه لإعلاء كلمته ورفع مناره ولذلك كان الخلفاء — بنو أمية والعباسية كلاهما — يصلون بالناس ويؤمونهم ، ويحضرون الموسم ، ويحجون بهم . . . الخ ماذكره من شواهد العناية بالدين ، وخلع الخلفاء المستخفين بشىء من ذلك ، حتى ينتهى إلى القول فى شأن القبة الخضراء فيذكر ما عبارته : « فهل تصدق بعد كل

(١) تاريخ الطبرى : ٩/٢٠٤،٢٠٥

(٢) تاريخ ابن الأثير : ٥ /١٩٧

(٣) من هؤلاء « الشيخ الخضرى » فى (محاضراته) — ٢/٨٢

ذلك بأن المنصور أو المعتصم ، كان يقدر أو يسوغ له أن يصغر شأن الكعبة ويئس من شرفها ؟ » تلك خلاصة ما قال « الشيخ النعمانى[١] » .

وأما النصوص التاريخية عن صنيع « المنصور » فيقول عنها ما عبارته :

« فأما استشهاد المؤلف فى هذه الواقعة بابن الأثير وغيره ، فكله تحريف وتدليس وسوء تأول ، ولولا أننى سئمت من كشف دسائسه مرة بعد أخرى ، لأوضحت الأمر وبينت حقيقة الحال » . وليت الشيخ لم يسأم فكان يبين لنا حقيقة الحال فى هذه النصوص الخاصة بالقبة الخضراء ، لشناعة التهمة فيها . . .

وهذا النقد الإجمالى الذى ساقه الشيخ لا يشفى النفس ، لأن السياسة لادين لها ولاقلب ، فليس يكفى فى رفع عمل « المنصور » أنه يحترم الدين لأنه خليفة ، فهذا العمل فى نصب تلك القبة لتقدس ، ضرب من الانتفاع باحترام الدين فى كسب القلوب ولو فى ظن من يفعل ذلك ، وحسابه الخاطئ على الأقل . . . وقد ادعت شيعة العباسيين لهم أنفسهم، وفى أشخاصهم و بيوتهم ، ما لا يعقل، كما قامت الراوندية ـ شيعة ولد « العباس بن عبد المطلب » مثلا ، مع هذا « المنصور » نفسه ، فقد كانوا يزعمون أن ربهم الذى يطعمهم ويسقيهم هو « المنصور » ذاته . وقد خرجوا فأتوا قصر « المنصور » فطافوا حوله ،

---

(١) كتابه فى نقد مؤلفات زيدان : ص ٥٢ ، ٥٣ .

وقالوا هذا قصر ربنا . فحبس رؤساءهم وقاتلهم الخ المعروف من خبرهم[١] .

فليس من المستبعد ـ وفى الناس أمثال هؤلاء ـ أن يتخذ لهم قبة خضراء تنافس الكعبة ، ولا يكفى فى نقد هـذه الرواية أن واجب « المنصور » هو إعلاء كلمة الدين فلا يفعل ذلك .

وإذا كنا لا نكتفى بمثل هذا النقد الإجمالى العام الذى ليس له أساس قوى ، فلسنا نقر للعراق نهائيا باتباع مثل هـذه الأساليب فى مناوأة المدينة ، ولا نلزم « المنصور » هذه الفعلة آخر الأمر ، بل سنحاول أن ننقد الحادثة نقداً نطمع فى أن يكون ذا أساس .

وفى النصوص التاريخيـة منافذ لهـذا النقد الدقيق ، وسبيلنا إليها أن « المنصور » ابتدأ أساس بغداد سنة ١٤٥ ، وبالتحديد ، تقول الرواية إنه أمر ببنائها بعد مائة سنة وأربع وأربعين سـنة ، وأربعة أشهر وخمسة أيام من الهجرة[٢] . أى أنه أمر ببنائها لخمس ليال خلت من جمادى الأولى سنة ١٤٥هـ و « محمد النفس الزكية » ، خرج بتحديد المؤرخين لليلتين بقيتا من جمـادى الآخرة سنة ١٤٥ ، وقيل رابع عشر شهر رمضان من هـذه السنة[٣] فعلى

(١) الفخرى: /١٤٢، ١٤٣ ــ والمسعودى: مروج الذهب، من هامش ابن الأثير ــ ٨/٦٠٨.
(٢) الخطيب البغدادى . تاريخ بغداد ــ ١/٦٧
(٣) راجع « ابن الأثير : » ــ ٥/١٩٦ والخطيب البغدادى ــ ١/٦٧ . وهنا يلاحظ أن (دائرة المعارف الإسلامية) (مجلد ٤/٨) تقول : « فأتموا ــ أى العمال ــ فى أربع سنوات ، إنشاء مدينة عظيمة على الشاطىء الغربى الخ » . وما فى (تاريخ بغداد) يجعل تمامها سنة ١٤٦ أى بعد نحو عامين، وربما كان ما فى (الدائرة) أخذا عما ورد فى (تاريخ بغداد) فى الموضع السابق ونصه : واستتم حائط بغداد وجميع عملها بعد مائة سنة وثمان وأربعين سنة وستة أشهر وأربعة أيام من الهجرة.

الرواية الأولى يكون بين الأمر بالبناء وخروج « محمد » أقل من شهرين ، وعلى الرواية الثانية يكون بينهما أربعة أشهر وعشرة أيام، وعلى كلتا الروايتين لا يكفى شهران ولا تكفى أربعة أشهر ، لإتمام بغداد ورفع القبة الخضراء حجًّا للناس وصرفاً لهم عن الكعبة ، ولا نكتفى فى هذا بالاستنتاج بل نجد النص فيه إذ يقول «الطبرى » فى [تاريخه] و « ياقوت» فى [معجم البلدان][1] : فلما بلغ السور مقدار قامة اتصل به ـ أى « بالمنصور » ـ خروج « محمد بن عبد الله » فقطع البناء حتى فرغ من أمره وأمر أخيه « إبراهيم بن عبد الله » فحين خرج « محمد » وأخوه كان السور مقدار قامة .

وهم يبنون السور أولا كما تصرح بذلك الرواية إذ تقول : « و بنى لها أربعة أبواب ، وعمل عليها الخنادق وعمل لهـا سورين . . . ثم بنى القصر والمسجد[2] » وهذا القصر هو قصر الذهب الذى كانت فيه القبة الخضراء . وليس هذا الخبر بإيقاف البناء هو كل ما هنالك ، بل إن رواية « الخطيب » فى [تاريخ بغداد] تحدد يوم سكنى « المنصور » بغداد وفراغه من بنائها بما نصه :«وفرغ « أبو جعفر »من بنائها ، ونزلها مع جنده ، وسماها مدينة السلام بعد مائة سنة وخمس وأربعين سنة ،وأربعة أشهر وثمانية أيام من الهجرة[3] »

---

(١) ياقوت : ٢ /٢٣٣ ط مصر ـ والطبرى : ٢٤١/٩ والعبارتان متقاربتان .

(٢) الخطيب : (تاريخ بغداد) ٧٣،٧٢/١

(٣) الخطيب : (تاريخ بغداد) ٦٧/١

أى فى الثامن من جمادى الأولى سنة ١٤٦ هـ ، بعد موت « محمد بن عبد الله » ببضعة أشهر . فلم تكن القبة الخضراء قد رفعت ولا قاربت الارتفاع، ولا استمر فيها البناء حينما خرج « محمد » بالمدينة فى جمادى الآخرة أو فى رمضان سنة ١٤٥ ، بل كان السور قد بلغ مقدار قامة ، ولم يبن غيره حين خرج « محمد » ، و إنما أوقف خروجه وخروج أخيه البناء زمناً غير قصير . فالعبارة الواردة فى خطبة « محمد » بالمدينة ، و إيراد المؤرخين لها دون تعليق ، مما لا يقبل ولا يُسلم ، لأسباب مادية سمعناها من الروايات التاريخية .

وليس علينا بعد ذلك أن نبين سبب وقوع هذا الوهم ، أو الزيادة الباطلة فى خطبة « محمد » التى اتهم فيها « المنصور » ، ففى ميدان العصبية والتشيع والدعاية السياسـية متسع لهذا ، ولأكثر من هذا كثيراً ، على اختلاف الأجيال . . .

كما لا يعنينا أن نبين سبب بناء « المنصور » لهذه القبة الخضراء ، وهل كانت محاكاة لقبة خضراء بناها «الحجاج» قبل ذلك بواسط، وكانت لا تزال قائمة لعهد « المنصور[1] » ؛ وقد أخـذ « المنصور » أبواب واسط مدينة « الحجاج »، فجعلها كذلك أبوابا لبغداده[2] ؟ أو كان سبب بناء القبة الخضراء

---

(١) المسعودى : (مروج الذهب) — هامش ابن الأثير — ٨/٦٩

(٢) ياقوت : (معجم البلدان) — ٢/٢٣٦ . وتاريخ بغداد — ١/٧٥

شيئاً غير هذه المحاكاة .. ؟ لأهل التاريخ بيان ذلك كله ، أما نحن فحسبنا أن ننتهى إلى أن ما بين العراق والمدينة لم يصل إلى هذا النوع من المنافسة ، حتى يتخذ خلفاؤها ما يصرفون به النظر عن الكعبة والحجاز . وإن القول باستفتاء « مالك » فى صنيع « المنصور » هذا وإفتائه بخلع طاعته ، والتحلل من بيعته ، قول لا نجد له أساساً ، لأن القبة الخضراء نفسها لم يكن قد قوى أساسها عندما خرج « النفس الزكية » .....

إن « مالكا » قد أفتى الناس عند خروج « محمد » كما قدمنا ، وكان رأيه أن بيعة « المنصور » بيعة إكراه .. وقد كان هذا ولا شك ، تقديراً لأسلوب حكم « المنصور » ورأيا فى استحقاقه الخلافة ، لكن ذلك كله لغير اتخاذه القبة الخضراء على ما يظهر ... نعم إن العراقيين كانوا ينافسون المدينة ويعملون على نقل جلة الرجال إلى العراق تقوية لملكهم وجلبا للقلوب ، حتى يقول المالكية اعتزازاً بهذا : إنه لما صارت الخلافة إلى بنى العباس وسكنوا العراق وكانوا علماء ، أرادوا إظهار السنة بالعراق ونقل علماء المدينة إليها ، وطلبوا « ربيعة بن عبد الرحمن » ، و« يحيى بن سعيد » الأنصارى ، وغيرهما . وارتحل إليهم « هشام بن عروة » ، و« عبد العزيز بن أبى سلمة الماجشون » ، « ومحمد ابن اسحاق » صاحب [السير والمغازى] ..

ولم يخل بلاط خليفة من خلفاء بنى العباس ، من مدنى يستقضونه قضاء العراق، ويتخذونه وزيراً ومشيراً بالسنة إذا أرادوا العمل بها[١] . ونجد ممن طلبوا انتقاله إليهم « ابن أبي ذئب ـ محمد بن عبد الرحمن » أقدمه « المهدى » بغداد وحدث بها ، ثم رجع يريد المدينة فمات بالكوفة[٢] وهذا ومثله مما لا شىء فيه ..

على أنا بعد ذلك كله، نقدر أن هذا الخبر المتزيد أو الباطل من أساسه عن قبة « المنصور » ، يدلنا دلالة تاريخية على ما كانت تتجه إليه النفوس من فكرة التفريق بين بيئة المدينة الحجازية ، والبيئة العراقية ، لاعتبارات دينية ينفس بها العراقيون على الحجاز مزاياه ، وفضله بقيام الحرمين فيه ، وهو شىء مما يتقى خطره عند تلقى الروايات التاريخية التى تمس مثل هذا الموضوع وتدور حوله .

---

(١) الزواوى : مناقب مالك ــ ٥٦
(٢) تاريخ بغداد ــ ٢ /٢٩٦

(١٢)

أما البيئة المعنوية للعالم الإسلامى إذ ذاك من الناحية الاجتماعية :

فتتسع لجوانب فسيحة من البحث ، كلها لا بد منه لمن يؤرخ فقيهاً يشرع لتلك البيئة . كما لا بد للفقيه نفسه حين يشرع ، من الاتصال القوى بتلك الجوانب ... والمركز العالمى للأمة ، والكرامة السياسية بين الأمم جانب من تلك الجوانب... ونظام الاجتماع وطبقات المجتمع المختلفة ، وعلاقة ما بين تلك الطبقات ، جانب هام ... ثم درجة هذا المجتمع من التحضر وأثر تلك الحضارة فى النفوس والأخلاق جانب آخر . . إلى جوانب غير هذه هى فى الحق لباب التاريخ وصميمه ؛ لكننا ننال منها ــ فى إجمالٍ موجز ــ مالا نستغنى عنه .

***

فأما المركز العالمى للأمة الإسلامية ، عصرَ « مالك » ، فهو مركز القيادة والإرشاد ؛ فحين ولد « مالك » ، فى أصيل القرن الأول الهجرى ، كانت نسائم الأطلنطى ، تحيى الأعلام الإسلامية الخافقة فى الأندلس غربا ؛ وكانت كتائب الحضارة ، تحاول تنفيذ ما أمله الطامحون من الوصول إلى القسطنطينية ، عبر أوربا ، عن طريق الأندلس ، بعد ما كانت تلك الكتائب قد وقفت مراراً على شواطىء البسفور ، وتحت أسوار هذه القسطنطينية. تنذر

الرومان وتبشرهم برسالة الإسلام وفى حياة «مالك» وصلت هاتيك الكتائب إلى قلب فرنسا وقاربت باريس ... كما كاد بحر الروم ، أو البحر الأبيض المتوسط يعود بحيرة إسلامية ، إذ أذن فى شواطئه الجنوبية ، دعاة العدل والمدنية ، وأصاخ سكان شواطئه الشمالية لرسالة أولئك الداعين ، مقدرين أن حدثاً جديداً ، قد عم العالم ، وهز أسس الظلم والاستبداد ، وعبادة الأشخاص والجامدات . فى حين كانت تلك الكتائب ، قد وطئت حدود الصين شرقا ، وختنت أبناء ملوكها ، وأبلغتهم رسالة التوحيد ، . . وإنها لعزة تسمو بها الأرواح ، وتبعث فى أفراد تلك الأمة الحياة والأمل ، وتبسط أمامهم آفاقا من النظر الفسيح ، والإدراك الصحيح لنظام الكون . . .

وفى حياة « مالك » أيضاً ، تقسمت تلك الإمبراطورية الفسيحة دولتان إذ سقطت الأموية فى الشرق فلاذت بالأندلس ، وعشش صقرها على دوحه ، و بسط جناحه على أنحاء الجزيرة الغربية ، ينشر عليها بسلطانه ، ظل الأمن ويؤدى رسالة الإسلام إلى أوربا الغربية . . . كان عداء مستحكم بين العباسية فى الشرق والأموية فى الغرب ، ويئست العباسية من القضاء على تلك الدولة النائية ، فذهبت توازن العالم القديم موازنة سياسية ، محورها الدولة الإسلامية والسيطرة الإسلامية ؛ فوصل الشرقيون حبلهم بالسلطات السياسية فى غرب أوربا ؛ وأهدى « الرشيد » إلى « شارلمان » ، هداياه

التاريخية المشهورة ، ومنحه ومنح النصارى على يده فى الشرق ، منحا يستديم بها وده ، ويقيمه عدواً للدولة الأموية المعاجزة لسلطانه فى الغرب ..

وكذلك بسط الأمويون يدهم لرومان الشرق فى القسطنطينية يوادونهم ، ويهادونهم ، ليقيموا منهم عدواً دائماً للدولة الإسلامية الشرقيـة فى بغداد ؛ وهى التى كانت تغزوهم مسانهة ، فى نظام مطرد . .

وهكذا كان لسان الميزان السياسى فى اليد الإسلامية ؛ والقوى السياسية فى العالم ، تلوذ من السيطرة الإسلامية بملاذ فى الشرق أو الغرب .. والمسلمون يدركون مكانتهم العالمية ، وسموها فى كل مكان ، وعلى أساس هـذا التقدير ينظرون فى شؤون الدنيا ، وأصول الحقوق ، ونظم ما بين الناس من روابط ؛ ويفتيهم « مالك » وأضرابه من رجال التشريع .

وإذا كانت تلك هى حال العالم الإسلامى جملة، فلا تزال تجد للبيئة الحجازية فى هـذا الموقف المزدوج مركزها الخاص : فهى قبلة الدولتـين ، ومهوى أفئدتهم ، وموضع القسطاس بينهم ؛ يؤمها المغاربة والأندلسيون حاجين ، فلا يلمون بالعراق ، ولا يلقون أهله ، بل يأخذون عن الحجاز ، وينقلون علم الحجازيين ؛ حتى ظهر أثر هذا العلم فى حياة « مالك » نفسه ، وسمعناه يقول

« للمهدى » الخليفة ، حين طلب إليــه ، أن يضع كتابا يحمل الأمة عليه : أما هذا السقع ـ وأشار بيده ـ إلى المغرب ، فقد كفيتــكه[1] . .

وما ذلك إلا بفضل هذه الصلة ...

وكان من مظاهر هـذه العزة ، أن تحمل إلى « مالك » أخبار الأندلس وحكومتها، فيعلن رضاه عنها ، إعلانا يؤيد به نقده للعباسيين ، أو نفوره من ممالأتهم ، ذلك النفور الذى بدا ، فى تأييده لخروج « النفس الزكية » على ماسلف ؛ فقد سأل « مالك » عن سيرة « عبد الرحمن بن معاوية » الأموى الداخل إلى الأندلس والتملك بجزيرته ، فقيل له : إنه يأكل خبز الشعير ، ويلبس الصوف ، يجاهد فى سبيل الله . وعددت مناقبه فقال « مالك » : ليت أن الله زين حرمنا بمثله[2] .. وبلغ هذا « عبد الرحمن » فسر به ، حين نقم العباسيون ذلك ، وعد سبب محنة الإمام ـ فى رأى ـ على ما سنبينه بعد .

وهكذا تقف البيئة الحجازية بفضل بسطة الملك، بين الدولتين ، وتبسط علمها حيث لا تبلغ سيطرة المتحكمين فى الشرق ؛ فيــكون لحياة الفقه المالــكى بتلك الأقطار النائية ، القريبة إلى حياة البداوة المشبهة للحياة الحجازية ـ على

---

(١) الزواوى : مناقب ٢٧

(٢) ابن نباتة المصرى : سرح العيون ـ شرح رسالة ابن زيدون / ١٨٠

مالحظه « ابن خلدون[١] » ـ أثر فى حياة ذلك الفقيه يتبينه مؤرخه .

***

وحينما نعرض لهذا المجتمع الإسلامى ، من حيث نظام طبقاته ، وصلة ما بينها ، لنعرف ما تأثرت به من ذلك حياة « مالك » ، وما تأثر به تفكيره التشريعى ، نحب حينذاك أن نلفت النظر إلى أن « مالكا » ، قد عمر بضعة وثمانين عاما ، تطور خلالها المجتمع العربى بلا شك ، تطوراً كبيراً فى نظامه الاجتماعى ، فقد امتازت هذه الحضارة العربية بسرعتها فى كل شىء ، فكانت حركة فتحها سريعة ، سرعة لم تعهد لغيرها ؛ ولعلها كانت كذلك نهضتها العلمية والعملية ... هذا إلى ماتعرضت له الحياة الإسلامية ، خلال القرن الثانى الذى عاش « مالك » أكثره، من مؤثرات قوية عنيفة، من حيث السياسة، والاقتصاد ، والعلم ، والاتصال بالأمم. فبينما كانت تقوم الحياة العربية، إذ « مالك » غلام أو شاب ، على عصبية قوية ، تمضى من المبالغة والإفراط فى التعصب إلى حد كبير يمثله ما يروى عن رجل من « بنى شيبان » أنه يقول :

---

(١) المقدمة ـ / ٣٩٢ ط مصر

كنت أسيرا مع بنى عم لى وفينا جماعة من موالينا ، فى أيدى التغالبة ، فضربوا أعناق ابنى عمى ، وأعناق الموالى ، على وهدة من الأرض فكنت ، والله ، أرى دم العربى يمتاز من دم المولى ، حتى أرى بياض الأرض من بينهما ؛ فإذا كان هجيناً قام فوقه ، ولم يعتزل عنه[1] .

بينا كان ذلك ـ أو قريب منه ـ هو ما تجنح إليه النفس العربية ، إذا بنا نرى فى اكتمال شباب « مالك » ، أن « إبراهيم الإمام » العباسى القرشى ، يوصى سنة ـ ١٢٨ هـ ـ « أبا مسلم الخراسانى » ، فيكون من وصيته له : وإن استطعت ألا تدع بخراسان ، من يتكلم بالعربية فافعل[2] . وإذا بنا بعد أربعين سنة من هذا التاريخ ، نسمع صوت العروبة ، يرتفع بالشكوى إلى « الخليفة المهدى » قائلا : يا أمير المؤمنين ؛ إنا أهل بيت قد أشربت قلوبنا حب موالينا وتقديمهم ، وانك قد صنعت من ذلك ما أفرطت فيه ؛ قد وليتهم أمورك كلها ، وخصصتهم فى ليلك ونهارك ، ولا آمن تغيير قلوب جندك وقوادك

---

(١) الأغانى ط الساسى ـ ٢١ / ١٣٦

(٢) ابن الأثير ـ ٥ / ١٣٠

من أهل خراسان . فيقول «المهدى» : «إن الموالى يستحقون ذلك » . و يبين وجه استحقاقهم هذا الإيثار[1] .

فهذا التطور السريع لحال المجتمع الإسلامى فى حياة « مالك » ، يجعل مهمة المؤرخ ، حين يتحدث عن نظمه الاجتماعيـة ، دقيقة لا يسهل فيها الحـكم ، ولا يهون ضبط مقدماته ، من شواهد الحوادث والأقوال .. فسنحاوله حذرين مااستطعنا .

وثمة ملحظ آخر هو : أن التاريخ الحق حينما يصف هذا المجتمع ، إنما يذكر من أمره ، ما كان واقعاً جارياً ، لا ما كان الإسلام يرجوه له ، و يعلمه إياه ، و يحب أن يكون من شأنه ؛ فما يتقرر من وصفه ، لا يمس مبادىء الإسلام ولا يغض من سموها وحيويتهـا ؛ لأن الذى كان شىء ، والذى ينبغى أن يكون شىء آخر ، ولا بد من تقدير الفرق بينهما ..

* * *

من أوضح صفات هذا المجتمع أنه : لم يكن متجانساً ، فهو يتألف مبدئياً من آريين فى الشرق ، وساميين فى الغرب ؛ كانا يؤلفان الجناحين الـكبيرين لبغداد عاصمة العباسيين ، التى قامت بينهما مقام القلب .

---

(١) الطبرى : ١٠/١٤ ط مصر

وفى ثنايا الجانبين توزعت شماطيط مختلفة ، كما تتنازع الألوان ريش الجناح الواحد ، فمن بيضاء إلى صفراء إلى سوداء إلى غير ذلك ؛ فكان بين العنصرين الأساسيين ، عناصر مختلفة من ترك، وتتر، يمتون إلى الجنس الأصفر وسودان وحبش وأشباههم ينزعهم الجنس الأسود .

وهكذا لم يكتمل التجانس للمجتمع الإسلامى فى كبرى صوره ، كما لم يكتمل تجانسه فى صغرى صوره. فدور الدرب الواحد تتألف كذلك من عناصر مختلفة قد يقوم فى كل دار منها عنصر . . ثم الأسرة تتألف هذا التأليف المختلف : فيها العربى السيد ، والزوجة العربية حينا ، والجوارى التركيات والروميات ، والصقلبيات ، و و و ...

وحلقة الدرس ، قد يرأسها سندى لا يفصح ، وتنتظم من الطلبة الهندى ، والفارسى ، والرومى ، وهلم جرا .

والرجل الواحد كذلك تنزعه عروق مختلفة : فهو عربى وفارسى ، أو هو فارسى ورومى ؛ أو تركى وهندى ؛ ذاك أبوه ، وتلك أمه ، وهذه حاضنته ، وذاك مثقفه ، وهكذا .

وفى إمامنا « مالك » نفسه ، قد رأينا أمه مولاة ـ فى رواية ـ وقد شهدنا قوة أثرها على ولدها ، ووضوح توجيهها له ؛ فمن يدرى من أى أصناف الناس ، كانت هذه المولاة ، رحمها الله ؟ !

وعدم التجانس هذا مما يجب أن يقدر المؤرخ أثره ؛ فلعل منه ما نشهد في الحياة الإسلامية من تيارات متخالفة نراها تجرى فى الوادى الواحد ..

ففى العقيدة : تجد التجريد المسرف ، كما تجد التجسيم المتطرف .

وفى العمل والسلوك : تشهد التصوف المتزمت ، إلى جانب الإقبال الدنيوى النشيط .

وفى الفنون والآداب كذلك: تجد المدارس والمذاهب المتباينة المتجاورة .

وفى الفقه الذى نؤرخ أحد رجاله : تجد فى الوقت الواحد أو البيئة الواحدة، النزعة النظرية المبالغة فى الترديد والفرض، والنزعة العملية الواقفة فى حدود الواقع والمشاهد والعملى ، وتحس عنفا فى كل ناحية من النواحى، لا نستبعد أن يكون من أسبابه ، فقـدان التجانس ، وعدم وحدة المزاج ، مما هان معه أن تجد فى المسألة الواحـدة ، كل ما يتوقع من آراء ، وما يتصور من حلول ، لأنها عطية عقول متعددة ، وأمزجة متنوعة ..

نعم إن البوتقة الإسلامية ، كانت تجمع هذه العناصر كلها ، وتُسَلِّط عليها نار الأصول الإسلامية الـكبرى ، تحضؤها المساواة والإخاء ، ولـكن هيهات أن يكون ذلك من فعل الزمن يسيراً قريب التناول ، تكفيه عشرات السنين، أو تـكمله بضعة من الأجيال . . .

فقدان التجانس هذا ، وعدم وحدة المزاج ، مما جعلنى أقول ، ولا أزال أكرر القول ، بأنه : إن صح تقسيم تاريخ جماعة من الجماعات إلى أدوار ، وأعصر ، تدرس على هذا التقسيم ، فإنه لن يهون صدق ذلك التقسيم ، وتوزيع الأعصر ، فى دراسة المجتمع الإسلامى ، الفسيح الرقعة ، المتعدد الأجناس ، المختلف الألوان ، الذى تتوزعه عوامل متعارضة ، وتدفعه قوى متنوعة . وماإخال هذا يصح فى درس حياة العقل الإسلامى ، ولا حياة الوجدان الإسلامى ، صحته فى حياة أمة أخرى واحدة المزاج ، أو حضارة أخرى محدودة العناصر ؛ فلم يكن الحكم الأموى وحدة ألفت هذا الشتات المنتشر ، ولا الحكم العباسى إكسيرا صنع من هذه المتفرقات البعيدة عنصراً ذهبياً واحداً ، حتى يقال فى تاريخ الفقه ، أو تاريخ الفلسفة ، أو تاريخ الفن : هذا عصر أموى ، وذاك عباسى أول ، وعباسى ثان . . الخ — وها نحن أولاء نؤرخ مدرسة فقهية شطرت العصرين ، وعاشت فى العهدين : فهى أموية عباسية ، وهى وراء ذلك وحدة متجانسة إلى حد مّا ؛ فهل نحتسبها على هؤلاء أو على أولئك ؛ وهى لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء ؛ وإن كان فيها من هؤلاء وهؤلاء ؟!

* * *

وأما طبقات هذا المجتمع فكانت فوق تعدد أجناسه ، يشطرها الرق شطرين أساسيين : سيد ، ومسود ؛ .. رأينا الفارسى الحر ، إلى جانب التركى الحر ، والهندى الحر ، والعربى السيد ، فشهدنا عدم التجانس . . أما هنا فالعربى الحر ومملوكه التركى أو التترى ، أو الصقلبى ؛ وهنا كذلك الحر غير العربى ومملوكه من جنس آخر .. تجعل بينهما هذه الحال فرقا بارزاً وهوة فاصلة ، ينظر إليها المسود فى غير طمأنينة ، إن لم نقل فى حنق وغيظ ، ولا يتحد مع وجودها كيان الجماعة .

كذلك كان الرق مرحلة اقتضاها نظام الحياة ؛ وهكذا بالغ فيه المجتمع الإسلامى ، واستكثر منه شرعياً وغير شرعى ، فكانت الطبقتان المتميزتان . وكانت مسألة الموالى التى نكاد نعدها محور التاريخ الإسلامى السياسى والاجتماعى .

تميزت حقوق السادة عن حقوق العبيد ، وواجبات السادة عن واجبات العبيد ، فى نظر الشرع والعرف ؛ فكانت المسألة فقهية وعملية ، اختلفت بمقتضاها مزايا السادة عن مزايا العبيد ، فى الحياة الواقعة على اختلاف مناحيها .

ونتتبع ذلك فى حياة العلماء والفقهاء بخاصة ، لأنها هى التى تعنينا .. فهذا « أبو حنيفة » تقول الرواية إن « المنصور » عرض عليه القضاء فقال له : لا أصلح لذلك لأنى مولى ، ولا يقضى بين الناس إلا ذو شرف فى قومه[1] . فمهما يقصد إلى الهرب من تولى القضاء ، فلن يهون على نفسه ، هذا التعليل ؛ وإن يهن ذلك عليه ، فلن يهون عليه ، أن يقول له رجل من بنى تيم : أنت مولاى ! ! إذ يرد عليه « أبو حنيفة » قائلا : أنا والله أشرف لك ، منك لى[2] . وأحمه يقولها مغيظا محنقا . .

وهذا « الليث بن سعد » الفقيه الثرى المحدّث ، الوجيه فى قومه ، يقول له « أبو جعفر » : تلى لى مصر ؟ فيقول له : لا يا أمير المؤمنين ، إنى أضعف من ذلك ، إنى رجل من الموالى[3] ... وهبه أيضاً يتخلص من الولاية زهداً وتديناً ، فإنه ليتخلص بأصل مقرر ، هو ضعف الموالى . .

وأكثر من ذلك ، أن يشيع بينهم وصل الشرف بالعقل ، واختصاص الأشراف بقوة التعقل ، فيكون من قولهم : إن ذوى الشرف ، أتم عقولا من غيرهم[4] . .

---

(١) الزواوى : مناقب ـــ ٢٦
(٢) الانتقاء ـــ ١٢٣
(٣) الخطيب تاريخ بغداد ـــ ١٣/ ٥
(٤) المصدر السابق ١٣ / ٢٦٠

ثم إلى جانب ذلك نرى الأحرار يعتزون بحريتهم ، ويغضبون أشد الغضب ، إذا قُذفوا بالولاء .. وهذا إمامنا « مالك » ، قد كان بينه وبين « محمد بن اسحق » صاحب [المغازى] ما كان ، من جراء ذلك ، إذ قال « محمد بن اسحق » : ان « مالكا » وأباه وجده ، وأعمامه موال لبنى تيم ابن مرة . فكان هذا سبباً فى تكذيب « مالك » « لمحمد » وطعنه عليه(١).

وشاع ما بينهما فقال « ابن اسحق » إذ ذكروا له شيئاً من علم « مالك » : هاتوا علم « مالك » فأنا بيطاره ، وذُكر قوله « لمالك » ، فقال : ذلك دجال الدجاجلة ، ونحن أخرجناه من المدينة(٢) . « فمالك » يغضب ، ويألم حين يتهم بأنه مولى . . .

ولو سمعت « إسماعيل بن حماد بن أبى حنيفة » ، الذى عاش إلى أوائل القرن الثالث ــ ت ٢١٢ هـ ــ إذ يقول : أنا إسماعيل بن حماد بن النعمان بن ثابت ابن النعمان بن المرزبان ، من أبناء فارس الأحرار ، والله ما وقع علينا رق قط . لتجسمت لك فى حروف عباراته ، نبرات الألم من الوصف بالرق . . .

---

(١) الانتقاء ــ ١١

(٢) ابن عبد البر : جامع بيان العلم (المختصر) ــ ١٩٨

هذا حال البيئة العلمية ، بل بيئة العلم الدينى ، التى يمكن أن يقال : إنها أقل عصبية ، وأدنى إلى فهم روح الإسلام ، وأكثر شعوراً بالمساواة ، وأفهم لمعنى الكرامة العلمية ، وانها أفضل من كرامة النسب ، وقد رأينا من ألمهم للرق ، فى عصر « مالك » وبعده ما رأينا ، وهو أمر طبيعى . . .

فى هذا الجو كان يتنفس الفقهاء أحراراً وموالى ... ينفر الحر نفوراً شديداً من هذا الرق ، وينطوى المولى ، على هذا الشعور المؤلم ، فيلون هذا الشعور ، ولاشك ، نظرة كل منهم إلى صاحبه ، ويؤثر فى صلة ما بينهم ، وتقدير كل واحد منهم لزميله خلقياً وعلمياً ، وكل ذلك لا بد للمؤرخ الناقد ، من أن يتبين آثاره ، ويتقى وقعها على الحقيقة . .

ثم هذا الذى سقنا من الشواهد ، كله كان حوالى منتصف القرن الثانى وأواخره ، أيام كانت العصبية قد فترت نوعا ما ، بقيام العباسية ، على ماقدمنا ... وقد عاش إمامنا «مالك» قبل ذلك نصف قرن من الزمن ، وكان واعيا حينما كانت تلك العصبيـة ، أكثر عنفاً والتهاباً ؛ إذ كان الجمهور يغضب حين يؤم النـاسَ أو يقضى بينهم غيرُ عربى ، ويضج أهل الكوفة — وهى بعيدة عن البيئة العربية — حين يولى « سعيد بن جبير » ! القضاء بينهم ، على جلالة قدره[1] . فإمامنا « مالك » ، قد يكون لما أدرك من هذا ، أشد تأثرا

(١) ابن قتيبة : المعارف — ١٥٤

بهـذه النزعة على ما سمعنا من غضبه على « ابن اسحق » .

وإذا كان هـذا ما فى بيئـة العلماء أو ما بين بعضهم وبعض ، فما بين سواد الشعب من أثر لهـذا الاسترقاق أقوى وأعنف ؛ وقد سبب اضطرابات وانقلابات ؛ ثم سبب أخيراً انفجار حركة الشعوبية ..

* * *

وإذا كان الاسترقاق ، قد قسم المجتمع الإسلامى هذه القسمة التى رأيناها فإن نظام الحكم الذى ساد فى البيئة الإسلاميـة ، على اختلاف الأزمنة ، يقسم المجتمع إلى طبقات أخرى ، من حيث قربها من السلطان ، وتمتعها بالجاه وصيانة حقوقها ، وهى طبقات تختلف عما رأينا من طبقات السادة والمسودين ، بل قد يكون فيهـا الأرقاء والموالى أوفر جاهاً ، وأعظم سطوة ، وأكثر ثراء ومتعة .

كان الخليفـة ، وأمراء الأسرة الحاكمـة يؤلفون الطبقـة الأولى فى هذا النظام ؛ ويليهم رجال الدولة من الوزراء والكتاب والولاة ، ومن إليهم ؛ وبعدهم أو معهم أرباب البيوتات ، وذوو النفوذ فى قبائلهم حينما كانت النزعة العربية تسود الحياة ؛ أو رؤساء الأسر الكبيرة ، حينما سادت العصبية المكانية وخفت الصوت العربى .

ثم يلى هؤلاء أتباعهم : من الأجناد ، والأعوان ، والخدم ، فلهؤلاء نفوذ من نفوذ ساداتهم ، يعزون بعزهم ، ويذلون بذلهم .

ووراء ذلك الشعب بمختلف صنوفه ، سواء فى ذلك علماؤه على تنوع علومهم ؛ وأرباب الأعمال الفنية ، من قول أوصنع ؛ كالشعراء والمغنين ، والموسيقيين ، وأصحاب الصناعات الفنية ؛ ثم أصحاب الأعمال من مالية ويدوية ؛ كالتجار والصناع والزراع . .

فالطبقة الأولى المؤلفة من الخليفة ووزرائه ، والأمراء ، وذوى البيوتات فيهم يتركز الجاه ؛وفى رأسهم ـ وهو الخليفة ـ يتركز السلطان . . وقد يخضع هذا الخليفة لتأثير بعض خدمه ، كجارية جميلة، ومولى لبق ، وما إلى ذلك ؛ فكان لبعض الأرقاء فى ظل السلطان نفوذ قد يفوق كل نفوذ ، ويفتك بالوزراء والأمراء ، ويقلب الدولة رأساً على عقب ؛ وكم شهدت جدران القصور الإسلامية ،تدبير هذه القوى وتآمرها ، كما شهدت اعتراك أفراد هذه الطبقات ، من وزراء وأمراء ، وذوى جاه ؛ وكان تاريخ الحياة السياسية ، صنع هؤلاء .

ثم ان هذه الجبهة مجتمعةً تدنى إليها من الطبقات التالية ، من يعتز نفوذها به ، وتتم نعمتها ؛ فالخلفاء يقدمون العلماء من أصحاب العلم الدينى ، ليثبّتوا برضاهم والتفافهم حولهم ، قلوب العامة ، وجماهير الشعب .. أو يقربون

أصحاب العلوم غير الدينية، لينتفعوا بعلمهم فى خاص حياتهم ، أو فى تقوية مرافق الدولة ، إذا كانوا ممن يدركون حاجة الحياة العامة . . .

وكذلك يفعل الوزراء لمثل هذه الأغراض العامة أو الخاصة . . ثم يقربون من عدا العلماء، كأصحاب الفنون ، إما لكسب النفوذ بهم، واعتبارهم ألسنة لهم ومصالح دعايات ، كالشعراء والكتاب أصحاب الفنون القولية ؛ وإما لمتعهم ونعيمهم كأصحاب الفنون الأخرى .

وأما من وراء هؤلاء من سواد الشعب، فهم الأبقار الحلوبة ، وهم أجلاف الناس ، وغوغاء العامة يُستغلون ويجبون ؛ وهم بمنأى من السلطان وبعد عن الجاه أو السطوة ، إلا أن تسنح ظروف لبعضهم ، وقل ما يكون ذلك . . .

هذا الوضع السياسى الذى أساسه سلطة مطلقة ، فى يد فرد ومن حوله من أعوانه ، لم يكن الشعب ليستطيع السكوت عليه والوقوف دون بحث عن معدل له ، ودون تفكير فى قوة أخرى تحد من بطشه ، فتسدى إليه النصح حيناً أو تناضله إذا لزم الأمر ، وقد كان . .

وظهرت منذ صار الحكم الإسلامى ملكاً محضاً ، نظرية مبكرة عن قوة أخرى تحمى النظام العام وتصون دستور الشريعة المنصوص فى [الكتاب والسنة] عن عبث الهوى الفردى ، وطغيان الخليفة والهيئة الحاكمة

فاستخرجت من السُّنة ، وراثة العلماء للأنبياء ، وحمايتهم للشريعة ، وأنهم هداة الشعب ، وتنوقل من الحديث مثل : (العلماء أمناء الرسول على عباد الله ما لم يخالطوا السلطان ، فإذا فعلوا ذلك فقد خانوا الرسول فاحذروهم واعتزلوهم[1]) ومثل : (صنفان من أمتى إذا صلحا صلح النـاس : الأمراء والفقهاء[2]) فوُضعت هـذه السلطة مقابل تلك ، وتكرر كثيراً أن الأمراء يحكمون الناس وعلى الأمراء يحكم العلماء ، وأُعلن أن عمـل العلماء جهاد كبير بمثل : (أفضل الجهاد عند الله كلمة حق فى مجلس حاكم ظالم) ثم خيف أن يكون تقرب العلماء من الملوك خطراً يضعف هذه السلطة المعدلة ، فحذّروا من مداخلة السلطان ، ونقلت فى ذلك أحاديث مثل : (من سكن البادية جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى السلطان افتتن) و (يكون عليـكم أمراء تعرفون منهم وتنكرون ، فمن أنكر فقد برئ ، ومن كره فقد سلم ، ومن رضى وتابع فأبعده الله) . قيل : يارسول الله أفلا نقتلهم ؟ قال : لا ، ما صلّوا ... وتوسعوا فى ذلك حتى قيـل : (إذا أتى الرجـل مجلس القاضى ثلاثة أيام بلا حاجة، فينبغى ألا تقبل شهادته) .

---

(١) ابن عبد البر : جامع بيان العلم ـ مختصر ـ ٨٧

(٢) المصدر السابق

وقد سمعنا قبل أن التطرف فى هذه الفكرة قد أدى إلى تكفير مُلابِس السلطان، وأنه لا يرث ولا يورَث ـ انظر ص ١٨١ ـ ... والمعتدل منهم يقرر المسألة على ألا يؤتى السلطان الجائر، أما العدل منهم، فمداخلته، ورؤيته، وعونه على الصلاح، من أفضل أعمال البر[١] ..

هذا من الوجهة النظرية فى تاريخ الحكم الإسلامى. أما من الوجهة العملية فكثيراً ما وفى العلماء بواجبهم فى حماية سلطة النظام الإسلامى، فقاتلوا فى هذا السبيل قتالاً كما فعل « سعيد بن جبير » إذ خرج على « الحجاج » أواخر القرن الأول، وكما فعل العلماء والقراء فى خروجهم مع العلويين « محمد النفس الزكية » و « ابراهيم » أخيه، على ما أشرنا إليه. وكذلك واجهوا المتغطرسين ووعظوا أقوياء الخلفاء وناضلوهم فى لحظات دقيقة ومواقف حرجة، وهى فى التاريخ الإسلامى صورة الأزمات الفعلية وتصارع السلطتين. كما كانت لهم مواضع تقصير خُذلت فيها تلك السلطة وخسر الشعب بسبب ذلك، فهو جذب ودفع حبذا استقصاء تاريخه.

من أجل ذلك الوضع كان مؤرخ الفقه أو الفقهاء لا يستطيع الاستغناء

---

(١) ابن عبد البر: جامع بيان العلم (مختصر) ٨٨

عن النظر فى هذه الحالة الاجتماعيـة ، لأن صلة العلماء بالسلاطين أثّرت فى تفـكيرهم وتفقههم ، كما أثّرت فى سيادة مذاهبهم وانتشارها ، ولأن شخصية الفقيه لهـا جانب اجتماعى كبير يجب أن يفهم جيداً وتدرك خفاياه بإدراك موقفه الاجتماعى ورأيه فى حكام عصره وعلاقته بهم وكيف كانت . .

والإمام « مالك » قد كانت هـذه الناحية فيـه محل قولٍ لمعاصريه وملاحظة منهم ، تكررت مواضعها فوجب الوقوف عندها فى تحليل شخصيته وتصويرها من الناحية الاجتماعية إن شاء الله .

* * *

ثم يبقى علينا فى تصوير البيئة المعنوية العامة من الناحية الاجتماعية ، أن ننظر إلى مستوى الحياة فى هذا العهد وكيف كان أثره على الأخـلاق العامة ، لنصور البيئة التى كان يعيش فيهـا المترجَم له ، من ناحيتها الخلقية ، وما لها من أثر عليه فى تقدير واقع الحياة والحـكم على أحداثها ، وما كان له من تأثر بها .

وفى العصر الذى عاش فيه « مالك » كانت حركة الفتح الإسلامى قد فترت ، وجنح المسلمون إلى جنى ثمار نصرهم، فأمسوا كما قال « ابن خلدون »: « لما جاءهم الترف وغلب عليهم الرفه ، مما حصل لهم من غنائم الأمم ، صاروا

إلى نضارة العيش ورقة الحاشـية واستحلاء الفراغ [١] . » فبدا ذلك في كل شيء من نواحي حياتهم : سمقت المباني الضخمة المزخرفة ، تزينها النقوش المتفننة ، وتموه بالذهب وما إليه، وتؤثثها الفرش الوثيرة والرياش الفخم والجوهر النفيس ؛ وظهر تأنقهم في الطعام واتخاذ ألوانه المتنوعة ، يعدها طهاة مهرة ، ويدبرها أطباء قد سهروا على حياة كبار الرجال؛ ووضح الميل إلى اتخاذ اللباس الفاخر ، من رقيق النسيج و باهر الألوان ، تحليها كرائم الأحجار وطرائف الزينة .

وأسلمتهم هذه المتع كلها إلى الشهوة المسرفة ، فاتخذوا السراري من أجناس وألوان ، في كثرة من العدد مدهشة، ومبالغة في أثمان أولئك الجواري و بذل الآلاف المؤلفة في إحداهن . ولا تسل عن مصابهم بالغلمان ! وأقبلوا على مايتصل بذلك من شراب ولهو ، وغناء وعبث ، ولعب ومجون . وكانت الرقيقات في هذا المجتمع لايمنعهن حجاب ولا يصدهن حسب ، ولا تردعهن تربية ، فقمن في هذه الحياة مقام المتبذلات اليوم في بلاد المدنية المنعمة ، وعمرن في الدور الخـاصة والعامة ما كان يزيد عن حياة النوادي (والبـارات والـكاباريهات) بل بيوت الدعارة السرية والعلنيـة . وكل أولئك إعلان للفساد له أثره على الأخلاق وفعله في النفوس كبارا وصغارا ، جهالا وعلمـاء .

---

(١) المقدمة ــ ٣٧٣

فللحياة فى هذه البيئة أثرها على النفوس فى تقدير سلطان الشهوة وغلبة الهوى وسيطرة المتعة .

لقد كان إلى جانب هذا اتجاهات وأعمال عكسية من الدعوة إلى الزهد وأخذ النفس بالتقشف ، والرياضة على كراهة الدنيا ، والدعوة إلى تحقيرها ، والتذكير بفنائها ، وما يتصل بذلك كله ، ولكن الشر لجاجة ، والخير عادة ، والنفس أمارة بالسوء . وهذا الشر أسرى سريانا من قدوة الخير ودعوة الإصلاح ومهما يفعل معسكر الفضيلة فمبلغ جهده أن يخفف بعض آثار هذه الشهوات الطاغية ، ويظل مابقى من ذلك مؤيدا بهوى الإنسان وغريزى شهوته ، تمده ثروة وفرت ، ومال كثر ، ونعمة فاضت فى تلك الأعصر ، فأحدثت رخاء ظاهرا ؛ وفى حياتنا الحاضرة مثل واضح لذلك كله ، فالناس ناس والزمان زمان ، والحقيقة واحدة وإن تغيرت عليها الألوان .

والفقهاء والمحدثون فى هذه الحياة بعض أهلها ، ولابد لدارس حياتهم ومحلل شخصيتهم من تقدير ما كان حولهم من شباك هذه الفتنة ، ووفرة هاتيك النعمة ، ووقعها على أولئك الرجال . فقد وصلتهم هبات الملوك وقبلوا عطاياهم ، ودخلت النعمة بيوتهم ، على نحو ماسنصف بعد فى حياة « مالك » الخاصة ، وحسبك مثالا صغيرا لهذا أن رجلا « كالأوزاعى » عفيفا ورعا ،

قد وصل إليه من بنى أمية وبنى العباس نحو من سبعين ألف دينار[١] . أى نحو خمسة وثلاثين ألفا من الجنيهات الحالية ، وكان له فى بيت المال من الخلفاء إقطاع ؛ كما كانت جوائز السلطان أكثر كسب « ابن شهاب » شيخ « مالك » وغيره من رجال هذا العصر .

وسنرى عمل « مالك » فى ذاك مفصلا ، كما سنحاول أن نرى تأثره بواقع هذه الحياة التى كانت حافلة حوله بما وصفنا من شئون . وذلك بعد أن ننظر نظرة مفردة إلى بيئة المدينة بخاصة .

(١) محاسن المساعى فى مناقب الأوزاعى — ٧٦

(١٣)

والبيئة الاجتماعية للمدينة بخاصة ، تشارك المجتمع الإسلامى فيما بسطنا من خصائص ، و إن تميزت بعد ذلك بأشياء ، فمن حيث أثر الرق فى طبقات هـذا المجتمع ، قد تزيد بيئة المدينة عن غيرها ، إذ كانت حاضرة الدولة أيام الفتح الأول ، و إليها كانت تحمل غنائمه ، وفيها كانت توزع الأسرى والسبيات .

ونحن نجد أثر هذا الرق فى المجتمع المدنى واضحا لعهد إمامنا « مالك » ، إذ نقرأ خبر وثوب السودان بالمدينة سنة ١٤٥هـ ـ أى حوالى منتصف القرن الثانى ـ غضبا من معاملة الجند للجمهور ، فثاروا على الجند والوالى ، وفتكوا بالجند يقتلونهم بالعُمد ، وطلبوا الوالى حتى هرب منهم ، ونزل بطن نخل على ليلتين من المدينة، فانتهبوا طعاما « للمنصور » ، وزيتا ...الخ .

وكان لهؤلاء السودان زعماء سمتهم الرواية هم : « وثيق ، و يعقل ، وزمعة» ـ على اختلاف الرواية فى هـذه التسمية ـ ومعهم تفاوض مواليهم الأحرار حين قصدوا إطفاء الفتنة[١] ، خوفا من بطش « المنصور» .

نعم إن هؤلاء السودان قالوا لمواليهم: إنما خرجنا أنفة مما عمل بكم ، فأمرنا

(١) ابن الأثير : الكامل ٥ / ٢٠٦

إليكم .. ولكنا لا نهمل مع هذا أن تجمع هؤلاء تحت رياسة زعماء معينين يقودونهم ، ظاهرة مبكرة الخطر على المجتمع الذى هم فيه ، لم نلبث أن رأيناها بعد ذلك تثل عروشا وتقتل خلفاء ، وتنشر الفوضى فى الدولة الإسلامية . .. بل إن سودان المدينة هؤلاء قد طمعوا فى السلطان العام وأن يكون الأمر إليهم ، إذ يروى « الطبرى[1] » أن رئيسهم كان المسمى « وثيقا » وخليفته « يعقل » ، وقد سئل إلى من تعهد يا « وثيق » ؟ فقال : إلى أربعة من بنى هاشم وأربعة من قريش ، وأربعة من الأنصار ، وأربعة من الموالى ، ثم الأمر شورى بينهم . فقال سائله : أسأل الله إن ولاك شيئا من أمرنا أن يرزقنا عدلك ؛ فقال العبد : قد والله ولانيه الله .

تلك مظاهر واضحة تلفت إلى خطر هؤلاء الأرقاء ، وإلى أن الموالى فى حسابهم ربع يشاطر الهاشميين والقرشيين والأنصار ، على ما ترى من فكرة « وثيق » فيمن يعهد إليهم ، وكأنما كانت المدينة أسبق البيئات الإسلامية تعرضا لخطر الموالى وثوراتهم المسلحة ضد السلطة الحاكمة .

وربما كان هذا ظاهرةً حجازية لا مدنية ، ففى مكة أيضاً نجد حادثة تشبه حال السودان فى المدينة ، إذ نرى « الحسين بن على صاحب فخ » حينما يأتى مكة بعد ظهوره فى المدينة سنة ١٦٩هـ يأمر فينادَى : « أيما عبد أتانا فهو حر » فأتاه

(١) الطبرى : تاريخ ٩ / ٢٣٧

العبيد[1] . فإن الفكرة فى استنفار هؤلاء العبيد ليست إلا تقديراً لخطرهم على الحياة وقوتهم فيها .

* * *

وأما مستوى الحياة وتأثره بالرخاء والثراء الذى كان شاملا ، ومدى ذلك على الحياة الخلقية ، فإن للمدينة فيه مزاياها . فلقد كانت حينا حاضرة الدولة أيام الراشدين ، ثم صارت مسكن نفر تركوا الاشتغال بالسياسة . وعُنى رجال الحكم فى الوقت نفسه باسترضائهم ، فلم يكن المال قليلا فى أيديهم ، بل كان كثيراً . وعمل لتكثيره لديهم الأمويون والعباسيون على السواء لأسباب سياسية ، قضت بها ظروف الدولتين ومركز المدينة الهام .

ومنذ عهد باكر ، وقع المغنون من الفرس والروم إلى الحجاز ، وصاروا موالى القوم من الصحابة ، وغنوا بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير[2] ، فكان أصل الغناء بالمدينة . وفيها منذ عهد « الرسول عليه السلام » نفر من المخنثين كان قد نهى عليه السلام أن يدخلوا على النساء[3] . وكان هؤلاء المخنثون بالمدينة أئمة الغناء والحذاق[4] فيه .

(١) ابن الاثير والكامل ٦ /٣١ ط مصر
(٢) ابن خلدون : المقدمة ــ ٣٧٣
(٣) أبو الفرج : الأغانى ٤ / ٦٢
(٤) المصدر السابق : ٦ / ٦١

وكان للمدينـة ، فى ذوق المستمعين ، جو ممتاز فى الغناء ليس لغيرها ، فهذا « يزيد بن معاوية » يسمع بالشام لحناً يطرب به طرباً شديداً ؛ فيقول لمن غناه إياه ـ وهو مدنى ـ : إن يصلح لنا هذا الأمر ، من قبل « ابن الزبير » فلعلنا أن نحج فتلقانا بالمدينة ، فإن هذا الأمر لا يصلح إلا هناك[1] .

وهؤلاء المخنثون ، فوق كونهم أئمة الغناء بالمدينـة ، كانوا يفيضون ـ فى أواخر القرن الأول وصدر الثانى ـ على جو المدينـة ضربا من العبث والمجون ، يبدو ـ على ما يظهر ـ قوياً فاجراً ، تصوره حادثة ، « الدلال المخنث » إذ كان يصلى فى مسجد المدينة ، فخرج منه صوت هائل ، سمعه من فى المسجد ، فرفعوا رءوسهم ، وهو ساجد وهو يقول فى سجوده ، رافعاً بذلك صوته : (سبح لك أعلاى وأسفلى) . فلم يبق فى المسجد أحـد ، إلا فتن وقطع صلاته بالضحك[2] ... و إن تكن هذه الحادثة موضوعة ، فقد قصد بها إلى تصوير حالة تبرر هذا التنـكيت ...

وتقول الرواية : إن أهل المدينة ، إذا ذكروا «الدلال» وأحاديثه ، طولوا رقابهم وفخروا به[3] ..

(١) الأغانى ٧ / ٩٨ ، ٩٩ ط الساسي
(٢) الأغانى ٤ / ٦٢
(٣) الأغانى ٤ / ٥٩

وكان عبث هؤلاء المخنثين بالأخلاق ـ على ما يروى ـ متصلا بهـذا المجون الفـكه ، وبذلك الغناء الذين اشتهرت به المدينة وامتازت ..

وإذ استحكم الفن الغنائى بالمدينة إلى هذا الحد ، فلا غرابة أن نرى مثل « عروة بن أذينـة » الفقيه الشاعر الملحن الذى ذكرنا رواية الإمام « مالك » عنه ؛ كما نرى مفتى المدينـة الآخذ عن « مالك » « عبد الملك الماجشون » ـ ٢١٢ هـ ـ ؛ مولعا بالغناء ، حتى إذا سافر كان معه من يغنيه[1] ، وذلك كله يمهد لما قدمنا من رواية ، أن « مالـكا » نفسه تعلم الغناء قبل تعلم الفقه ، على ما أشرنا إليه سابقا ، ورأينا أنه محل نظر ، يستوفى فى وصف شخصية « مالك » الفنية ...

على أن من الحق ، أن نترك الحديث عن بيئة المدينة المولعة بالغناء ، دون أن نشير إلى حادثة تدلنا على تقدير الجادين من أهل هذه البيئة للغناء ؛ وهى : أن « صالح بن حسان » المدنى ، ـ من أهل القرن الثانى ـ كان سريا يملأ المجلس إذا تحدث ، وكان عنده جوار مغنيات ، فهن وضعنه عند الناس[2] .. فالأمر فى تقدير الغناء ، ومنزلته فى نظر المدنيين ، كما هو الآن ـ وربما فى كل حين ـ فن يرضى عنه ، ولـكنه عند التقدير ، يضع صاحبه والمولع به فى مكانة

(١) ابن عبد البر الانتقاء ـ / ٥٧ ، ٥٨ .
(٢) ابن قتيبة المعارف ـ ١٦٧ ، الذهبى : ميزان الاعتدال ـ ١ / ٤٥٥

معينة ، لا يُجمع النـاس على تقديرها ؛ ويشعر غير قليـل منهم بما لها من صـلة قريبة ، بالتظرف والدعابة والعبث ، أو التساهل والتهاون على الأقل . . .

وعلى هذا الأساس نقدر ما نتناوله من الحديث عن حياة « مالك » من الناحية الفنية ...

* * *

لايترك القوم الموازنة بين البيئة المدنية ، والعراق ، من الناحية الاجتماعية ، فيقذفون العراق ، بأن منه منشأ الفتنة إذ ثارت منه قتلة « عثمان » ، وإن كان معهم فى ذلك بعض أهل مصر ، وهى أول فتنة وقعت فى هذه الأمة . . وأنه أتعب الخلفـاء والولاة فى تدبيره ، فأهله لا يرضون بوالٍ ، ولا يرضى عنهم وال . .

ويوازنون بينه وبين ما كان بالمدينة من شبيه ذلك؛ فيقولون: ولا يرد علينا ما وقع بالمدينة من قتل « عثمان » ، ولا من سرف « مسلم بن عقبة » ، لأن ذلك لم يكن من أهل المدينة، ولا فيما بينهم، ولا دام فيهم، ولا فرق جمعهم ،

و إنما كان بغياً عليهم ؛ الخ[١] .. وقد يؤيدون هذا الانتقاص ، بإنذار سابق من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنه أشار إلى المشرق ، وقال : ها إن الفتنة ههنا ، من حيث يطلع قرن الشيطان[٢] .

ونظرة إلى هذه التهم التى يراد بها تفضيل المدينة وتحقير غيرها ـ فيفضل بذلك مذهب « مالك » ـ ترينا أن بيئة المدينـة فى رأى الحـكام والولاة لم تكن محمودة ؛ وقد سمعنا من قبل آراء السياسيين الذين اتصلوا بها ، وعيبهم لها.

وأما تفسير إشـارة الرسول إلى المشرق وقوله ماقال ـ إن صحت الرواية ـ فمن التحكم تخصيصها بالعراق وحده ، حيث المخالفون فى الرأى الفقهى .

وقد رأينا الضعف الخلقى يسود بيئة المدينـة ، كما يسود بيئة العراق ـ مهما تختلف نسبته فيهما ـ لأنه أثر لأسباب اقتصادية ، واجتماعية مطردة ، لا يمتاز فى تأثيرها بلد عن بلد ، مهما ينشأ بالبلد من الـكرام والفضلاء .

على أن هذا القصد إلى تعييب العراق بخاصة دون غيره ، قد يلفتنا إلى روح مشادة خاصة بين فقه الحجاز وفقه العراق ، أو بين الحنفية والمالـكية أكثر مما بين المالـكية وغير الحنفية ، وهى عصبية تقتضينا تقدير آثارها .

---

(١) الزواوى ـ مناقب / ٥٣ و ٥٨

(٢) المصدر السابق ـ ٥٣

***

والآن وقد وصفنا من أمر البيئة المعنوية « لمالك » - رضى الله عنه - ماوصفنا، بعد ما تحدثنا عن الوراثة ، وما شرحنا من حال أسرته، نحسب أن قد أوفينا على وصف مطمئن -فيه شيء من الدقة- لعناصر تلك الشخصية، فلنمض لنتحدث عن شخصية «مالك» من نواحيها المختلفة .

الأمناء

مدرسة الفن والحياة

شعارهم: كريم على نفسي

أهدافهم

١ ألا يكون الفن ترفاً وضيعاً ولا عبثاً متجراً بحرم الشهوات والأهواء ويحمي الأصنام والأوهام

٢ ألا يكون الفن نسياناً للذاتية وإهداراً للشخصية يجول في الأرجاء يرجم بالظن ويحدس بالوهم

٣ ألا يكون الرأي الفني العام توجيه مسيطر ولا احتكار متجر ولا تهويش مضلل ولا وضع يد ولا مضي زمن

٤ ألا يكون درس الأدب وتاريخه تناولاً سطحياً وترديداً تقليدياً لما لا يساير تقدم الإنسانية ورقي الحياة العقلية

١ وأن يكون الفن نشاطاً وجدانياً سامياً يسعد الفرد والأمة إذ يفي حاجتها ويحقق في الحياة الكريمة غايتها كسائر ألوان نشاطها

٢ وأن يكون الفن في مصر من مصر ولمصر فهو في كل إقليم طابع شخصية وصورة نفسية وهو في الأقاليم المتوشجة ذو طابع عام وراءه خصائص خاصة

٣ وأن يكون الرأي الفني العام رقيقاً فنياً متجرداً يستعصي على الأهواء ويحكم التقدير فيذهب الزبد جفاء و...

٥ وأن يكون درس الأد... تصحح الخبرة الإنسانية ... والجماعة ويمثل التقدم ...

Bibliotheca Alexandrina
0355462